

الجمعية الخيرية الإسلامية

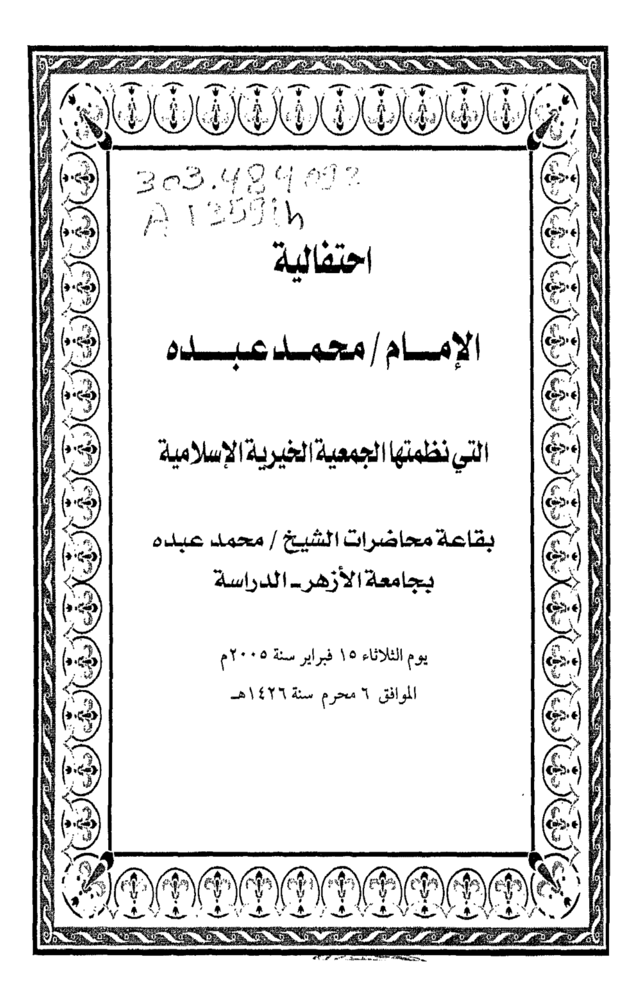
إحتفالية الإمام/ محمد عبده

التى نظمتها الجمعية الخيرية الإسلامية بقاعة محاضرات الشيخ/ محمد عبده بجامعة الأزهر- الدراسة

إهـــــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / محمد شوقي الفنجري

القاهرة



احتفالية

الإمـــام / محمـــد عبـــده

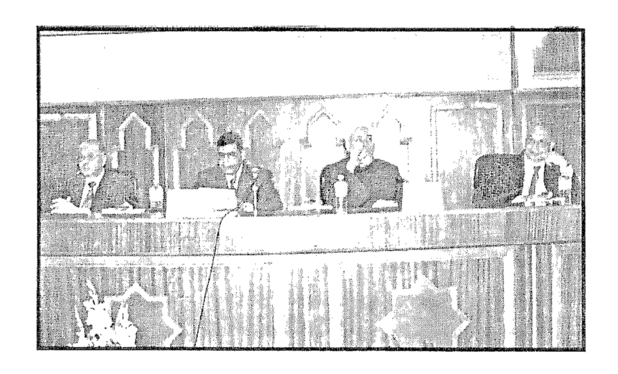
التي نظمتها الجمعية الخيرية الإسلامية

بقاعة محاضرات الشيخ / محمد عبده
بجامعة الأزهر - الدراسة

يوم الثلاثاء ١٥ فبراير سنة ٢٠٠٥م
الموافق ٦ محرم سنة ١٤٢٦هـ

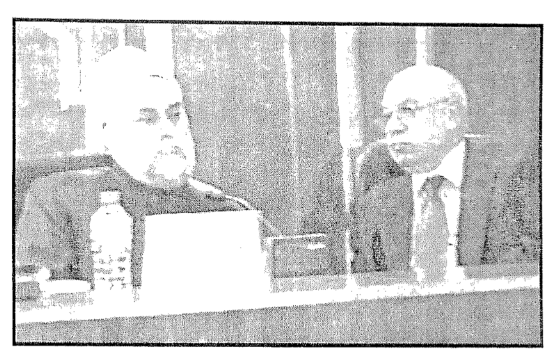


الآساتـذة الدكاترة : عاطـف العـراقي ، محمـود حمـدي زقـزوق ، سعيد عبد الوهاب الزهوي، علي جمعة ، جمال بدوي

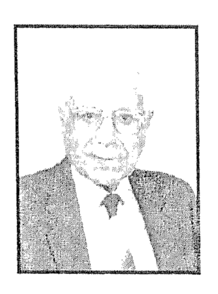




المستشار / سعيد عبد الوهاب الزهوي ، الدكتور / علي جمعة ، الأستاذ جمال بدوي



الدكتور / علي جمعة ، الأستاذ جمال بدوي



كلمة المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري رئيس مجلس الإدارة في إفتتاحية احتفالية الجمعية بالإمام محمـــد عبــــده

بســـم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء

تمهيد :

مرحبًا بالسادة الحاضرين ، ومرحبًا بالسادة المحاضرين ، ومرحبًا بأجهزة الإعلام ، وجميع الذين تفضلوا بمشاركة الجمعيـة الخيرية الإسلامية فى احتفالية اليوم برائدها الأول الإمام / محمد عبده .

ولقد سبق للجمعيـة أن احتفلت بروادها الأوائل الذين أعطوها الكثير ، وأصدرت باسـمهم كـتبًا مـتداولة عن أمـثال : سـعد زغلول ، ولطفى السيد ، وطلعت حرب ، وعبد الحميـد بدوى ، والشيخ المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق .. الخ . وكان من المفـروض أن تكون أولُ احتفاليـة للجمعية مـنذ عشر سنوات ، هى للإمام / محمد عبده ، باعتباره من أوائل منشئيها سنة ١٨٩٢ أى منذ أكثـر من قرن من الزمان ورأس مـجلس إدارتها فى الفـترة من سنة ١٩٠٠ حتى وفاته سنة ١٩٠٥ . ولكـن الجمعية قـررت أن تؤجل احتفاليتـها بالإمام /

محمد عبده إلى سنة ٢٠٠٥ بمضى مائة عام على وفاته ، وذلك لتكون احتفاليةً عامة وموسعة ، باعتبار الإمام / محمد عبده شخصية عالمية لها تأثيرها الكبير فى العالم الإسلامى عامة والعالم العربى خاصة ، **وسيظل دائما : مرجعا فى التجديد الدينى . ورائدا فى الإصلاح الاجتماعى . وقدوة فى التنوير الحضارى.**

حياة الإمام / محمد عبده ومسيرته :

لقد ولد الشيخ محمد عبده سنة ١٨٤٩ بمحلة مصر محافظة البحيرة ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم بكُتّابِ القرية ، أرسله أبوه إلى الجامع الاحمدى بطنطا (جامع السيد البدوى) لقربه من بلدته . وفى سنة ١٨٦٥ انتقل محمد عبده إلى القاهرة للدراسة بجامع الأزهر ، وحصل منه على شهادة العالمية سنة ١٨٧٧ . وقد بدأت حياته العملية بتعيينه سنة ١٨٧٨ مدرسًا للتاريخ والاجتماع بمدرسة دار العلوم ، وفى ذات الوقت مدرسا للغة العربية بمدرسة الألسن والمدرسة الخديوية ، كما كُلف بتدريس علوم الدين بالأزهر . وقد توثقت صلتُه بجمال الدين الأفغانى ، حتى أنه لما نَفَى الخديو توفيق ، جمال الدين الأفغانى نهائيًا عن مصر ، سئل جمال الدين من تركت خلفًا لك فى مصر فقال (تركت الشيخ / محمد عبده). وفى سنة ١٨٨٠ عَيّنَ رياض باشا رئيس وزراء مصر الشيخ / محمد عبده محرراً ثم رئيسا لتحرير الجريدة الرسمية للحكومة وهى الوقائع المصرية ، **وحدد محمد عبده دورها الجديد بأنها ليست لمجرد نشر القوانين والقرارات الحكومية وإنما هى أيضا « تخاطب العامة بلسان الحكومة ، وتخاطب الحكومة بلسان العامة »** ، ولهذا انتشرت الجريدة فى عهده إذ كان لكلامها فى الأنفس من الأثر ما لم يكن لغيرها من الجرائد .

ولقد كان الإمام / محمد عبده يعارض تسرع أحمد عرابى فى حركته ، حتى إذا استدعى الخديو توفيق الانجليز سنة ١٨٨١ ، انضم إلى العرابيين فى

مقاومة التدخل والاحتلال الأجنبى ، ومن ثم قضت المحكمة العسكرية المشكلة وقتئذ بنفيه إلى خارج البلاد ، فسافر الإمام / محمد عبده سنة ١٨٨٣ إلى بلاد الشام ، ثم فى آخر العام سافر إلى باريس حيث إلتقى بأستاذه جمال الدين الافغانى وأصدرا معا جريدة العروة الوثقى ، ولانتشارها وتأثيرها مُنعت عن الصدور بعد عشرة أشهر من ظهورها ، فعاد الشيخ / محمد عبده إلى تونس ومنها إلى الشام حيث عمل بها معلمًا وخطيبًا ، وذلك حتى سنة ١٨٨٨ حيث حصل على تصريح بالعودة إلى مصر وعين قاضيًا فمستشارًا بمحكمة الاستئناف . **وفى سنة ١٨٨٩ سارع خصمه الخديو عباس الثانى بتعيينه مفتيًا ليحول دون ترشيحه شيخًا للأزهر ، ولهيبته كان الخديو عباس الثانى يقول عنه (إنه يدخل على كأنه فرعون) . كما عين فى العام ذاته عضوا فى هيئة كبار العلماء بالأزهر وعضوا بمجلس الشورى** ، وتولى رئاسة الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٩٠٠ حتى عاجلته المنية فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ فى نحو ٥٦ سنة ، وشيعت جنازته رسميًا فى الاسكندرية والقاهرة فى مشهد مهيب .

إنجازات الإمام / محمد عبده وآثاره العلمية :

ولقد كان من أهم آثار الإمام / محمد عبده ، **إملاؤه لتفسير القرآن الكريم** المعروف بتفسير المنار لتلميذه السيد رشيد رضا ، **ومقالاته بجريدة الأهرام** وجريدة العروة الوثقى وجريدة الوقائع المصرية ، **ورسالة التوحيد ، وكتابه الإسلام دين العلم والمدنية** . ولقد تعلم اللغة الفرنسية وهو فى سن الأربعين ، ودخل فى **محاورات علمية** مع وزير خارجية فرنسا هانوتو ، وكانت له **رسائل متبادلة مع الفيلسوف الروسى تولستوى ، وترجم عن الطبعة الفرنسية** كتاب التربية للفيلسوف الانجليزى هربت سبنسر ، **وتولى تحقيق بعض كتب التراث** كأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز للجرجانى ، وكتاب المدونه للإمام مالك وغيرها .

ولعل من أهم ما تركه الإمام / محمد عبده **فتاويه العديدة المتميزة**، والتي تفضل المفتي الحالي الدكتور / علي جمعه وهو أحد المحاضرين اليوم بإعادة تجميعها مع تلخيصها وتبويبها وفهرستها ، وعهد فضيلته إلى الجمعية الخيرية الإسلامية بطبعها وتوزيعها بالمجان .

هذا واقرأ في محضر مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية المنعقد يوم الأربعاء ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٤ م الموافق ١٠ شعبان سنة ١٣٢٢ أن الشيخ / محمد عبده « أهدى الجمعية تفسيره لجزء عم من القرآن الكريم ، لتطبعه وتبيعه على ذمة مدارسها ، وأنها قد عهدت به إلى المطبعة الأميرية التي طبعت منه عشرة آلاف نسخة بتكلفة ٢١٢ جم ، قرر مجلس الإدارة صرفها للمطبعة ، وأن يباع هذا التفسير لحساب الجمعية بسعر النسخة ٥ قروش خمسة قروش ومنح الشيخ / محمد عبده مائة نسخة بدون ثمن » .

بعض الذين كتبوا عن الإمام / محمد عبده :

ولقد كتب عن سيرة وفكر وأعمال الإمام / محمد عبده الكثيرون ، منهم **من الأجانب المستشرقين** ماكس هورين ، وشاخت ، وجيب ، وجولد زهير ، وجوتيبه . **ومن العلماء العرب:** السيد رشيد رضا ، ولطفي السيد ، والشيخ مصطفي عبد الرازق ، وعباس العقاد ، وعبد المتعال الصعيدي ، وعبد الحليم الجندي ، **ومن الأساتذة الدكاترة** : منصور فهمي ، وزكي نجيب ، وأحمد أمين ، وعثمان أمين ، ومحمد عمارة ، وعاطف العراقي وغيرهم . **بل لقد كانت رسالة دكتوراه وزير الأوقاف الأسبق** الدكتور/ محمد البهي في سنة ١٩٣٦ من جامعة هامبروج بألمانيا عن الإمام / محمد عبده . **وهناك كتاب موسوعي أصدره المجلس الأعلى للثقافة** سنة ١٩٩٥ عن الإمام / محمد عبده مفكراً ورائداً للإصلاح الديني والاجتماعي ، شارك فيه ثمانية عشر عالمًا بإشراف وتصدير الأستاذ الدكتور / عاطف العراقي أحد محاضرينا اليوم .

ويأتى قريبا كتاب الجمعية الخيرية الإسلامية **باحتفالية اليوم** عن الإمام الأكبر / محمد عبده يشارك فيها اثنى عشر عالماً ، بعد أن إنقضى على وفاته قرن كامل من الزمان .

خلاصة حياة وجهود الإمام / محمد عبده :

هذا وإذا أردنا أن نلخص حياة الإمام / محمد عبده وجهوده فى شقيها العلمى والعملى ، فى كلمة واحدة ، لقلنا أنها « الإصلاح » وصدق الله العظيم: ﴿ إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإِصْلاح ما اسْتَطَعْتُ وَمَا توْفِيقِى إلاَّ باللَّه ﴾ [هود : ٨٨] **ولكنه إصلاح من نوع خاص ، يتميز به عن غيره من المصلحين : سواء فى مفهومه ومنهجه ، أم فى أدواته ووسائله ، أم فى أهدافه وغايته ، بل هو فى تقديرى** يختلف فكراً وسلوكاً عن أستاذه ورفيق عمره السيد / جمال الدين الأفغانى .

الفرق بينه وبين أستاذه / جمال الدين الافغانى :

فبينما يستعجل جمال الدين الإصلاح الفورى ، ويعول على أدوات السياسة والحكم ، وفى نهاية المطاف ينشدُ الوحدة الإسلامية . نجد الإمام / محمد عبده على نقيضه يؤكد على التطور والتدرج فى الإصلاح ، ويعتمد فى ذلك على التربية والتعليم وعلى وجه التحديد التربية الدينية والأخلاق ، وفى نهاية المطاف لا يطمع فى أكثر من نهوض كل قطر أو شعب ليحقق حريته وتقدمه . **ورغم هذا الاختلاف بينهما فى النظر والعمل والغاية ، نرى الإمام / محمد عبده يطلق على جمال الدين بأنه « شمس الحقائق » ويقول عنه « إن أبى** وهبنى حياةً يشاركنى فيها اخواى على ومحروس ، والسيد جمال الدين وهبنى حياةً أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين » .

إصلاح الأزهر وما عاناه الإمام / محمد عبده :

ولقد كان أكبر هموم الإمام / محمد عبده هو إصلاح الأزهر مؤمنًا بأنه

القـدوةُ ، وأن فى إصـلاحه صـلاحٌ للمـسلمـين ، وتجديد للديـن لأداء رسالتـه العالمية . ومن هنا كانت أشد معاناته من الأزهريين أنفسهم يتزعمهم كما يقول الدكتـور / أحمد أمين فـى كتابه زعمـاء الإصلاح « طائفةٌ ألفت القـديم حتى عدتـه دينًا ، وكرهت الجـديد حتى عـدته كفـرًا ، وعاشت فى المغـارات فلم تر حقائق الحياة » .

بل ذهب بعضُـهم فى محاربتـه للإمام / محمـد عبده ، أن ادعوا كـفره وزندقَتـه وأشاعـوا ذلك بين العامـة ، بل كتبـوا ضده التـقارير السرية لـلخديو والاستـانة ولورد كرومـر ، بل لفق بعضُهـم له صورة شمـسية مـع بعض نساء الافرنج وحملوها للخديو والعامة .

رحم الله الإمام / محمد عبده :

رحم الله الإمام / محمـد عبده بما قدمه لدينه ومجتمـعه والعالم أجمع ، وسـيظل حيًّـا بما خلفَـه من علمٍ وتنوير وتحـرير ، ومـا أرسـاه من أخلاقٍ وقـيم ومبادىء ، وما تركه من جلائل الأعمال وعظيم الآثار .

واحتفالنا اليوم هو احتفال بشخـصية عملاقة ، بذلت أقصى ما تملك من جهد للدفـاع عن الحقيقه وتصحـيح مسار حياتنا الدينية ، وكـان فى آرائه سابقًا لعصـره ، حتى إننا بـالرغم من مرور مـائة عام على وفـاته ما زلنا نسـترشـد بها ونقدرها حق قدرها .

ومازال مشروعه الإصلاحى مطروحًا ، وما زالت الحلولُ التى توصل إليها فى مختلف القضايا هى الراجحة ، بل تصلحُ لتكون هى المفاتيح الوحيدة لكثـيـر من المشكلات المستعصيه على جيلنا الحاضر .

بعض الأقوال المضيئة للإمام / محمد عبده

١. النظر العقلى هو الأساس :

أن أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، وهو عنده وسيلة الإيمان الصحيح ... والإسلام يترك أمام العقل البشرى كل الامكانات ما دام ينهج دروب الحكمة ، ويدعه ينظر إلى الحياة ويتعرف عليها لكى يكتشف بنفسه قيمة الحقائق المادية ، ليتوجه طواعية إلى الإيمان ... فإنه لا قيمة لعلم ومعرفة بدون إرادة وسلوك ، والمعارف الخالية من الإرادة والسلوك قليلة أو عديمة القيمة .

والإنسان هو الذى يكون عالمه من خلال عقله ووعيه ، وبقدر تفهمه ووعيه بتحدد سلوكه وفعله ما لم تكن هناك قوى خارجة عن إرادته ، فالإنسان يتميز عن غيره من المخلوقات بإنه يفكر ويتصرف بحرية ، وأن فكرة القدر أو القرار المسبق لا يجوز أن تقوده إلى الجبرية أو التراخى .

وكان رحمه الله يرى « أن الدين وقيمه ، هو أقوى عامل فى تهذيب أخلاق العامة والخاصة على السواء ، فضلاً عن أن الدين يسبق النفوس من حيث التأثر » ، وهو ما دفع الإمام/ محمد عبده إلى أن يوظف الدين للإصلاح.

٢. تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض :

« إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان :

- طريق التسلم بصحة المنقول مع الإعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله فى علمه .

- وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ».

٣. البعد عن التفكير :

« **إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر** » .

وفي هذا المعني يقول الإمام ابو حامد الغزالي في كتابه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ، أن الخطأ في ترك ألف كافر أفضل من سفك دماء امريء مسلم . ومن هنا كان الفقهاء القدامي يكفرون المقولة دون تكفير القائل ولو استند إلي تأويل فاسد .

٤. الإعتبار بسنن الله فى الخلق :

إن نظام البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، والله تعالى يقول ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ . « فعلى من **يطلب السعادة فى هذا الإجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام يَرُدُّ إليها اعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه ، فإن غفل فلا ينتظر إلا الشقاء** ، وأن ارتفع إلى الصالحين نسبه أو اتصل بالمقربين سببه » ، وصدق الله العظيم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ .

٥. ليس فى الإسلام ما يسمى بالسلطة الدينية :

لم يدع الإسلام لاحد بعد الله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمان والرسول عليه السلام كان مبلغًا ومذكراً لا مهيمنًا أو مسيطراً ، والله تعالى يقول : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .

والخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ... « **فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه ، والأمة هى التى تنصبه ، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى التى** تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ».

٦. القتال شرع فى الإسلام لرد العدوان ومنع الفتنة :

« ليس القتل في طبيعة الإسلام ، بل في طبيعته العفو والمسامحة بقوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله ، إلى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للإنتقام من مخالفيه ، ولهذا لا نسمع فى تاريخ الحروب الإسلامية ما نسمعه فى الحروب الصليبية » .

٧. مودة المخالفين فى العقيدة :

« أباح الإسلام أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء فى عقيدتها والقيام بفروض عبادتها والذهاب إلى كنيستها ، **فلم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى** : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ».

٨. عدم الغلو فى الدين :

« لا يوجد غلو فى الدين ، بل يوجد الإعتدال والموقف الوسيط ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ .. وقد راعى الإسلام فى أحكامه صحة البدن ، كما عنى بسلامة الروح ، **وصرح بالرخص وجعل المشقة توجب التيسير**، حتى نجد القاعدة (صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان) .

وأباح الإسلام لأهله الزينة والطيبات ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ، **وله التمتع بالمشتهيات شريطة القصد والاعتدال والوقوف عند الحدود**

﴿ يَا بني آدمَ خُذُوا زينتكُمْ عند كُلِّ مَسْجدٍ وكُلُوا واشربُوا وَلا تُسْرفُوا إنهُ لا يُحبُّ المُسْرفين ﴾ ، ﴿ ولا تجعلْ يدكَ مغلُولَةً إلىٰ عُنُقكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْط فتَقْعُدَ ملُوماً مَحْسُوراً ﴾ .

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل « بع ما تملك واتبعنى » ولكن **قال لمن استشاره فيما تصدق به من مال** « الثلث ، والثلث كثير ، أنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

٩. الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة :

الإسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها ، إذ يقول تعالى ﴿ وابْتَغِ فيمَا آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخرَةَ وَلا تَنسَ نَصيبَكَ منَ الدُّنْيَا وَأَحْسن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .
وقوله تعالى :﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

١٠. حتمية ربط التعليم بالتربية :

« **التعليم والمعرفة بدون تربية وأخلاق ليس أكثر من** (نقش على الماء) أو(رسم على الهواء) ، وقد أظهرت تجارب التعليم خاصة فى مصر أن الإقتصار عليه وحده يؤدى إلى الفساد على كل المستويات ، ويمكن القول بإختصار شديد أن خلو التعليم من التربية ، لا يعدو أن يكون تفريجًا لأجيال من الشياطين لا من البشر » .

والتقدم المادى وحده لا يكفى بل لابد إن يزامنه إن لم يكن يسبقه التقدم الروحى والأخلاقى .

١١.إصلاح الأزهر هو أعظم خدمة مطلوبة :

« ذلك أنه هو المثال والقدوة ، وفى إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفى فساده فساد لهم ... وأن سوء الفهم بين أوروبا والمسلمين أو الشرق عامة ، **يكمن فى جهل الأوربيين بماهية الإسلام ، وعجز المسلمين عن تعريف الأوربيين بماهية الإسلام** ، فالمسلمون أنفسهم ليسوا على دراية بالإسلام سواء على المستوى النظرى أو العملى أو الأخلاقى .

أن الدين بالنسبة للإنسان بمثابة « الحاسة » أو « البوصلة » التى لا غنى عنها . ولقد كان الإسلام « مهمازًا » للمسلمين يحثهم على جلائل الأعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به فى إستعراف الأحول وتقويم الأفكار ، وعاطفًا يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الأرض سادة لهم وقادة لسكانها » .

١٢.الفقر الحقيقى الذى تعانيه البلاد :

« **ليس قلة الموارد والإمكانات المادية حسبما يردد البعض ، وإنما فقر البلاد يتمثل فى قلة الراشدين فيها وغناها الحقيقى يتمثل فى كثرة المهتدين ، إذ مهما** كانت الموارد فإنها بدون عقل رشيد وفكر سليم لا قيمة لها ... فماذا تصنع الوسائل المهيئة إذا لم تجد من يستعلمها فيما هو وسيلة له ، وأى شىء تغيره الفرص إذا لم تصادف من ينتهزها ، وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل » .

١٣.مشكلة تخلف العالم الإسلامى :

إننا إذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان ، لا نجد **إلا سببًا واحدًا هو القصور فى التعليم الدينى ، ذلك لأن البعد الدينى** لدى الإنسان يمثل مركز الدائرة فى تكوين الشخصية ، ومن هنا يمتد تأثيره إلى كل الخطوط التى تصل هذا المركز بمحيط الدائرة .

إن المشكلة ليست فى الدين، وإنما فى الفهم الخاطئ للدين وعدم ربط مبادئه وقيمه بقضايا العصر... ولقد انصرفت الأذهان عن القرآن والسنة وانحصرت أنظارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء، وما تراكم عليها من الخزعبلات والفكر المتخلف الذى استمر فى الوجود واكتسب نوعًا من القداسة بسبب التقليد، **بحيث طمست حقيقة الإسلام المشعة النباءة وتعطلت وظيفته الأصلية كمهماز للرقى والتقدم المادى والروحى.**

وانه مما يعرقل شخصية المسلم ما يشيع بين الناس من جبرية مرفوضة، وتوكل مذموم، وسلبية بغيضة. **وانه من المؤسف أن تشغل الأمة الإسلامية بقضايا هامشية كاطالة اللحى وتقصير الثياب والدفاع عن النقاب والسواك وتعدد الزوجات... إلخ بل لا يخجل الفقهاء بتعريف الزواج بأنه** (عقد يملك به الرجل بضع المرأة)، فينحط بها غافلاً التعريف القرآنى بقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً ورحْمَةً ﴾، وهو ميثاق غليظ ورباط مقدس.

أن الأمور الإعتقادية التعبدية يجب إرجاعها إلى القرآن والسنة، وبعبارة أخرى إرجاعها إلى ما كان عليه السلف الصالح بلا زيادة ولا نقصان.. أما الإسلام من حيث هو نظام سياسى أو إجتماعى أو إقتصادى، فإنه يظل قابلاً للتطوير والتكييف بتغير الأزمنة والأمكنة. **إن القضية المصيرية اليوم أمام الأمة الإسلامية هى قضية التخلف فى شتى المجالات الفكرية والدينية والإجتماعية والإقتصادية.**

١٤. الإمام / محمد عبده والسياسة:

« إن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم، فإنا معك من الشاهدين وأعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معني السياسة، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة .. ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ».

١٥. الإمام / محمد عبده والتصوف :

« التصوف الحق هو الذي يعني بتهذيب أخلاق العامة وتقويم عاداتهم ، وان للمتصوفة أذواقًا خاصة وعلمًا وجدانيًا ، وهذا الذوق يحصل للإنسان فى حاله غير طبيعية ، وما دام كذلك، فلا يصح أن ينقله لغيره أو يكتبه ويدونه علمًا ».

بعض الحكم المنثورة للإمام / محمد عبده

١ـ بقاء الإسلام إلى اليوم كاف فى الدلالة فى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان رسولاً حقًا ، **وبقاء القرآن كذلك محفوظا إلى اليوم أقوى شاهد ودليل.**

٢ـ أن لكلام الله فى القرآن أسلوبًا خاصًا يعرف أهله ومن امتزج بلحمه ودمه، وأما اللذين لا يعرفون عنه إلا مفردات الألفاظ وصور الجمال فأولئك عنه مبعدون .

٣ـ من أهم ما يجب التصريح به بيان ما انتشر بين العامة مما يحسبونه دينًا وهو عند الله ليس بدين .

٤ـ من لا صديق له فهو عدو نفسه وعدو الناس ، وحسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه .

٥ـ إن الله لم يضع الراحة فى غير العمل .

٦ـ لا صلاح مع الجهل .

٧ـ إن الذى يحفظ العلم هو العمل به .

٨ـ أقوى شرط فى النجاح قوة العزيمة فيه بأن يصر الإنسان على الفوز بغرضه، فإذا ضعفت فيه ضاع نجاحه ، وهذا شأن المسلمين اليوم .

٩ـ أعمال الإنسان تصدر عن إرادته ، وإرادته إنما تنبعث عن آرائه ، وآراؤه هى نتاج علمه ، فالعلم مصدر الأعمال كلها دنيوية وأخروية ، وسعادة الناس فى دنياهم وأخراهم لا تتحقق إلا بالإيمان والعمل .

١٠ ـ **محاسبة النفس وخلجان القلب ركن كبير من أركان** الإيمان ، وقد جعلها الصوفية شرطًا مهمًا فى نجاح الإنسان .

١١ ـ تعلو الأمم حضاريًا بفعل العقل والعلم ، ولكنها لا تستمر متحضرة بدون الدين والأخلاق .

١٢ ـ الدين هو الذى يحقق الإرتقاء المعنوى ، والإرتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الإرتقاء المادى .

١٣ ـ الإيمان الذى يجتمع معه أدنى خوف من المخلوقات ليس بإيمان ، ومن كان عنده من الثقة بالله ما لا يخشى معه أحدًا فهو مؤمن ، وهذا الإيمان هو الذى يضع رجل صاحبه فى عتبة الجنة .

١٤ ـ أساس سعادة الإنسان ثقته بالله وعمله لرضاه .

١٥ ـ لا وحشة فى النفس كوحشة الجهل ، وكلما عمل الإنسان شيئًا انس به وسره .

١٦ ـ من أكبر التقوى علو الهمة ، ومن أكبرها السعى فى مصلحة الأمة ونفع الناس .

١٧ ـ إن الإنسان تضيق حياته أو تتسع ، بقدر ما يعلم ويعمل بعلمه .

١٨ ـ تنقضى الأجيال والأعوام ولا يمكن أن ينقضى النظر فى الحقائق الكونية ولا فى الحقائق التى فى الإنسان .

١٩ ـ الحياء أحسن فضيلة فى الإنسان تمنعه عما لا يليق له ، ونعم الخلق الحياء .

٢٠ ـ ليس وراء القرآن غاية ، وهو الدوحة والأصل الذى يرجع إليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المستشار الدكتور / شوقى الفنجرى



مكانة العقل فى فكر الشيخ محمد عبده

للاستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق
وزير الأوقاف المصرية

١ - نظرة عامة

لم يكن الشيخ محمد عبده (١) . مجرد مصلح دينى حفزته الأوضاع الدينية المتردية التى طغت على الدين الحقيقى إلى الكشف عنها ، ومحاولة إزالة الغبار الذى تراكم على المفاهيم الدينية الصحيحة على مدى قرون التخلف والانحطاط الفكرى .

---

(١) ولد الشيخ محمد عبده فى إحدى قرى مديرية (محافظة) البحيرة عام ١٨٤٩م . وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم التحق بالمعهد الدينى بطنطا ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر . وفى القاهرة تعرف على الشيخ جمال الدين الأفغانى ولازمه واصبح من أقرب المقربين إليه .

وبعد أن أتم دراسته فى الأزهر اشتغل أولا بالتدريس فى دار العلوم ، ثم اختير رئيسًا لتحرير جريدة « الوقائع المصرية » وعندما وقف بجانب الوطنيين فى ثورتهم ضد الاستبداد وتم إخماد الثورة نفى إلى بيروت .

وفى عام ١٨٨٤م رحل إلى باريس وشارك الأفغانى فى إصدار صحيفة العروة الوثقى ولكنها سرعان ما توقفت بعد ثمانية أشهر فعاد إلى بيروت وتوفر على التدريس فى المدارس الدينية .

وبعد أن سمح له بالعودة إلى مصر عام ١٨٨٩م تم تعيينه قاضيًا بالمحاكم الأهلية . وفى عام ١٨٩٩م عين مفتيا للديار المصرية . وكانت له جهود بارزة فى إصلاح الأزهر وتطوير المحاكم الشرعية وإنشاء مدرسة القضاء الشرعى . =

ولو كان هذا فقط شأن محمد عبده لكفاه ذلك فضلاً وشرفًا ،ولكن محمد عبده كان ـ بالإضافة إلى ذلك ـ عَلَمًا من أعلام الفكر بالمعنى الواسع لهذا المصطلح ، **وكان على يقين من أن قضية إصلاح الفكر الدينى لا تنفصل عن قضية إصلاح الفكر بصفة عامة ، فكلاهما يؤثر فى الآخر إيجابًا أو سلبًا . وقد أخذ الشيخ محمد عبده على عاتقه مهمة الإصلاح بالمعنى الشامل .**

وإصلاح الفكر يعنى العودة إلى مقررات العقل السليم ، وتمكين هذا العقل من أداء دوره كاملاً فى الحياة ، ومن هنا وجدنا الشيخ محمد عبده فى دعوته الإصلاحية يؤكد على أهمية العقل وأهمية دوره الحاسم فى إحداث التغيير المطلوب والإصلاح المنشود ، **فإذا استقام الفكر استقام الفهم للدين واستقامت أمور الحياة وانفتح الطريق ممهدًا أمام الإنسان نحو تجديد الحياة وتطويرها والارتقاء بها وبناء الحضارة الإنسانية على أسس سليمة راسخة .**

وتزخر كتابات الشيخ محمد عبده بالإشادة بدور العقل بوصفه أجل القوى التى منحها الله للإنسان ، الأمر الذى يقتضى وضع العقل فى مكانه الصحيح لهداية الإنسان وإرشاده فى شتى آفاق هذا الكون الفسيح وفيما وراء هذا الكون أيضًا . **يقول الشيخ فى هذا الصدد** :

= ومن أهم مؤلفاته « رسالة التوحيد » و« الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » بالإضافة إلى تفسيره للقرآن الكريم الذى لم يكتمل .

وقد هاجمه أصحاب التيار التقليدى هجومًا شديدًا وشهروا به بسبب آرائه الإصلاحية والتجديدية . ولكنه بقى صامدا إلى أن انتقل إلى جوار ربه عام ١٩٠٥م .

(انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٢٩ ص ٩١٦٥ وما بعدها ـ مركز الشارقة للإبداع الفكرى. وانظر أيضًا : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ١٢٢ وما بعدها ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٣) .

« العقل قوة من أفضل القوى الإنسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة » [1] .

وفى موضع آخر يقول :

« والعقل من أجل القوى ، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها ، والكون جميعه هو صحيفته التى ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه ، وكل ما يقرؤه فيه فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه » [2] .

وقد كانت هذه النظرة للعقل الإنسانى هى مرتكز دعوته الإصلاحية التجديدية التى خاض فى سبيلها نضالاً طويلاً على كافة الأصعدة .

وفى هذا المقام نود التركيز على إبراز مكانة العقل فى فكر الشيخ محمد عبده ، وذلك من خلال عرض موجز لمنهج الشيخ فى هذا الصدد والذى يتمثل فى تمهيد الطريق أمام العقل الإنسانى من ناحية ، وفى التأكيد على الدور الفاعل والمؤثر للعقل من ناحية أخرى ، ليس فقط فى مجال الأمور الدنيوية ، بل أيضا فى مجال الأمور الدينية وعلى رأسها قضية الإيمان الدينى ، كما نشير أيضًا إلى أن تمكين العقل من أداء دوره يمثل العنصر الأساسى فى البناء السليم للشخصية الإنسانية .

٢. تمهيد الطريق أمام العقل

لقد أراد محمد عبده قبل أن يضع الأسس للبنيان الإصلاحى الجديد أن يمهد الطريق أمام العقل ، وأن يزيل العقبات التى تعترض طريقه ، وهى تلك العقبات التى تقف حائلا بينه وبين أداء دوره كاملاً فى هذه الحياة . وإزالة هذه العقبات تعد شرطًا ضروريًا لا غنى عنه إذا أريد للعقل أن ينهض بالدور الذى ينبغى أن يقوم به فى سبيل ترقية الحياة والنهوض بها فى جميع المستويات .

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده ص ٧٦ ـ دار المنار بمصر ١٣٧٣هـ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

ومن هنا كان تأكيد الشيخ محمد عبده على ضرورة التخلص أولا من هذه العقبات حتى لا يكبو العقل متعثراً فيها اذا سار فى طريقه دون إزالتها . وأهم هذه العقبات فى نظر الشيخ يتمثل فى **التقليد الأعمى** وفى **تخدير العقل** عن طريق المصادر السيئة للتثقيف .

(أ) التقليد :

يشكل التقليد بمختلف صوره وأشكاله أهم العقبات التى تعترض طريق العقل الإنسانى فى سبيل أداء دوره الفعال والمؤثر فى الحياة ، إذ يعد بمثابة إلغاء للعقل وقضاء على شخصية الفرد وكبت لقدراته وامتهان لكرامته . والإنسان الذى يكتفى بمجرد التقليد الأعمى للمذاهب والأفكار والأشخاص يتنازل عن إنسانيته ، ويسلم زمام أمره إلى من يقوده ، ويرتضى لنفسه أن يكون مجرد تابع لغيره ، لا رأى له ولا تفكير . وهذا التقليد ضلال يعذر فيه الحيوان ، ولكنه لا يصح بحال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز .

وقد رفض الشيخ محمد عبده التقليد فى كافة أشكاله وصوره ، وضرب على ذلك أمثلة كثيرة نذكر من بينها حديثه عن الفقهاء حيث يقول :

« جعل الفقهاء كتبهم هذه ، على علاتها ، أساس الدين ، ولم يخجلوا من قولهم : إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة . فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث ، وانحصرت أنظارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء والركاكة »[١] .

وقد شدد الشيخ محمد عبده على ضرورة تحرير الفكر من أغلال التقليد، وأشار إلى أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا معليا

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ـ تحقيق د. محمد عمارة ج٣ ص ١٩٥ ـ بيروت سنة ١٩٨٠ .

لعقـول على عقول . فـالسابق واللاحق يستـويان فى التمييز والفطرة ، وهناك إمكانات متوفرة أمام اللاحق لم تكن متاحة لمن سبقه :

« فاللاحق له من علم الأحوال الماضـية واستعداده للنظر فيـها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه »[1] .

وأشار الشيخ محمد عبده إلى دور الإسلام الحاسم فى مجال تحرير الفكر من أغلاله وقيوده حيث « أطلق سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته »[2] .

وهكذا تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما : « استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له إنسانيته »[3] .

وقد ظل الشيخ محمد عبده طول حياته يحارب التقليد ويدعو إلى النقد ويحث عليه بوصفه أداة لتمحيص الآراء ومعرفة وجه الحق فى الأفكار[4] .

ويلخص الشيخ دعوته إلى نبذ التقليد بقوله :

« ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف[5] .... والأمر الثانى إصلاح أساليب اللغة العربية »[6] .

---

(١) رسالة التوحيد تحقيق محمود أبو رية ص ١٥٤ ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ . (٣) المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٤) زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ص ٣٠٩ . دار الكتاب العربى بيروت (دون تاريخ) .

(٥) لم يكن محمد عبده سلفيًا بالمعنى الشائع اليوم . فهذا التيار الذى يسمى نفسه اليوم تيارًا سلفيًا ليس له نصيب من السلفية التى يقصدها الشيخ محمد عبده ، إذ هو اتجاه يدخل فى باب التقليد المذهبى الذى يرفضه الشيخ . فقد دعا محمد عبده إلى فتح باب الاجتهاد والتجديد ، لا يقلد مذهبًا معينًا ولا يتبع فرقة بعينها . فكان هو نفسه مدرسة تجديدية تحارب الجمود والتقوقع فى شتى المجالات .

(٦) نقلاً عن : زعماء الإصلاح ص ٣٢٧ .

ويتصل برفض التقليد رفض كل سلطة تمثل ضغطاً قاهراً على الفكر لتوجيهه فى اتجاه معين ، وبصفة خاصة السلطة الدينية التى تجد لها مجالاً خصبًا فى عصور الظلام . ويؤكد الشيخ على هدم الإسلام لبناء هذه السلطة ومحو آثارها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم[1] . ويعبر الشيخ عن ذلك بقوله :

« لقد رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم »[2] .

وهكذا لا ينبغى ـ بعد أن قام الإسلام بإزالة هذه العقبة الكأداء من طريق العقل الإنسانى ـ أن تقوم فئة من الفئات بوضع هذه العقبة مرة أخرى فى طريق الإنسان ، فإن ذلك يعد جناية على الدين والفكر على السواء .

(ب) مصادر التثقيف :

المصادر التى يستقى منها الناس ثقافتهم ومعارفهم لها دور حاسم فى التكوين الفكرى للأفراد والجماعات . ومن هنا ينبغى أن تكون هذه المصادر صالحة لتغذية العقول والأفهام حتى لا تؤذى هذه العقول بما تنقله من جراثيم فكرية وأوبئة ثقافية تهدم العقول وتقضى على صحة الفكر والثقافة .

ولما كانت الكتب تمثل أهم الينابيع التى تستقى منها العقول زادها فقد رأينا الشيخ محمد عبده يلفت الأنظار إلى هذه الحقيقة محذراً من الأضرار البالغة التى تنجم عن الكتب التى تعمل على تخدير العقل وتشل فاعليته ، وهى تلك الكتب التى يصفها بأنها :

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٦ .

(٢) الأعمال الكاملة ج٣ ص ٤٤٤ .

« كتب الأكاذيب الصرفة وهى ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع.. ومنها كتب الخرافات، وهى تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات إلى الأرواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت، وتارة تتكلم فى ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الأسباب التى لا مناسبة بينها وبين ما زعموه ناشئا عنها ، وتارة تثبت ما لا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف »[1] .

ولا يخفى ما فى هذه المؤلفات من أخطار ، إذ هى تنشر الجهل والخرافات بين الناس ، وتحول بينهم وبين معرفة الأسباب الحقيقية للأحداث الكونية وللأحداث التى تمر بهم فى حياتهم اليومية على المستوى الفردى والجماعى ، وتجعلهم يركنون إلى الكسل العقلى ، ويرتضون لأنفسهم الشلل الفكرى ، فلا يرون حقيقة ما هم عليه من جمود وتخلف وانحطاط.

والأمر المؤسف حقا أن أمثال هذه الكتب التى تخدر العقل وتشل فاعليته لا تزال تجد لها سوقا رائجة فى أيامنا هذه .

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد نبه إلى هذا الخطر الداهم الذى شل تفكير المسلمين بالفعل زمنًا طويلاً فإنه من ناحية أخرى لا يقف بنا عند حدود هذا التنبيه إلى السلبيات القاتلة ، وإنما يتجاوز ذلك إلى ضرورة الخروج من هذا المأزق . فإذا كانت الكتب التى أشار إليها تعد من المعوقات الرئيسية التى لابد من تحرير العقل من أسرها **فإنه من جانب آخر يوجه العقل بعد هذا التحرر إلى ضرورة التزود بالزاد الفكرى السليم، وذلك بالحصول على المعلومات المفيدة والمعارف النافعة « من الكتب المفيدة الصحيحة »** ، والعلوم النافعة التى تؤهل صاحبها لتمييز الغث من السمين من الأفكار ، وتقويم البراهين وتسديدها وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) الأعمال الكاملة ج٣ ص ١٥ ، ١٧ ، ٥١ .

وقد كان محمد عبده نفسه مثالاً عملياً لذلك حيث راح - وهو لا يزال في مرحلة طلب العلم - يغذى عقله وفكره بالعلوم العقلية والمنطقية النافعة . وقد وشى الواشون حين ذاك إلى والده بأن ولده يدرس علوم الضلالات التى توقع فى الشبهات وتزلزل المعتقدات ، فسافر الوالد إلى ولده فور سماعه نبأ هذه « الكارثة » ليصل إليه فى القاهرة فى الساعة الثالثة صباحاً محذراً منذراً بالويل والثبور وعظائم الأمور ، كما يروى ذلك الشيخ محمد عبده فى مقال له فى صحيفة الأهرام عام ١٨٧٧ . **وقد هدأ الابن من ثورة أبيه وطمأنه إلى أن ما يدرسه أمور لا صلة لها بالكفر والضلال ، فدراسة العلوم العقلية تعد ضرورة لا غنى عنها لأمور الدين والدنيا على السواء**[١] .

وما قاله محمد عبده عن ضرورة حسن اختيار الكتب التى تغذى العقل ينطبق على كل منتجات الفكر والأدب والفن فى أجهزة الاتصال المختلفة المقروءة والمسموعة ، والمرئية ، وفى المسرح والسينما والفيديو وغير ذلك من مصادر ثقافية مختلفة تؤثر بطريقة أو بأخرى فى بناء شخصية الفرد والمجتمع .

٣ - بناء الشخصية الإنسانية

لقد كان محمد عبده بتأكيده على أهمية العقل وضرورة تمهيد الطريق أمامه يؤكد فى الوقت نفسه على سلامة بناء الشخصية الإنسانية ، ويبرز ما لها من استقلالية فى الفكر والعمل . فجوهر الشخصية الإنسانية يتمثل فى العقل الذى به سما الإنسان وارتفع قدره على كل الكائنات الأخرى ، وليس هناك مجال للمقارنة بين الإمكانات المادية وقدرات الإنسان العقلية ، فهذه الإمكانات بدون القدرات العقلية لا قيمة لها . **والغنى الحقيقى هو فى فاعلية الدور الإنسانى ، والفقر الحقيقى هو فى غياب هذا الدور ، أى فى غياب العقل .**

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ وما بعدها .

والنظرة السطحية لتشخيص حالة التخلف التى تعانى منها البلاد ترجع ذلك إلى قلة الموارد والإمكانات المادية ـ كما يتردد ذلك كثيراً فى أيامنا أيضًا ـ ولكن الشيخ محمد عبده يرفض هذه النظرة السطحية . **ويرى أن الفقر الحقيقى الذى تعانيه البلاد ليس فى قلة الموارد والإمكانات المادية ، وإنما فقر البلاد يتمثل فى قلة الراشدين فيها ، وغناها الحقيقى يتمثل فى كثرة المهتدين ، إذ مهما كانت الموارد فإنها بدون عقل رشيد وفكر سليم لا قيمة لها** :

« فماذا تصنع الوسائل المهيئة إذا لم تجد من يستعملها فيما هى وسلية له؟ وأى شىء تفيد الفرص إذا لم تصادف من ينتهزها ؟ وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل ؟ »[1] .

وهنا تتضح القيمة الكبرى التى بدونها لا يمكن السير فى طريق الإصلاح والنهوض ، وتلك هى قيمة الإنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى : الإنسان الراشد المهتدى بنور العقل ، الواعى بأهدافه ، الفاهم لما يحيط به ، إنه فى النهاية خليفة الله فى الأرض .

ومن هنا ينبغى أن تتاح الفرصة أمام الإنسان لبناء شخصيته بالتعليم الصحيح والتربية السليمة ، والاهتمام بصفة خاصة بالتعليم الدينى ؛ لأن هذا التعليم إذا كان يسير فى الاتجاه الصحيح فإنه سيقود إلى وعى عام وفهم مستنير ، أما إذا كان يسير فى اتجاه غير سليم فإنه سيؤدى لا محالة إلى التخلف والانحطاط .

بل إن الشيخ محمد عبده يرجع أسباب الخذلان فى المجتمع الإسلامى إلى القصور فى التعليم الدينى. وفى ذلك يقول : « إذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد إلا سببًا واحداً وهو القصور فى التعليم الدينى »[2]

---

(١) الأعمال الكاملة ج٣ ص ٤٢ .

(٢) نقلاً عن : الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ١٤١ ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٣ .

وذلك لأن البعد الديني لدى الإنسان يمثل مركز الدائرة فى تكوين شخصيته ، ومن هنا يمتد إلى كل الخطوط التى تصل هذا المركز بمحيط الدائرة .

ومما يعرقل نمو الشخصية الإنسانية ما يشيع بين الناس من جبرية مرفوضة وتواكل مذموم وسلبية بغيضة. ويفرق الشيخ تفرقة حاسمة بين هذا الاعتقاد الجبرى الباطل وبين الاعتقاد بالقضاء والقدر مبينا أن « الاعتقاد بالقضاء والقدر - إذا تجرد من شناعة الجبر - يتبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك »[1] .

فالإنسان قد حباه الله بميزة العقل والفكر ومنحه الحرية فى الاختيار والفعل ، فلا يعقل إذن أن تسلب منه هذه المزايا بالوقوع فى أسر عقيدة جبرية تلغى شخصيته وتجعله كالريشة فى مهب الريح تميلها حيث تميل ، وهذا ما يبرزه الشيخ فى حديثه عن الإنسان حيث يقول :

« إنه مفكر مختار فى عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكًا أو حيوانًا آخر ، والغرض أنه الإنسان ، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل »[2] .

فعقيدة القضاء والقدر بعيدة إذن عن أن تكون بمثابة نوع من أنواع القهر والإجبار على العمل. وإذا كان الأمر كذلك فإن على الإنسان أن يسعى إلى بلوغ كماله النوعى الذى يتمثل : « فى إطلاق مداركه عن القيد ومطالبه عن النهايات »[3] .

وبذلك تنطلق قدرات الإنسان بلا حدود فى سبيل بناء الحياة الإنسانية على كافة المستويات .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٢) الأعمال الكاملة ج٣ ص ٣٨٩ .

(٣) المرجع السابق ٤٠٩ .

ولا يجوز للإنسان بأى حال من الأحوال أن يخضع فكره وعقله لشىء إلا للحق وحده . وتتمثل شجاعة الإنسان فى تحرير نفسه من قيود التقليد أولاً ثم فى الخضوع لميزان الحق ثانيًا ، وفى ذلك تتمثل حريته .

يقول الشيخ فى هذا الصدد :

« لا ينبغى للإنسان أن يذل فكره لشىء سوى الحق ، والذليل للحق عزيز ! نعم ، يجب على كل طالب أن يسترشد بمن تقدمه سواء كانوا أحياء أم أمواتا ، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم . فإن وجده صحيحًا أخذ به ، وإن وجده فاسداً تركه . والحاصل أن الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة . والشجاعة هنا قسمان : شجاعة فى رفع القيد الذى هو التقليد الأعمى ، وشجاعة فى وضع القيد الذى هو الميزان الصحيح الذى لا ينبغى أن يقرر رأى ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه . وبهذا يكون الإنسان حراً خالصاً من رق الأغيار عبداً للحق وحده »[1] .

٤ ـ العقل وأصول الاعتقاد

مجال عمل العقل لدى الشيخ محمد عبده لا يقف عند حدود الأعمال الدنيوية ، بل يمتد إلى أخطر قضية دينية ، وهى قضية الإيمان بخالق هذا الكون، فهذا الإيمان بوجود الله ووحدانيته لا يجوز أن يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى . وإذا كان الأمر كذلك فإنه « لا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة »[2] ، لأن الإيمان بالرسل وبالكتب المنزلة ينبنى على الإيمان بالله أولاً .

ومن أجل ذلك يؤكد الشيخ على أن الإسلام لا يعول فى الدعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده إلا على : « تنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى النظر

---

(١) تاريخ الإمام ج١ ص ٧٦٢ . وما بعدها (نقلاً عن : الفكر الإسلامى الحديث ص ١٥٣).

(٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٨ .

فى الكون واستعمال القياس الصحيح .. وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد »[1] .

وهكذا نرى أن الإسلام فى دعوته إلى هذا الأصل الأول من أصول الاعتقاد. وهو الأصل الذى ينبنى عليه كل دين صحيح ـ « لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى . فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية »[2] .

وتعد صحة العقيدة وتجريدها من الخرافات والبدع والأوهام سبيلاً إلى سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، وطريقًا إلى استقامة أحوال الأفراد واستنارة بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية ، وتهذيب أخلاقهم بالملكات السليمة ، وبذلك يسرى الصلاح فيهم إلى الأمة ما دام العقل هو القاعدة التى انطلقت منها أصول الاعتقاد[3] .

وإذا كان الدين يعطى للعقل هذا الدور العظيم فى أصول الاعتقاد التى هى مفتتح كل دين فإنه من غير المعقول أن يسلب منه هذا الدور بعد ذلك فى أى مرحلة لاحقة من مراحل الدين . **فهناك إذن من البداية نوع من التآخى والتآلف بين الدين والعقل . وهذا موقف مبدئى لا يجوز لأى كائن مهما علا قدره ولا لأى سلطة مهما كان شأنها أن تغير من ذلك وتصطنع خصومة بين الدين والعقل .**

فإذا بدا هناك ما يوحى بالتعارض بين العقل والنقل فإن القاعدة فى ذلك هى الأخذ بما يدل عليه نظر العقل ودليله .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .
(٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٨ .
(٣) زعماء الإصلاح ص ٣٣١ .

ويقول الشيخ فى هذا الصدد :

« اتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النظر طريقان : **طريق التسليم** بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله فى عمله ، **والطريق الثانية تأويل النقل** مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل . وبهذا الأصل ، الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ ، مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد . فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ؟ » (١) .

واتساع مجال العقل إلى غير حد من شأنه أن يفسح مجالا واسعا لاختلاف الآراء وتعدد الرؤى الفكرية ، الأمر الذى يثرى الحياة الفكرية للأمة ويساعدها على الوصول إلى أفضل الآراء لحل مشكلاتها المختلفة ، كما يؤدى إلى الإبداع الفكرى الذى يشمل جميع مجالات الحياة . **والأمة التى ينشط فيها العقل ويتحرك فيها الفكر أمة لا يخشى عليها من شىء لأنها تكون حية بحياة عقول أبنائها متحركة بحركة أفكارهم .**

وفى مثل هذا المناخ الفكرى السليم يختفى التعصب الأعمى وما يصحبه من ضيق فى الأفق وتحجر فى الفكر ، ويحل محل ذلك ، التسامح واحترام وجهات نظر الآخرين ، وافتراض حسن النية فيما يصدر عنهم من آراء وأفكار حتى فيما يتصل بأمور الدين . وفى هذا الصدد يبرز الإمام محمد عبده « ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم ، وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٢ ، ٥٣ .

وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر . فهل رأيت تسامحًا من أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ »[1].

٥ ـ خاتمة

لقد اتضح لنا من خلال ما عرضناه فى الصفحات السابقة أن الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد عبده تقوم فى جوهرها على أساس من العقل وتحكيمه فى كافة المجالات وتمكينه من أداء دوره كاملاً فى هذه الحياة حتى يمكن للأمة أن تنهض من كبوتها ، وتزيل عن كاهلها أثقال التخلف ، وتسير فى طريقها بخطى ثابتة متحررة من ظلمات الجهالة وغشاوات الخرافات والأوهام متسلحة بالعلم متحصنة بالدين .

ونحن اليوم لا نزال أحوج ما نكون إلى استيعاب هذه الدروس القيمة من تراث الإمام محمد عبده ، **فكلماته لا تزال تعبر عن اوضاعنا وكأنه، رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان، لا يزال يعيش بيننا يشخص أدواءنا الفكرية ويصف لها العلاج، وهكذا تظل أفكار العظماء نابضة بالحياة تنشر أضواءها فى كل مكان** .

وقد كان لأفكار الشيخ صداها الواسع فى كل مكان فى العالم الإسلامى . **ولكن أجيالنا الجديدة تفتقر إلى معرفة عظمائنا من أمثال الإمام محمد عبده والانتفاع بما خلفه لنا من فكر وما جسمته شخصيته من كفاح طويل** فى سبيل ترسيخ قواعد الفكر الصحيح والمنطق السليم الذى هو بداية الطريق لكل نهضة ومفتاح التقدم أمام كل أمة .

لقد دعا الشيخ محمد عبده إلى أن :

« العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل ،

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣ .

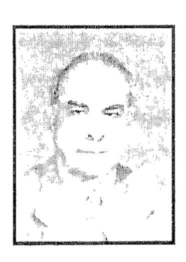
ولابد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة ، ونقتبس منها ما يفيدنا ؛ لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة ، ولابد أن يتسلحوا بما تسلح به غيرهم ، وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم ، **وأكبر عمدة فى الأخلاق هو الدين ،ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحض عليه ،وللعقل ويدعو إليه ،وللأخلاق الفاضلة التى تدعو إليها المدنية الحاضرة**»[1] .

ولكن الأمر الذى يؤسف له أنه كلما سار بنا ركب النهوض خطوة إلى الأمام ، أطلت برأسها من هنا وهناك عناصر التخلف التى تتمسح بالدين وتتاجر بالسياسة لتجذبنا إلى الوراء خطوات . ومن هنا تعثرت الأمة فى سيرها وتخلفت مسيرتها فى الوقت الذى يسرع فيه غيرنا الخطى حتى بعدت الشقة بيننا وبينهم ، وأصبحنا فى مؤخرة الركب ننعى حظنا العاثر ، ونبحث هنا وهناك عن شماعات نعلق عليها قصورنا وتقصيرنا .

إن القضية المصيرية اليوم أمام الأمة الإسلامية هى قضية التخلف فى شتى المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والمادية وفى مجالات التفكير الدينى ، والعقل ينبغى أن يأخذ دوره كاملاً لإنقاذ الأمة من وهدة هذا التخلف. أما شغل الأمة بقضايا إطالة اللحى وتقصير الثياب والدفاع عن النقاب والسواك وتعدد الزوجات وما شاكل ذلك من أمور هامشية فإنه يعد جناية فى حق الأمة وتعويقًا لها عن مسيرتها نحو التقدم واللحاق بركب العصر.

---

(١) زعماء الإصلاح ص ٣٣٧ .



الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

للأستاذ الدكتور / محمد عمارة
عضو مجمع البحوث الإسلامية
(هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف)

فى منتصف ستينات القرن العشرين ـ وفى بدايات حقبة التفرغ والتبلور « للمشروع الفكرى » ـ الذى جعلته « رسالة حياتى » ـ كان العكوف على الجمع والتحقيق والدراسة والنشر لسلسلة « الأعمال الكاملة » لأعلام اليقظة الإسلامية الحديثة ، وأئمة التجديد لحياتنا الفكرية ، ومشروعنا النهوضى ... كان هذا المشروع واحد من المهام الفكرية التى توفرت على إنجازها ..

ذلك أنى وجدت أن حياتنا الفكرية المعاصرة قد سلطت وتسلط كل الأضواء إما على فكر (**الجمود والتقليد**) أو (**الشعوذة والخرافة**) أو على الفكر (**العلمانى والتغريبى**) ، الذى يمثل امتداداً سرطانياً للحضارة الغربية الغازية لوطن العروبة وعالم الإسلام .. « **ولذلك ساد فى واقعنا الفكرى ذلك الأستقطاب الحاد بين تراث الجمود والتقليد والخرافة وبين الوافد الضار للعلمانية والتغريب والاستلاب الحضارى ... وغابت التأثيرات الفاعلة لمدرسة الإحياء والتجديد والوسطية عن الساحة الفكرية المعاصرة إلى حد كبير** ».

وحتى يعود هذا التيار الإحيائى والتجديدى إلى الفعل والفاعلية فى

واقعنا من جديد كانت إهتماماتى فى ـ (مشروعى الفكرى) ـ بالجمع والتحقيق والدراسة والنشر لسلسلة (الأعمال الكاملة) لأعلام هذا التيار ...

ولقد يسر الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنجاز هذا المقصد الفكرى بالنسبة لأعمال : **رفاعة رافع الطهطاوى** (١٢١٩ـ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ١٨٧٣ م) **وجمال الدين الأفغانى** (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) **والإمام محمد عبده** (١٢٩٥ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ـ١٩٠٥م) **وعبد الرحمن الكواكبى** (١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ـ١٩٠٢م) **وعلى مبارك** (١٢٣٩ ـ ١٣١١هـ ١٨٢٣ ـ١٨٩٣م) **وقاسم أمين** (١٢٨٠ـ ١٣٢٦هـ ٩٦٣ ـ١٩٠٨م) .

ولقد كان ترتيب (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) فى إخراج هذا المشروع ـ الحلقة الثالثة ـ والتالية ـ لأعمال الكواكبي والأفغانى .. وذلك إيمانًا منى بأن الأفغانى كان الرائد لليقظة الإسلامية الحديثة .. وأن محمد عبده كان المهندس الأكبر للتجديد الإسلامى فى عصرنا الحديث ...

وحتى يعلم الباحث والقارئ (**الضرورة الفكرية**) التى كانت تلح على عقلى ووجدانى لإنجاز هذا المشروع ، يكفى أن أشير هنا ـ بالنسبة لأعمال الإمام محمد عبده ـ إلى الحالة المعيبة والبائسة التى كانت عليها الآثار الفكرية لهذا الإمام العظيم .. فلم يكن متداولاً ومعروفًا بين المثقفين والباحثين من هذه الآثار الفكرية سوى :

١ـ تفسيره لسورة الفاتحة .

٢ـ وتفسيره لجزء عم ..

٣ـ ورسالة التوحيد ..

٤ـ وكتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

٥ـ والجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الإمام ـ الذى كتبه تلميذه العظيم

الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) جزء (المنشآت) ـ والذى ضمنه الشيخ رشيد طائفة من مقالات الأستاذ الإمام .. وهو جزء لم يكن معروفًا إلا للخاصة ، والذين يطلعون عليه فى المكتبات العامة فقط لاغير ..

ولم تكن القضية بالنسبة لهذه الآثار الفكرية مجرد غيبة حضورها فى المكتبات.. ولا مجرد تبعثر المطبوع منها .. ولا ندرة هذه الطبعات .. ولا حتى غيبة الدراسات الجامعة التى تلقى عليها وعلى صاحبها الأضواء العصرية الواعية .. وإنما كان هناك ـ فوق ذلك كله ـ ما هو أكبر وأخطر وأسوأ .. كان هناك « **التزييف..المتعمد** » الذى لعبت أصابعه الآثمة بهذه الآثار والأعمال !!

ذلك أن فكرة جمع الأعمال الفكرية للأستاذ الإمام كانت واردة ومطروحة منذ وفاته (١٣٢٣هـ ١٩٠٥ م) ، وكانت موضوع إهتمامات كوكبة من تلاميذة وأركان تياره الفكرية ـ بجناحية الدينى والمدنى ـ .. ولكنها ـ مع شديد الأسف ـ كانت موجودة لا بهدف تقديم هذه الأعمال الفكرية كاملة للباحثين والمفكرين والقراء ، وإنما بهدف تقديم الأعمال والصفحات التى لا تغضب السلطات الحاكمة فى مصر يومئذ :

١ـ سلطة الاحتلال الانجليزى لمصر ـ بقيادة اللورد (كرومر) (١٨٤١ ـ ١٩١٧ م) .

٢ـ وسلطة الخديوى عباس حلمى الثانى (١٢٩١ـ ١٣٦٣هـ ١٨٧٤ـ ١٩٤٤م).

فلقد وقف هذا الهدف وتلك الغاية من خلف تلك اللجنة التى دعا إلى قيامها ، وأقامها سعد زغلول باشا (١٢٧٣ ـ ١٣٤٦ هـ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م) بحكم علاقته الوثيقة بالأستاذ الإمام ، وبصفته (عميد حزبه المدنى) و(أقوى أركانه) وذلك عندما علم هذا (الحزب) وذلك التيار الفكرى ، أن الشيخ

محمد رشيد رضا يفكر فى كتابة تاريخ للأستاذ الإمام ، فخشوا أن تقدم من صفحات هذا التاريخ حقائق تحرج مركزهم وعلاقتهم بالسلطة الانجليزية والخديوى عباس الثانى .

ولقد انتهى الأمر باشتراكهم مع الشيخ رشيد رضا فى التأريخ للإمام ، وفى تقديم الصفحات التى لا تغضب الانجليز ولا الخديوى من أعماله وأفكاره.. أى أن هذا التحريف والتزييف قد انسحب على (التاريخ) كما انسحب على (الأعمال) .

ولقد حكى الشيخ رشيد رضا بنفسه وقائع هذا الذى حدث لتاريخ الأستاذ الإمام وأعماله الفكرية فقال : إنه بعد وفاة الأستاذ الإمام ، أعلنتُ عزمى على كتابة تاريخه ، فجاءنى رسول من قبل الشيخ عبد الكريم سلمان (١٢٦٥ - ١٣٣٦ هـ - ١٨٤٩ - ١٩١٨ م) وقال لى : (إن أصدقاءه (أصدقاء الإمام) قرروا تأليف تاريخه بالتعاون بينهم ، وهم به أولى : فقلتُ للمبلغ : إن تأليف تاريخين لهذا الإمام الكبير ليس بكثير ولا كبير ، فليكتبوا ما عندهم ، وأنا أكتب ما عندى ... ثم أرسل إلىّ عميد حزبه المدنى ، وأقوى أركانه : سعد باشا زغلول (١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م) فجئته فبلّغنى أنه هو وإخوانه من مريدى الإمام وأصدقائه يرون أن أتولى كتابة تاريخه ، وأن يساعدونى بما لديهم من المواد والمعلومات ، ثم يساعدونى على طبعه ونشره بالمال ، **بشرط أن أطلعهم على عملى وأستشيرهم فيه ، فإن كثيراً من سيرته ، رحمه الله، كانوا يعدون متكافلين معه فيه ، ويعدون من بعده مسئولين عنه ، فأجبته : إننى لست إلا واحداً منكم ، بل أنا أصغركم ، ولا أستغنى عن مساعدتكم ومشاورتكم ، ولا أحب الخروج عما ترونه من مصلحتكم .**

وفى إثر ذلك اجتمع - بدعوة منه (أى بدعوة سعد زغلول باشا) الشيخ عبد الكريم سلمان ، وحسن باشا عاصم ، وقاسم بك أمين والشيخ

عبد الرحيم الدمرداش ، وقرروا ندب أحدهم : فتحى زغلول (١٢٧٩ ـ ١٣٣٢ هـ ـ ١٨٦٣ ـ ١٩١٤ م) ليكون نائبًا عنهم فى التعاون والتشاور معى فى العمل ... **وكان هو المتصل من جماعتهم بسمو الخديوى ، ومحيطا بسياسته وسياسة الأنكليز فى الأمور علما ، وهما الجانبان اللذان يحسب لرضاهما وسخطهما كل حساب** ... وبلغوا حمودة بك عبده ذلك ، وأنه يرضيهم أن يعطينى ما عنده من مواد هذا التاريخ [1] ».

هكذا يعترف الشيخ رشيد رضا ـ كاتب (تاريخ الأستاذ الإمام) ـ أن هذا التاريخ قد روعى فى كتابته عدم إغضاب سلطات الاحتلال الانجليزى .. وسلطان الخديوى عباس حلمى الثانى ! .

وعندما تعلق الأمر بالأعمال الفكرية للأستاذ الإمام ، تمخض الجهد عن عمل هزيل ، ومشوه ومعيب ، تمثل فى الجزء الثانى من تاريخه ، وهو الذى يسمى بجزء (المنشآت) .

أما أنه هزيل ، فلأنه لا يضم من أعمال الرجل الفكرية إلا النذر اليسير ، إذ أن ما فيه ، مما هو حقًا للإمام ، لا يكاد يبلغ سدس حجم أعماله الفكرية !

وأما أنه مشوه ، فلأن السياسة ، كما قدمنا ، قد لعبت لعبتها فى المواد التى وضعت فيه .. ونحن نقرأ للشيخ رشيد رضا ـ وهو الذى وضع اسمه على هذا الجزء ، باعتباره الجامع له ـ أن فتحى زغلول باشا قد اقترح أن تحذف من مواده ـ خصوصًا مقالات العروة الوثقى ـ ما يغضب الانجليز ، فيقول :

(فأما ما كان منها خاصًا بالسياسة ، ومسألة مصر والسودان ، وتهييج العالم الإسلامى والهند على الدولة الانجليزية ، فقد وافقته (أى وافق الشيخ رشيد فتحى زغلول) على تركه ، وعدم نشر شىء منه فى منشآته ، لأن الحرية فى مصر لا تتسع لنشرها .. وأما المقالات الإصلاحية العامة التى بث الحكيمان (الأفغانى والإمام) فيها

---

(١) رشد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، جزء ١ ص ٢ ، طبعة القاهرة لسنة ١٩٣١م .

الدعوة إلى جمع كلمة المسلمين ... فقد اتفقنا على نشر أكثرها ، وترك ما تعده أنجلترا تحريضا عليها منها ، ولكنه (أي فتحى زغلول باشا) أشار أيضا بحذف جمل من بعض المقالات ما وافقته عليها إلا كارها [1] ! !

فإذا علمنا أن الذى قدم إلى الشيخ رشيد رضا مقالات الأستاذ الإمام فى (الوقائع المصرية) هو فتحى باشا زغلول ، **إذ هو الذى (نسخ مقالات الإمام الإصلاحية من جريدة الوقائع الرسمية ، إذ كان يقتنى مجموعتها** [2] كما يقول الشيخ رشيد ، أدركنا ما لحقها هى الأخرى من تشويه بفعل (الحذف) و(الاختيار) الذى توخى عدم إغضاب سلطات الاحتلال والخديوى عباس فى ذلك الحين .

وأما أن هذا العمل معيب ، فلأنه لم يقم على أسس التحقيق العلمى للنصوص ، فنسبت محتوياته إلى الأستاذ الإمام ، على حين أن الكثير منها ليس له ، وليس من الإنصاف ولا من الأمانة العلمية أن ينسب إليه دون أصحابه الحقيقين .. وهذه قضية على جانب كبير من الأهمية ، ولم تنطبق فقط على جزء (المنشآت) هذا ، بل انسحبت على الكثير من آثار الأستاذ الإمام .. ومن هنا تأتى أهمية جهد (التحقيق) الذى بذلناه فى إخراج هذه الأعمال ، بعد جهد (الجمع) لها من عدد كبير جداً من المصادر والمراجع والمظان .. وهو (الجمع) الذى استعنا فيه أيضًا بقواعد التحقيق للنصوص لتمييز ما هو للإمام مما هو لغيره من المفكرين والكتاب ..

إن سبع سنوات قد إحتاجها إنجاز هذا العمل ، قد وفرت تحديد العديد من المعايير الأسلوبية .. والفكرية ، التى أعانت على (تحقيق) نسبة النصوص ـ التى نشرت دون توقيع ـ إلى أصحابها الحقيقيين .. وهى ـ فى هذا المقام ـ قد قاربت الثمانين نصًا .. فيها المقالات .. والرسائل .. بل والكتب أيضًا ! .

(١) المصدر السابق ، جزء ١ ص ٣

(٢) ذات المصدر السابق .

ونحن إذا شئنا ضرب الأمثلة على ذلك الخلط الذى وقع فيه من تعرض لنشر نصوص الأستاذ الإمام من قبل ، وخاصة الشيخ رشيد رضا ـ مع علمه وفضله وإمامته فى الفقه والتفسير والإصلاح ـ وجدنا من الأمثلة الكثير والكثير.. ولكننا نكتفى هنا بتقديم إشارات إلى عدد من النصوص التى ميزنا (بالتحقيق) نسبتها الحقيقية إلى أصحابها الحقيقيين .. وذلك مثل :

١.(**رسالة الواردات فى سر التجليات**) : التى نسبت للإمام .. وحققنا نسبتها إلى جمال الدين الأفغانى .

٢.(**رسالة المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى**) : التى نسبت للأستاذ الإمام .. وحققنا انها من مترجمات على مبارك باشا .. وأن دور الإمام فيها كان دور الصياغة البلاغية لأسلوبها ..

٣.**كتاب (التعليقات على شرح الدوانى للعقائد العضدية**) : الذى نسب ـ وهو كتاب كبير ـ إلى الأستاذ الإمام .. وحققنا نسبته إلى جمال الدين الأفغانى..

٤.**كتاب (مصر وإسماعيل باشا**) : الذى نشر فى صحيفة (الطائف) لصاحبها ومحررها عبد الله النديم (١٢٦١ ـ ١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٦ م) وحققنا نسبته إلى الأستاذ الأمام ..

٥.**مقالات (الوقائع المصرية**) :التى كانت تنشر دون توقيع .. والتى حققنا نسبتها إلى أصحابها ـ الأستاذ الإمام ـ رئيس التحرير ـ أو سعد زغلول .. أو عبد الكريم سلمان .. أو سيد وفا .. أو إبراهيم الهلباوى .. أو غيرهم من الكتاب ..

٦.**مقالات (العروة الوثقى**) : والتى حققنا نسبتها إلى صاحب سياسة المجلة جمال الدين الأفغانى ، وليس إلى محرر المجلة الأستاذ الإمام ..

٧.**الفصول التي مثلت رأي الشرع والفقه في قضايا تحرير المرأة.الزواج** .

والطلاق . والتعدد . وعلاقة الرجل بالمرأة . والتي تضمنها كتاب « **تحرير المرأة** » لقاسم أمين . ولقد حققنا نسبتها للأستاذ الإمام .

٨ . **وتفسير الأستاذ الإمام لما فسر من القرآن** ؛ والذى ميزناه ـ بالتحقيق ـ عن تفسير الشيخ رشيد رضا فى (تفسير المنار) .

الخ .. الخ .. الخ النصوص التى ميزناها ـ بالتحقيق ـ فنسبناها إلى أصحابها الحقيقيين .. وكتبنا الأدلة التى استندنا إليها فى هذا التحقيق والتمييز ـ وهى الأدلة التى استغرقت فى التقديم لأعمال الإمام نحواً من سبعين صفحة !! قامت دليلا على الجهد الذى بذلناه فى هذا التحقيق .

ولون آخر من ألوان الخلط والتزييف . المتعمد والمتكرر ـ حتى اشتهرت طبعاته شهرة الأكاذيب الشائعة ـ اقترفه العلمانيون المتغربون إزاء واحد من أهم كتب الأستاذ الإمام ـ وهو كتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) .

ـ فلقد قاموا (بتزوير) عنوان الكتاب الذى كتبه الأستاذ الإمام ، فى الأصل ، مقالات رد بها على فرح أنطون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢) فى دعواه أن النصرانية أكثر تسامحًا مع العلم والعلماء من الإسلام ، وبعد أن نشرت هذه المقالات فى مجلة (المنار) جمعها الشيخ محمد رشيد رضا ، وطبعها فى كتاب مستقل عنوانه : (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) . ولقد أستأذن رشيد رضا الأستاذ الإمام فى اختيار هذا العنوان ، فوافق عليه ، وبنص عبارة رشيد رضا ـ فى تاريخه للأستاذ الإمام ـ : (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) وهو مقالات كتبها الأستاذ الإمام لمجلة المنار ، ثم جردناها منها وطبعناها على حدتها ، **وسميناها بهذا الاسم بإذنه** ، فجاءت كتابًا مستقلاً ، أعيد طبعه مراراً [١] » .

ولقد أعيد طبع هذا الكتاب ، بنفس العنوان ، مرتين فى حياة الأستاذ

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، جزء ١ ص ٧٨٧ .

الإمام ، الأولى فى السنة الخامسة من تاريخ صدور (المنار) والثانية سنة ١٢٢٣ هـ ١٩٠٥ م سنة وفاة الأستاذ الإمام ، ثم تكررت طباعته بذات العنوان .

وإذا كان الأستاذ الإمام قد كتب هذا الكتاب ردًا على قول فرح أنطون : (إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحى ، ولذلك نما غرسهما فى تربة أوربا وأينع ، وأثمر التمدن الحديث ، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامى ، وفى هذا دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحًا)[1] .

فإن التزوير العلمانى لعنوان الكتاب ، وجعله (الإسلام بين العلم والمدنية) بحذف كلمة (النصرانية) يتجاوز تزوير (العنوان) إلى تزوير (رسالة الكتاب) .

ولقد حدث ذلك بالفعل ، فقام العلمانيون المتغربون بعد تزوير (العنوان) **بتزوير (المحتوى) وذلك عندما حذفوا كل ما كتبه الأستاذ الإمام عن النصرانية ، فى معرض مقارنته بين أصولها وبين أصول الإسلام ، وتأثير ذلك على موقف الدينين من العلم والمدنية . لقد حذفوا أكثر من ثلاثين صفحة**[2] ، **فيها هذه العناوين وما كتبه تحتها** :

(الجواب الإجمالى للأستاذ الإمام على دعوى فرح انطون) .

(جواب تفصيلى) وفيه : (نفى القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد) .

و(تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة) .

و(طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء) .

ـ وهى مباحث اساسية فى موضوع الكتاب ـ

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، جزء ٣ ص ٢٤٨ .

(٢) انظرها فى المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٢٤٧ ، ٢٧٨ .

بل وحذفوا ما كتبه الإمام عن أصول النصرانية: وهو من أنفس ما كتبه فى مقارنة النصرانية بالإسلام .. وأعمق ما كتب فى هذا الباب ـ ومنها الأصول الستة للنصرانية ، والتى قدم لها ببحث عن :

(طبيعة الدين المسيحى) .

و(تمهيد) لهذه الأصول الستة .. **ثم توالت عناوينها** :

(الأصل الأول للنصرانية : الخوارق) .

و(الأصل الثانى للنصرانية : سلطة الرؤساء) .

و(الأصل الثالث للنصرانية : ترك الدنيا) .

و(الأصل الرابع للنصرانية : الإيمان بغير المعقول) .

و(الأصل الخامس للنصرانية : أن الكتب المقدسة حاوية لكل ما يحتاج إليه البشر فى المعاش والمعاد) .

و(الأصل السادس للنصرانية) التفريق بين المسيحين وغيرهم حتى الأقربين) .

ثم حذف العلمانيون المتغربون المباحث التى استخلص فيها الأستاذ الإمام دلالات هذه الأصول على موقف النصرانية من العلم والمدنية .. وهى المباحث التى ذكرها تحت عناوين :

(نتائج هذه الأصول وآثارها) .

و(مقاومة النصرانية للعلم) .

و(مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش) .

و(اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة) .

و(مقاومة السلطة المدنية لحرية الاعتقاد) .

و(مقاومة الجمعيات العلمية والكتب) .

و(البروتستانت والإصلاح) .

و(الفصل بين السلطتين فى المسيحية) .

و(اعتقاد المسلمين فى المسيح والمسيحية) .

كل هذه المباحث قد حذفتها الطبعات العلمانية المزورة من كتاب الأستاذ الإمام، توسلاً إلى ادراج الأستاذ الإمام ضمن العلمانين والتنويريين بالمعنى الغربى والوضعى واللادينى فارتكبوا بذلك (مذبحة فكرية) قل نظيرها فى ميدان تزوير الكتب ومسخ المؤلفات [1] .

وبعد هذا التزوير بالحذف والبتر، **اقترفت هذه الطبعة (تزويراً) آخر بالحشو والإضافة فأدخلت فى هذا الكتاب ما لا علاقة له به !**

لقد حشروا فى هذه الطبعة المزورة مباحث لا علاقة لها بموضوع الكتاب ، **وذلك مثل بحث** : (الإنسان عالم صناعى) وهو من مقالات مجلة (العروة الوثقى) كتبه جمال الدين الأفغانى .. وليس للإستاذ الأمام .. ونشر فى (العروة الوثقى سنة ١٨٨٣ م .. أى قبل تأليف كتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) بعشرين عامًا ! ولا علاقة له بموضوع المعركة الفكرية التى كتب لها وفيها هذا الكتاب .

ومثل أبحاث :(المسألة الإسلامية بين هانوتو والإمام) وهى ست مقالات كتبها الأستاذ الإمام رداً على الكاتب السياسى الفرنسى (جابرييل هانوتو) (١٨٥٣ - ١٩٤٤ م) وليس على فرح أنطون وكتبها فى سنة ١٩٠٠ م .. أى قبل سنوات من كتابة مباحث (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) ونشرها

---

(١) ولقد بدأت سلسلة هذه الطبعات المزورة لهذا الكتاب بطبعة دار الهلال فى ستينات القرن العشرين ، واستمرت حتى طبعة الهيئة العامة للكتاب ضمن ما سمى « المواجهة بالتنوير» لسنة ١٩٩٣ م.

الإمام في صحيفة (المؤيد) وليس فى مجلة (المنار) التى رد فيها على فرح انطون .. الأمر الذى لا يترك عذراً يبرر هذا الخلط الكبير والكثير والغريب ، الذى بلغ قمة (التزوير) .

لذلك كان الجمع والتحقيق والدراسة للأعمال الكاملة للأستاذ الإمام ، أكبر من مجرد إنجاز فكرى تحتاجه حياتنا الفكرية حاجة ماسة وشديدة . لقد كان ـ بالأضافة إلى ذلك ـ رفعا (لجريمة تزييف كبرى) ارتكبت فى حق هذا الصرح من صروح الفكر المجدد لهذا الإمام العظيم .

وإذا كان الجمع والتحقيق لهذه الأعمال الكاملة قد اقتضى واستوجب ما هو أكثر من (التحقيق العلمى) الذى ميز بين هذه النصوص والمقالات والكتب التى اختلطت وشاعت بين الأستاذ الإمام وبين أعلام مدرسته الفكرية. كما اقتضى مراجعة دوريات قرن كامل تناثرت فيها مقالات وآثار فكرية للأستاذ الإمام .. **فإن إنجاز هذا العمل قد اقتضى. أيضاً فض مغاليق سجلات فتاوى الأستاذ الإمام بدار الأفتاء التابعة لوزارة العدل. حاليًا. (نظارة الحقانية). سابقًا. ولهذه الصفحة من صفحات (الأعمال الكاملة) قصة جسدت جهداً يستحق الإشارة والتنويه** .

فلقد ذهبت ـ يومئذ سنة ١٩٧٣ م ـ إلى فضيلة المفتى ـ المرحوم الشيخ محمد خاطر . وأهديت إليه الأجزاء الثلاثة التى كانت قد صدرت من هذه (الأعمال الكاملة) طبعة المؤسسة العربية ـ ببيروت سنة ١٩٧٢ م ، وطلبت منه أن يتيح لى الاطلاع على سجلات الفتاوى فى الحقبة التى تولى فيها الأستاذ الإمام منصب الإفتاء ، لأضمن أعماله الفكرية الفتاوى المتميزة ، والتى تقدم صفحات من الاجتهاد والتجديد الذى تميز به فقه الاستاذ الإمام .

ولقد تحمس الشيخ خاطر للمشروع .. بل وتمنى تكرار هذا الجهد مع غير الأستاذ الإمام من الأعلام الذين تولوا منصب الإفتاء .. لكنه أخبرنى بأنه لا يستطيع أن يضع بين يدى سجلات الفتاوى إلا بعد استئذان وزير العدل ..

فلمـا ذهبت إليه مـرة ثانية ، كـان الخبر المخيب للآمال .. ذلك أن وزيـر العدل وقـتئـذ ـ سامـحه الله ـ قـد نظر إلى الموضـوع نظرة (العرضـحالجى) وكـاتب (الأرشيف) فطلـب أن أسـدد ـ رسميًـا ـ مبلغًا كـبيـرًا من المال ـ لا أذكر الآن قدره ـ لقاء كـل صفحة من صفـحات الفتاوى فى السـجلات !! ولم يكن هذا الوزير يدرى أنـنى طالب علم ، وراهـب فى مـحــراب الفكــر .. وأن دخلـى الثـابت ـ وأنا رب أسـرة ـ لا يـبلغ ـ يومـئـذ ـ الثـلاثين جنـيـهًـا !! وأن ناشـر (الأعمال الكاملة) كان يدفع لى عن كل مجلد (مبلغًا قـطعيًا) قدره مئتا جنيه لاغـيـر ، وهو مـبلغ لـم يكن يغـطى ثمن المراجع وأجـور المواصـلات إلى دور الكتب والمحـفـوظات !! لـم يكـن الوزير يدرى شـيـئًـا عن (الحـالة) ولا عن (المقاصد) العلمية ، وإنما تعامل مع الموضوع تعامل موظفى (الأرشيف) .

لكننى لـم أيأس .. فلقـد كنت عـازمًا علـى أن لا تخلو هذه (الأعمـال الكاملة) من تقـديم المعالم الـبارزة والمتـميـزة لأعظم من تولوا منصب الإفتـاء بمصـر والشرق فى العـصر الحـديث .. (فتـحايلت) على الأمـر .. وساعـدنى الشـيخ مـحـمد خـاطر ـ رحـمـه الله ـ على تحـقيق بعض مـا أريد ، فـأتاح لى (**الإطلاع**) على الفتاوى ، دون (**التصوير**) لها .. فعكفت الأيام الطوال على الاطلاع ، وأيضًا على النسـخ باليد ، لما رأيته هامًـا ومتميـزًا من فتاوى الأسـتاذ الإمـام .. بل ـ وهذا (سـر) أبوح به للمرة الأولـى ـ لقد عـزمت على تصـوير بعض الفتـاوى التى أصدرها الأسـتاذ الإمـام ـ والتى لا تزال موضوعـاتها تثير الجدل الفكرى والفـقهى حتى الأن ـ **مثل فتاوى التأمين على الحياة** (فـفككـت) خيوط (السجل) ونزلت إلى مكتب التصوير ـ بميدان العباسية ، حيث كانت دار الإفتـاء يومئذ ـ وصورت الفـتاوى ، ثم أعدت الأوراق ثانيـة إلى (السجل) من جديد !! **وذلك لتصدر هذه الفتاوى (مصورة) فتكون مع نظائرها من فتاواه فى أرباح**

وعائدات صناديق التوفير. (وثيقة) فى أيدى الذين لا يزالون مختلفين حول موقف الفقه الإسلامى من هذا الموضوع .. وحول موقف الأستاذ الإمام على وجه الخصوص .

وحتى يدرى الباحثون والقراء أهمية هذا المصدر۔ سجلات الفتاوى بنظارة الحقانية۔ فى اكتمال قسمات (الأعمال الفكرية) للأستاذ الإمام .. يكفى أن نقول :

أولاً : أن هذه هى المرة الأولى التى يكشف فيها الستار عن هذه الصفحة من صفحات فكر وفقة الأستاذ الإمام .. والمرة الأولى التى تتكشف فيها للباحثين والقراء أبعاد الجهد الفكرى والفقهى الذى أنجزه الرجل بوصفه مفتيًا للديار المصرية ومرجعا للعالم الإسلامى فى شئونه الدينية ..

فحتى الشيخ رشيد رضا ـ الذى كان أوثق علماء ذلك العصر صلة بالأستاذ الإمام ـ لم تتح له فرصة الاطلاع على فتاوى الأستاذ الإمام فى دار الإفتاء، فلم يشر إليها فى كل ما كتب عنه ، بل لقد ألمح إلى أنه لم يطلع عليها[1].

وإذا كانت بعض الفتاوى التى تضمنتها (مضبطة) دار الإفتاء للأستاذ الإمام قد نشرت فى صحافة ذلك العصر ، فإنها لا تمثل إلا صفحات لا تذكر إذا ما قيست بحجم الفتاوى التى ظلت حبيسة سجلات دار الإفتاء حتى قيامنا بهذا الجهد الذى أنجزناه .

وعلى وجه التحديد ، فإن ما نشر منها لا يتعدى :

١. **الفتوى الهندية :** التى تتحدث عن التعامل بين المسلمين وغير المسلمين، وهى التى جاءت فى ص ٤٤ ـ ٤٧ من السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء .

٢. **فتوى طوفان نوح :** وهى التى جاءت فى ص ٤٤ من السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء .

---

(١) انظر المنار ، مجلد ١٩ جزء ٩ ص ٥٢٧/ ٥٢٩ ، عدد ٣٠ ربيع الآخر لسنة ١٣٣٥هـ/ ٢٢فبراير لسنة ١٩١٧ م .

٣. **الفتوى الترنسفالية** : وهى التى جاءت فى ص ٣١ من السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء .

٤. **الفتوى التى كتبها الأستاذ الإمام فى صورة مشروع قانون لتنظيم الإنفاق على الزوجة والتطليق على الزوج** . وهى التى جاءت فى ص ٢١ من السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء .

أما غير هذه الفتاوى الأربعة فلقد ظل بعيداً عن متناول القراء والدارسين والباحثين .

فإذا علمنا أن مجموع الفتاوى التى أصدرها الأستاذ الإمام، والتى دونت فى مضبطة دار الإفتاء قد بلغ عددها ٩٤٤ فتوى، استغرقت السجل الثانى من سجلات مظبطة دار الإفتاء بأكمله. وصفحاته ١٩٨ صفحة. كما استغرقت ١٥٩ صفحة من صفحات السجل الثالث. (وعدد أسطر الصفحة ٣٠ سطراً .. ومتوسط عدد كلمات السطر ٣٠ كلمة) ادركنا إلى أى حد قد فتح التحقيق لهذه الأعمال، وفك مغاليق سجلات دار الإفتاء، باباً جديداً أفضى بنا إلى عالم بكر وصفحة هامة من صفحات فقه الأستاذ الإمام الذى ظللنا بعيدين عنه وجاهلين به طوال تلك السنوات .

ثانياً : إن الأستاذ الإمام قد استمر **ينهض بمهمة الإفتاء ست سنوات** كاملة (من ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ م ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ م حتى وفاته فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ م ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ . وأول فتوى أصدرها كان تاريخها ٢ صفر ١٣١٧ هـ أى بعد أسبوع من توليه هذا المنصب - وفيها رد حكم محكمة الاستئناف الأهلية بمصر ، الذى حكمت فيه بالإعدام على متهم بالقتل ، فوضع الأستاذ الإمام بهذه الفتوى تقليداً جديداً غير مسبوق ، عندما قرر سلطاناً فقهيًا لم يعهد من قبل لصاحب هذا المنصب ، وذلك بناء على دراسته القانونية والفقهية لقضايا القصاص وتشريعاتها والفقه المتعلق بها .. وذلك بعد أن كان الشيخ حسونة النواوى (١٢٥٥ - ١٣٤٣ هـ ١٨٣٩ -

١٩٢٤ م) يكتب فى مثل هذه الحالات ـ غالبًا ـ التعليق التقليدى الذى يقول فيه : (والذى يقتضيه الحكم الشرعى فى ذلك أنه متى ثبت القتل عمدًا بالطريق الشرعى ، فلولى الجناية القصاص شرعًا ، والله أعلم)[١] .

أما آخر فتاوى الأستاذ الإمام فتاريخها ٤ ربيع الثانى سنة ١٣٢٣ هـ ـ أى قبل وفاته فى ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ ـ بشهر وثلاثة أيام ـ وهى مدة اشتداد مرضه الذى مات فيه ـ رحمه الله ـ وكان موضوع هذه الفتوى عن (الحلوان) .

ثالثا : إن هذه الفتاوى التى يقرب عددها من الألف ، تعتبر هامة . بل من أهم وثائق العصر ، لمن يريد دراسة حياة المجتمع فى ذلك الحين ، فهى مرآة تعكس مشاكل الحياة وهموم الناس ، وتحكى عن الثغرات التى كانت قد اتسعت يومئذ فى النظام الاجتماعى والاقتصادى ، وحالة الأسرة المصرية والشرقية وأمراضها الاجتماعية ، ومن ثم فإنها وثيقة اجتماعية لا يمكن دراسة واقع العصر بدون تحليل مضامينها .

رابعًا : كما ستضع هذه الفتاوى يدنا على صفحة من صفحات الوحدة الوطنية لهذه الأمة ، نعتقد أن تأملها سيبلور أمامنا نموذجًا وقدوة نحتاجها اليوم وغدا وعلي مر الأيام والعصور .

فنحن نلمس، من خلال هذه الفتاوي، أن الأستاذ الإمام ، لم يكن مفتيًا لمسلمى مصر فقط ، وإنما كان مفتيًا ومرجعًا لكل الشعب المصرى ، بمختلف طوائفه وأديانه .. فالأقباط يسألونه فى مشاكلهم المادية والأسرية فيفتيهم .. وأبناء الجاليات الأوروبية يستفتونه فيفتيهم و(بطركخانة) الروم تصنع نفس الشيء ، بل وحاخامات

---

(١) انظر السجل الأول من سجلات الأفتاء ص ١٣٨ ، وفتوى رقم ١٤ ص ٨ ، ورقم ٢٦٥ ص ٢٧٨ .

اليـهود ، لا فى مـصر فـقط بل وفى عكا مـثـلا . وعلى يدى هذا الإمام كـانت الشريعة الإسلامية تشريع أمة وتراث شعب وحضارة وليست فكرًا خاصًا بدين دون دين .. فبـالإسلام وسمـاحته أفـتى بأن للأم المسيـحية حـضانة أولادها من زوجهـا الذى اعتنق الإسلام .. وبكـثير من الفتـاوى التى جعلت غيـر المسلمين يبحثون عن الحلول لمشكلاتهم فى الإسلام وشريعته السمحاء ...

خـامسًا : ونحن سنجد فى هذه الفتاوى الفقه الذى اجتهد ليفتح أمام المجتمع المصرى والشرقى .يومئذ. أبواب النمو الصناعى والتجارى فى الاقتصاد ،وذلك من خلال الفـتـاوى التى أصدرها الإمام فى جواز التـأمين على الحيـاة وأرباح شـركـات التـأمين، بالإضافة إلى مراجعته لنظام صندوق التوفيـر وإفتـائه بجواز أخذ الأرباح العائدة للمودعين والمدخرين فيه .. وهو فقه كان يفتح الطريق أمام إنشاء الشركات المساهمة و(تشغيل) الأموال فى السوق الرأسماليـة ، وتقـاضى أرباح الأسـهم فى هذه الشركات .. ومن ثم يدفع الحياة الاقتـصادية إلى نمط من التنمية والإنتاج تنافس به الزحف الرأسمالى الأجنبى القادم فى ركاب الاستعمار ...

سادسًا : كما ستضع هذه الفتاوى يدنا على حقيقة أن محمد عبده لم يكن مفتيًا للديار المصرية ، وإنما كان مفتيا لدار الإسلام ، فكانت دار الإفتاء مرجعية للأمة كلهـا ، وكان هذا الإمام العظيم إمام هذه الأمـة طوال سنوات تربعه على كرسى دار الإفتاء .

هكذا أضاف الجـهد العلمى ـ الذى أعان الله عليـه ـ صفحة غنيـة وهامة ومتميزة من صفحات هذه الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام ..

وكم كانت سعادتى غامرة وبالغة عندما أصبحت (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) حاضرة بمجلداتها الخمسة التى تقترب صفحاتها من ٤٠٠٠ (أربعة آلاف صفحة) .

ـ **يضم الجزء الأول** : ٨٣٩ صفحة ـ مع الدراسة التى تناولت حياة الإمام وفكره ـ الكتابات السياسية ، مرتبة ترتيبًا موضوعيًا وتاريخيًا .

ـ **ويضم الجزء الثانى** : ٧١١ صفحة ـ كتاباته الاجتماعية ـ والفتاوى الممثلة لأبرز معالم انجازاته التجديدية فى هذا الميدان ..

ـ **ويضم الجزء الثالث** : ٥٧٥ صفحة ـ كتاباته فى التجديد الدينى لعلم الكلام .. والإلهيات .. والتربية والتعليم .. وإصلاح الأزهر والمؤسسات التى تصنع العقل المسلم .

ـ **ويضم الجزء الرابع** : ٧٤٤ صفحة .

ـ **الجزء الخامس** : ٧١٩ صفحة ـ تفسير الأستاذ الإمام لما فسر من سور القرآن الكريم وآياته .

مع الفهارس الجامعة لما فى هذه (الأعمال الكاملة) من (موضوعات)، و(أعلام) و(بلدان) و(فرق ومذاهب وأحزاب وجمعيات) .

وإذا كانت السعادة الكبرى بأى عمل من الأعمال إنما تشرق شمسها عندما يرى الإنسان الآثار والثمرات لهذا العمل .. فلقد كانت سعادتى الغامرة تتجلى وتتجدد وأنا أرى هذه (الأعمال الكاملة) للأستاذ الإمام وقد غدت حاضرة فى مصادر الرسائل الجامعية .. والكتب والمؤلفات .. والدراسات والمقالات .. والأبحاث التى تعقد حولها الندوات والمؤتمرات ..

لقد حضر إلى الساحة الثقافية أبرز المشروعات الفكرية التى ميزت ما بين :

ـ التجديد .. والحداثة .. والتقليد ..

ـ وحددت الفروق الدقيقة بين الدولة الإسلامية المدنية .. وبين كل من الدولة الدينية الكهنوتية ، والدولة العلمانية اللادينية .

ـ وجمعت ـ بالوسطية الإسلامية بين العقل والنقل والتجربة والوجدان..

وميزت الحدود الفاصلة بين (المعجزة) .. و(الكرامة) .. و(الخرافة).

حتى لكأنها ـ هذه (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ـ الديوان الفكرى الذى عالج أبرز مشكلات العصر الحديث ..

لقد رأيت ولمست المقصد الذى سعيت إليه وتوجهت إلى تحقيقه عندما كان هذا المشروع مجرد (فكرة) و(أمل) رأيت هذه الأعمال الفكرية ـ **التى بذلت سبع سنوات من الجهد المضنى فى جمعها وتحقيقها ودراستها ... رأيتها تعود إلى حياتنا الفكرية ، لتعمل عملها فى تزكية منهاج الوسطية الإسلامية ، وإعلاء رايات الاجتهاد والتجديد .. رأيتها تحقق الكثير من آمالى فى أن يزاحم التجديد ويغالب تيارى (الجمود والتقليد والشعوذة والخرافة) .. و(العلمانية والتغريب والاستلاب الحضارى)** جميعًا .. فكانت فرحة المؤمن بنصر الله .. وكان الحمد لله والشكر له ـ سبحانه وتعالى ـ على ما وفقنى فى خدمة العلم والفقه والفكر الذى أبدعه هذا العقل الذى مثل المهندس الأكبر لمدرسة الإحياء والتجديد لفكرنا الإسلامى الحديث : الأستاذ الإمام محمد عبده ـ عليه رحمة الله ـ .



الشيخ الإمام محمد عبده .. مفكراً تجديدياً

للاستاذ الدكتور. عاطف العراقى
أستاذ الفلسفة العربية
كلية الآداب بجامعة القاهرة

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩م ، وكان طوال حياته شعلة نشاط . ومن يطلع على العديد من الكتب والرسائل والمقالات التى تركها لنا الإمام محمد عبده يدرك تمام الإدراك أننا فى عالمنا العربى - وحتى فى أيامنا الحالية - فى أمس الحاجة إلى الاستفادة من آرائه ، ومن الفتاوى التى أصدرها ، ومن اهتمامه بتأويل النص الدينى حتى يتفق وروح العصر ، أى متطلبات الأيام التى نعيشها. إنه يعد مفكراً تجديدياً من طراز ممتاز ، لأنه كان حريصًا على إعلان الحرب على التقليد والجمود .

لقد جمع محمد عبده بين الجانب النظرى ، والأبعاد العلمية والإصلاحية والاجتماعية . صحيح أن جمال الدين الأفغانى كان له دوره السياسى الذى يفوق بكثير دور الشيخ محمد عبده ، ولكن هذا لا يقلل من مفكرنا محمد عبده ومن دوره الرائد فى مجال تجديد الفكر العربى الإسلامى وذلك سواء اتفقنا معه أو اختلفنا حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها ، وخاصة أننا نجد عند الأفغانى بعض الآراء المتطرفة والساذجة .

ترك لنا الشيخ محمد عبده العديد من الكتب والرسائل ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر ، رسالة التوحيد ، والإسلام دين العلم والمدنية ، وتفسير

جزء من القرآن الكريم ، ومجموعة من النصائح والأمثال والتى تكشف عن غزارة إطلاعه وتأمله الدقيق . وكانت حياة الشيخ محمد عبده غاية فى الثراء الفكرى والنشاط الثقافى الاجتماعى . نجد هذا كله واضحًا غاية الوضوح طوال السنوات التى عاشها سواء فى مصر أو فى فرنسا حين عمل مع أستاذه جمال الدين الأفغانى على تأسيس الصحيفة الأسبوعية المعروفة باسم « العروة الوثقى» والتى كان هدفها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية والدفاع عن الشرقيين ، بالإضافة إلى محاربة التسلط والظلم والطغيان والدعوة إلى التخلص من الاحتلال الانجليزى ، وكانت هذه الصحيفة أول صحيفة عربية تظهر فى أوربا . لقد كان شيخنا يعمل دون كلل أو ملل وكانت له رؤيته النقدية وآراؤه الإصلاحية الجرئية .

صحيح أنه من الصعب أن نطلق على محمد عبده لفظة « الفيلسوف » بالمعنى الاصطلاحى الدقيق ، إلا أنه ترك لنا العديد من الآراء التى تجعله ـ كما أشرنا منذ قليل ـ مجددًا من الطراز الأول ومفكرًا لا تخلو كتاباته من الروح الفلسفية ، وليرجع القارىء إلى موضوعات كتابه « الإسلام دين العلم والمدنية» وإلى دراسته لمشكلات فلسفية وفكرية لا حصر لها : كمشكلة الحرية ، ومشكلة الخير ، وإلى أرائه فى مجال الإصلاح الأخلاقى وتفسير القرآن الكريم ، وإصلاح الأزهر وسيجد ذلك كله واضحًا غاية الوضوح .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الإمام محمد عبده قد ترك لنا مدرسة فكرية ليس فى مصر وحدها بل فى العديد من البلدان العربية الإسلامية ، وكم نجد آراءه تتردد بلا انقطاع وحتى أيامنا الحالية عند كثير من مفكرينا شرقًا وغربًا وبصورة مباشرة تارة وغير مباشرة تارة أخرى . وهذا إن دلنا على شىء فإنه يدلنا على بصماته القوية على خريطة فكرنا العربى الإسلامى المعاصر . ومن يحاول إهمال أو تغافل دوره الخلاق المبدع فإن وقته يعد ضائعًا عبثًا .

وآراء الشيخ محمد عبده تدلنا بوضوح على أن مفكرنا كان صاحب نظرة تجديدية ، والمجدد ينظر دائمًا إلى الأمام وإلى المستقبل ، وذلك على العكس من المقلد والذى ينظر إلى الماضى ويبكى على الأطلال .

إن النظرة التجديدية لا تقوم على رفض التراث جملة وتفصيلاً ، ولا تقوم أيضا على الوقوف عند التراث كما هو دون بذل أية محاولة لتأويله وتطويره ، بل إن النظرة التجديدية تعتبر معبرة عن الثورة من داخل التراث نفسه ، إنها إعادة بناء التراث بحيث يكون متفقا مع العصر الذى نعيش فيه .

فالتجديد إذن هو إعادة بناء « Reconstruction» ولا يعد التجديد تمسكًا بالبناء القديم لمجرد أنه قديم وبصورة تقليدية ، كما لا يحمل فى طياته هدمًا أو رفضًا مطلقًا للتراث ، إذ قد نجد فى التراث العديد من الأفكار البناءة والتى تعد أكثر حيوية من بعض آراء المعاصرين .

إننا نجد الدعوة إلى إعادة البناء واضحة تمام الوضوح عند كثير من المفكرين من أبناء أمتنا العربية ومن بينهم مفكرنا الشيخ محمد عبده ، وهذا **يدلنا على أن الإمام محمد عبده إنما يدرك تمام الإدراك أن العيب ليس فى التراث ولكن العيب فى النظرة إلى التراث من خلال منظور تقليدى رجعى لا يتمشى مع العصر .**

يجب إذن أن نضع هذا فى اعتبارنا حتى نستطيع إدراك الجهد الكبير الذى قام به الإمام . ويكفى الشيخ محمد عبده فخراً أنه كان من خلال كتبه ورسائله مدافعًا عن العقل إلى حد كبير ، العقل الذى يعد أشرف جزء فى الإنسان ، والذى عن طريقه استطاع مفكرنا تأويل النصوص الدينية تأويلاً معبراً عن الاجتهاد وسعة الاطلاع والرغبة فى اكتشاف الحقيقة .

نجد هذا واضحًا غاية الوضوح فى العديد من الكتب والرسائل التى تركها لنا محمد عبده ومن بينها مقالاته فى العروة الوثقى ، وحاشيته على شرح الدوانى لكتاب العقائد العضدية للأيجى ، ورسالة التوحيد ، وتقرير فى إصلاح

المحاكم الشرعية ، والإسلام والرد على منتقديه ، والإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، وحديثه الفلسفى مع الفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر ، وتفسيره لسورة العصر وسورة الفاتحة ، وتفسير جزء عمّ وتفسير المنار والذى أكمله رشيد رضا ، ودروس دار الإفتاء .

لهذا كله لم يكن غريبًا أن يهتم العديد من المفكرين والمؤلفين سواء كانوا من العرب أو كانوا من الأوربيين بالكتابة عن مفكرنا الكبير محمد عبده ودراسة أفكاره ، ومن بين من اهتموا بالكتابة عنه ودراسة أفكاره : محمد رشيد رضا ، مصطفى عبد الرازق ، وعثمان أمين وأحمد لطفى السيد ، وعباس العقاد ، ومحمد بخيت ، ومنصور فهمى ، وحافظ إبراهيم ، واحمد أمين ، ومحمد مصطفى المراغى ، وماكس هورتن ، وشارل آدمز ، وشاخت ، وجولد زيهر وجوميه . .. إلى آخر هؤلاء المفكرين والباحثين والدارسين .

لقد خاض محمد عبده الكثير من المعارك الفكرية من أجل التجديد وكان له من الأعداء مثل ما له من الأصدقاء وكان هذا شيئًا متوقعًا إذ أننا فى كل عصر وكل مكان إذا كنا نجد دعاة للنور فإننا نجد أيضًا خفافيش الفكر ؛ والذين يؤثرون الظلام ولا تقوى أبصارهم على مواجهة النور والضياء . وإذا كنا نجد دعاة للإصلاح والتجديد والتقدم للأمام ، فإننا نجد أيضًا الدعوة إلى الجمود والانغلاق والرجعية والصعود إلى الهاوية . وإذا كنا نجد أناسًا من المفكرين فى هذا العصر أو ذاك من العصور يطلبون منا التمسك بالعقل وجعله المرشد والدليل فى حياتنا ، والاعتصام بالعلم فإننا نجد بجوارهم أهل الخرافة والأسطورة والشعوذة واللاعقلانية .

لقد تضمن كتابه « الإسلام دين العلم والمدنية » العديد من الموضوعات التجديدية الحيوية الهامة وأثار حولها العديد من التساؤلات والقضايا والأفكار والتى نجد أنفسنا حتى اليوم فى حاجة إلى التعرف عليها والاستفادة منها.

ولنقف الآن عند كل موضوع من الموضوعات التى بحث فيها الأستاذ الإمام، وذلك حتى نتعرف على أبرز أفكاره فى كل مجال تصدى للبحث فيه :

١- الدين والمتدينون :

يبحث محمد عبده فى موضوع « الدين والمتدينون » ويبين لنا أن الله خلق الإنسان عالمًا صناعيًا **وهو يعنى بذلك أثر البيئة على الإنسان، وأيضا التركيز على أهمية الإرادة الإنسانية وكيف أن الإنسان صنيعة أعماله إنه يقول**. أن الإنسان لو ترك العمل ساعة من الزمن وبسط كفيه للطبيعة ليستجديها نفسها من حياة لما مكنه من ذلك بل دفعه إلى هاوية العدم .

بل إننا إذا انتقلنا من الأفعال المادية ، إلى الأحوال النفسية من الإدراك والتعقل والملكات والانفعالات الروحية ، فإننا نجد أيضًا أثر البيئة عليه . إن شجاعته وجبنه وجزعه وصبره وكرمه وبخله وشهامته ونذالته وقسوته ولينه وعفته وشرهه ، كل ذلك يعد نابعًا من تربيته الأولى وأثر المحيطين به كالآباء والأمهات ، ومعنى هذا أنه يعد ثمرة ما غرس ونتيجة لما كسب ، فهو مصنوع يتبع مصنوعًا ، إنه فى عقله وصفات روحه يعد عالمًا صناعيًا . **والنتيجة التى يمكن استخلاصها من هذا الرأى الذى يقول به محمد عبده، أنه لابد من التأكيد على أهمية الفعل الإنسانى إن الإنسان يعد حرًا ولا يعد مجبرًا، إنه لا يصح للإنسان أن يذهب إلى القول بأن الطبيعة هى التى أجبرته بل إن الإنسان لديه القدرة والفاعلية** .

ونحن فى عالمنا العربى فى أمس الحاجة إلى التأكيد على أهمية هذا الرأى الذى يقول به محمد عبده **والذى يقترب إلى حد كبير من رأى المعتزلة فى موضوع حرية الإرادة والبحث فى مشكلة القضاء والقدر، لقد شاع بيننا الاتجاه الجبرى اتجاه التواكل والاستسلام ونسبة كل شىء إلى قوى تفوق الطبيعة** ولا يخفى علينا دور بعض الانظمة السياسية التى تقوم على تدعيم الاستبداد والدكتاتورية ، فى نشر

هذا الاتجاه الجبرى وأيضًا دور بعض رجال الدين فى التركيز على الدعوة إلى التواكل والنظر إلى الإنسان وكأنه لا حول له ولا قوة .

وإذا كان الله قد خلق الإنسان عالمًا صناعيًا ، فيما يذهب محمد عبده ، فإن الدين ـ فيما يقول محمد عبده ـ يعد وضعًا إلهيًا ، إنه سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به نفسها . ويلاحظ أن الشيخ محمد عبده لا يبين لنا الصلة بين النظر إلى الانسان كعالم صناعى ونظرته إلى الدين كوضع إلهى ولكن هذا لا يقلل من أهمية نظرته التجديدية .

إن محمد عبده يبين لنا أن الديانة الإسلامية قد وضع أساسها على طلب الغاية والعدة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها ، **إنه يلاحظ أن من ينظر فى أصل هذه الديانة ومن يقرأ سورة من القرآن لابد وأن يدرك أن المسلمين يجب أن يكونوا أول من سعى إلى اختراع الآلات الحربية وإتقان العلوم العسكرية وما يرتبط بها من إتقان الطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة** وهو يذكر قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ .

إن المسلمين الآن قد فقدوا الاهتمام بالبراعة فى فنون القتال واختراع الآلات وسبقتهم الأمم الأخرى حتى وصل الأمر إلى أن أبناء الديانة التى تسعى إلى المسالمة قد اخترعوا آلات الحرب الدقيقة فى حين أننا لا نجد ذلك عند أبناء الديانة التى تدعو إلى طلب القوة والاستعداد للحرب .

٢ـ حوار الإمام مع هانوتو :

ونود أن نقف وقفة قصيرة عند العناصر الرئيسية فى مقال هانوتو وحديثه مع الأستاذ بشارة تقلا صاحب جريدة الأهرام وأيضًا سنشير إلى أبرز ما جاء فى ردود مفكرنا الشيخ محمد عبده وذلك لندرك جانبًا من جوانب نظرته التجديدية .

لقد أشار هانوتو إلى الصلة بين فرنسا والإسلام وهو يركز بصفة خاصة على شمال أفريقيا وإن كان يتحدث أيضا عن بقية البلدان الإسلامية ، وإذا كنا نلاحظ عند هانوتو نوعًا من التعصب لأوروبا وللجنس الآرى إلا أن حديثة عن المسلمين لا يخلو من بعض أوجه الصحة وقد أشار إلى ذلك محمد عبده رغم نقده العنيف لهانوتو حين يتعرض للحديث عن أصول الإسلام . إن جميع المسلمين ـ فيما يلاحظ هانوتو تجمعهم رابطة واحدة يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التى يبتغونها إنها كالقطب الذى تنتهى إليه قوة المغناطيسية . إن جذوة الحمية الدينية تشتعل فى أفئدتهم حين يقتربون من الكعبة ، من البيت الحرام من بئر زمزم الذى ينبع منه الماء المقدس ، من الحجر الأسود ، إنهم يتهافتون على أداء الصلاة صفوفًا ويتقدمهم الإمام مستفتحًا العبارة بقوله « بسم الله » فيعم السكون والسكوت وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين فى تلك الصفوف ويملأ الخشوع قلوبهم ثم يقولون بصوت واحد الله أكبر .

ويذكر هانوتو أنه توجد طوائف إسلامية تقوم مبادئها على نوع من التعصب وعلى كفاح غير المؤمنين وكراهية المدنية الحاضرة لقد أسس الشيخ السنوسى ـ فيما يقول هانوتو ـ مذهبًا خطيرًا له أشياع وأنصار ، وقد لبثوا زمنًا طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العلية بسب ما بينهما وبين الدولة المسيحية من العلاقات.

كما يحاول هانوتو مناقشة العديد من الأمور الأساسية فى كل دين والتى ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب . وبعد مناقشته للعديد من المذاهب الدينية والفلسفية القديمة وإبرازه للفروق الرئيسية بين الإسلام والمسيحية من حيث طبيعة كل ديانة منهما **نجده يبين لنا وجود رأيين مختلفين حول الإسلام رأى يركز على بيان الخلافات وأوجه التناقض بين الدينين المسيحى والإسلامى ويصدر على**

المسلمين أحكاما قاسية هوجاء . ورأى يذهب إلى أن الإسلام دين ومدنية يتصلان مع الدين المسيح بعروة الإخاء والتصاحب .

ويركز هانوتو فى مقاله ، وأيضًا فى حديثه مع صاحب جريدة الأهرام والذى تم فى يوليو عام ١٩٠٠ على ضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية ويؤكد باستمرار على أن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن تم الفصل بين السلطتين . إن سوء التفاهم الذى حدث بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الإسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية (الدول المستعمرة) إنما سببه الصلة الأكيدة بين السياسة والدين فى العالم الإسلامى . ولكن رغم ذلك نجد ـ فيما يقول هانوتو ـ انقلابًا عظيمًا فى بلد من البلدان الإسلامية وهو القطر التونسى . وهذا الإنقلاب يتمثل فى توطيد دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس . يقول هانوتو فى عبارة هامة لا تخلو من مغزى : إنه يوجد الآن بلد من بلاد الإسلام قد ارتخى ، بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الإسلامية الأخرى شديدة الإتصال بعضها ببعض ، إذن توجد أرض تنفلت شيئًا فشيئًا من مكة ومن الماضى الأسيوى ، أرض نشأت فيها نشأة جديدة ، انبتت فى قضائها وإدارتها وعاداتها وأخلاقها ، أرض يصح أن تتخذ مثالاً يقاس عليه ألا وهى البلاد التونسية .

وقد أشار هانوتو فى مقال ثان له إلى أن من قاموا بالرد عليهم ومن بينهم الشيخ محمد عبده ، قد أخطأوا فى فهمه ولم يتعرفوا على حقيقة وجهة نظره، بل تسرعوا فى إصدار الأحكام التى تدل على الابتعاد عن الصواب تمامًا، وقد **أكد على ذلك فى حديثه مع صاحب جريدة الأهرام أنه فيما يقول . لا يتابع الكتاب الذين يذهبون إلى أن تقدم المسلمين يعد مستحيلاً لأن الإسلام دينهم يعوقهم عن ذلك ، فكلما تقدمت أوربا تأخر الشرق** ، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشى وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على النظام الأوربى علمًا ومدنية فإنها قد

نجـحت ، **بل كان ما يود التنبيه إليه أن أوربا التى تقدمت، إنما مرجع تقدمها محاربة السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون وذلك لكى تفصلها عن السلطة المدنية ، كما أن كل أمة لم تتقدم فى ماديتها فإنها لابد أن تموت إذ لا حياة بدون مادة** . وإله الشرقيين هو نفسه إله أوربا وأمريكا ، ولم يكن تقدم أوربا وأمريكا وتأخر الشرق راجعًا إلى أن الله تعالى يميل إلى أوربا وأمريكا أكثر من ميله إلى الشرق بل إن التقدم سببه العمل والاجتهاد والتأخر يكون سببه اليأس والتواكل والاستسلام والوقوف عند التغنى بأمجاد الماضى إن اليابانى لم يقم باحتقار الأجنبى لأنه عنصر غريب أو لأنه مسيحى يعد دينه بعيداً عن دين أهل اليابان بل إن اليابان لم تتقدم إلا عن طريق اعتقادها بضرورة محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا أى أن تتشبه بأوربا فى العلم والمدنية والعمل، وإذا كانت النهضة العلمية قد بدأت فى مصر وتم إنشاء العديد من المدارس إلا أن العبرة ليست بإقامة المدارس بل بوضع المناهج المدرسية ، فالعلم وحده لا يكفى لكن لابد وأن يخرج بالتهذيب . وهذا كله وإن دلنا على شىء فإنما يدلنا على أن السلطة المدنية تعد أهم وأشد من الرابطة الدينية ولم تتقدم أوربا إلا حينما جعلت السلطة المدنية قاعدتها الأولى.

وعلى الرغم من صدق بعض الملحوظات التى قال بها هانوتو والتى يمكننا الإستفادة منها فى التركيز على أهمية العمل والكفاح وأننا لن نتقدم إلا بالإنفتاح على الحضارة الأوربية إلا أننا لابد أن ننتبه إلى أن هانوتو إنما كان مدفوعًا بحكم أسباب سياسية أساسًا وإلا كيف يمكننا تبرير تمجيده لتونس حينما كانت مستعمرة وتركيزه لنا باستمرار إلى أنه من الضرورى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية بالإضافة إلى شعوره بالتوقف ـ كما قلنا ـ لأنه من أبناء الجنس الآرى لا السامى .

ولا نود الوقوف كثيراً عند موضوع التمييز بين العقول والمواهب على أساس الجنس أى جنس آرى هو الذى يستطيع التفكير وإبداع المذاهب الفلسفية

وجنس سامى لا يستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه الأوربى الذى ينتمى إلى الجنس الآرى لا السامى . لقد انتهى إلى حد كبير جداً موضوع التميز بين العقول على أساس التميز بين الجنس السامى والجنس الآرى ، فالتفكير حظ مشترك للناس جميعًا ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

وكم حاول محمد عبده الرد على آراء هانوتو فى مقاله الذى سبق أن أشرنا إليه والذى نشر فى جريدة « الجورنال » الباريسية وتمت ترجمته فى جريدة المؤيد . ويلاحظ على رد محمد عبده اهتمامه بإيراد العديد من الحقائق التاريخية وأن كان يعيب رده انسياقه وراء اللغة الخطابية الإنشائية وتركيزه على ماضى المسلمين عن طريق ذكر العديد من الأمثلة التى تبين لنا أمجادهم وكم قلنا من جانبنا أن الوقوف عند حد التغنى بالماضى لمجرد أنه ماضٍ ، والتغنى بالتراث لمجرد أنه تراث لن يفيدنا بشىء فى حياتنا التى نحياها .

ويبين لنا محمد عبده خلال رده على هانوتو أن الغرب الآرى قد أخذ عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ولم يقدم لنا أدلة تاريخية على ما يقول به بل إن محمد عبده كان من واجبه أن يجيب على سؤال هو : وهل منع الغرب دول الشرق من الاستفادة من علومه وآدابه ؟

ونجد فى ردود محمد عبده الكثير من الجوانب الإيجابية والصادقة تمامًا ومن بينها أهمية الدعوة إلى الحرية والإبتعاد عن القول بالجبر وأيضًا تفرقة بين الدين فى أساسه وأصوله وأحكامه وبين ما نجده شائعًا عند بعض رجال الدين والذين لم يفهموا الإسلام فهمًا صادقًا ودقيقًا . إن الإسلام لم يكن دعوة إلى الضعف والتواكل بل دعوة إلى القوة وقد ذكر محمد عبده فى هذا المجال وكدليل على دعوة الإسلام إلى الاعتماد على القوة ما قاله أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة لقد قال

له : حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح كما أن الله تعالى يقول : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ . .

الواقع أن محمد عبده فى ردوده على هانوتو كان متسلحا بالشجاعة والصبر والمناقشة المستفيضة لكل حجة وذلك على النحو الذى سيجده القارىء فى كتابه ولا يقلل من أهمية ردوده إلا اسرافه فى التغنى بالماضى وتركيزه على الأمثلة التى تؤيد وجهة نظره وقد ذهب محمد عبده فى دراسته لأصول الإسلام إلى أن الإسلام قد أطلق العقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد . فهل يفهم ذلك من نصبوا أنفسهم لإصدار الأحكام الجائرة الظالمة ، والتى تذكرنا بأحكام محاكم التفتيش . ومن المؤسف له أننا نجد هذه الآحكام الجائرة الآحكام الصادرة بالتكفير تجىء عن أناس يعشيون فى القرن العشرين منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال على قيد الحياة .

يقول محمد عبده إننى لو أردت سرد جميع الآيات التى تدعو إلى النظر فى آيات الكون لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ .

٣- مكانة العقل فى الإسلام :

إن الإسلام قد أطلق العنان للعقل ولا يقيد العقل بكتاب ولا يقف به عند باب ولا يطالبه فيه حساب ويعطينا محمد عبده مثالاً يؤيد كلامه فيما جاء فى خبر من سأل النبى ﷺ أين كان ربنا قبل السموات والأرض ؟ فأجابه عليه السلام : كان فى عماء تحته هواء والعماء عندهم السحاب .

ونود أن نشير من جانبنا إلى أن ذكر هذا المثال فى استدلال محمد عبده **على أهمية النظر بالعقل يرتبط بما ذهب إليه فى موضوع حدوث العالم وقدمه إذ أن محمد عبده لم يذهب إلى تكفير القائلين بقدم العالم كما فعل الغزالى وابن تيمية بل**

إنه قال بخطأ رأيهم إذ أنه قال أن الذين بحثوا فى هذه المشكلة مشكلة هل العالم يعد حادثًا بمعنى أن الله تعالى خلقه من العدم ، أم أنه يعد قديمًا يعنى وجوده عن مادة أولى أزلية . لقد ذهب فريق منهم إلى القول بحدوثه وهم على صواب فى رأيهم كما يذهب محمد عبده ، وذهب فريق آخر وهم الفلاسفة أساسًا أو أكثرهم إلى القول بأن الله تعالى أوجده عن مادة أولى قديمة وهم على خطأ فى قولهم .

ومن الواضح أن رأى محمد عبده فى قول الفلاسفة بالقدم ومن بينهم الفارابى وابن سينا ، يختلف عن اعتقاد الغزالى بأن الفلاسفة قد كفروا فى قولهم بقدم العالم .

وإذا كان محمد عبده لم يذهب إلى تكفير الفلاسفة فإن سبب ذلك فى الغالب اعتقاده أن هذه المسألة مسألة الحدوث والقدم تعد مسألة جدلية ، خاصة أن القائلين بالقدم قد حاولوا الدفاع عن رأيهم بذكر أكثر من آية من الآيات القرآنية ومنها قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ .

ومن الواضح أن محمد عبده يتجه إلى حد كبيرا تجاهًا اعتزاليا أى يشبه موقفه موقف المعتزلة وذلك حين بين لنا : فى الأصل الأول للإسلام كيف أن الأساس الذى وضع الإسلام عليه ، هو النظر العقلى وأن النظر هو وسيلة الإيمان الصحيح . كما ذكر فى دراسته **للأصل الثانى** بأنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل .

أما الأصل الثالث فإنه يعد بدوره من الأصول الهامة والتى نحن الآن فى أمس الحاجة إليه وخاصة بعد شيوع أحكام التكفير والتى يصدرها أناس يتصفون بسلاطة اللسان ولديهم نوع من الإسهال فى إصدار الأحكام بالكفر على من يخالف هذا الرأى أو ذاك من الآراء التى يقولون بها ويجزمون

بصحتها ولا يقبلون مناقشة من يختلفون معهم فى آرائهم ، وأصبحنا نسمع الآن عن جماعات تسمى بجماعات التكفير والهجرة . هذه كلها مبادىء يكشف عنها ويقوم بتحليلها مفكرنا الشيخ محمد عبده خلال دراسته لأكثر من أصل من أصول الإسلام .

٤ - ارتباط الدين بالمجتمع :

وتأكيدًا على الدفاع عن الإسلام والاعتقاد بأن الدين يجب ألا يكون معزولاً عن المجتمع فيما يرى محمد عبده أثناء دراسته للأصول التى سبق أن أشرنا إليها ، فإننا نجد الشيخ محمد عبده فى دراسته لآخر الأصول وهو الأصل الذى يتمثل فى الجمع بين الدنيا والآخرة يعطينا العديد من الأمثلة التى تدلنا على كيفية النظر إلى الآخرة من خلال الدنيا والنظر إلى الدنيا بعيون الآخرة إن صح هذا التعبير . إن أوامر الدين إذا كانت تطلب من العبد الاتجاه إلى ربه وتملأ قلبه بالرهبة وتعطية الأمل فى الرغبة ، فإنها لا تحرمه من التمتع بالدنيا بل تطلب منه الوقوف موقفًا معتدلاً . إن الرسول ﷺ لم يقل : بع ما تملك واتبعنى ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من مال : الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس .

ومعنى هذا أنه لا يوجد غلو فى الدين بل يوجد الاعتدال بالمواقف الوسط وقد ذكر محمد عبده العديد من الآيات القرآنية التى تؤيد ذلك ، منها قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ .

ومن الواضح أن محمد عبده فى تركيزه على أهمية الربط بين الدنيا والآخرة ودعوته إلى التمتع بالدنيا إنما يدلنا على أنه لا يرتضى لنفسه آراء الصوفية ولا اتجاه

الزهاد والعباد حين يهملون الدنيا فى سبيل الآخرة بل إن محمد عبده يبين لنا فى أواخر دراسته لهذا الأصل أصل الجمع بين الدنيا والآخرة أن المسلم لا يمكنه أن يشكر الله حق شكره إلا إذا وقع العالم بأسره تحت فكره واستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه إنه لا شيء عند الإنسان ألذ من كشف المجهول والوصول إلى المعقول ، وعلى الفرد أن يسير فى مملكة العلم ليمتع عقله كما ينتشر فى الأرض ليكسب رزقه ويطعم أهله .

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد بحث فى أصول الإسلام وبين لنا من خلال بحثه فى أكثر من فصل من تلك الأصول أن الإسلام يدعونا إلى النظر والتفكر فإننا نجده يبحث أيضا كتأييد لما يقول به فى اشغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية ، وهذا موضوع القسم الرابع من أقسام الكتاب : « الإسلام دين العلم والمدنية » وسنقف وقفة قصيرة عند هذا القسم .

يبين لنا الشيخ محمد عبده كيف اهتم المسلمون والعرب اهتمامًا لا حد له بالعلوم الأدبية وبعد مرور عشرين عامًا على وفاة الرسول ﷺ ، كما اهتموا بالعلوم الكونية وخاصة أيام الدولة العباسية عند أمثال المنصور وهارون الرشيد والمأمون . كما اهتم المسلمون بإنشاء دور الكتب سواء فى بلدان المشرق العربى أو فى بلدان المغرب ، بالإضافة إلى إنشاء المدارس للعلوم والتى انتشرت فى كل الأقطار فى المغول وفى التتار من جهة المشرق وفى مراكش وفاس من جهة المغرب . كما يشير محمد عبده إلى أهمية العلوم العربية وكيف كان علم العرب فى أول الأمر يونانيًا ثم أصبح عربيًا وأن أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجارب وألا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم ما لم تؤيدها التجربة.

٥- رؤية نقدية :

لجأ الشيخ محمد عبده إلى التعميمات دون أن يضع فى اعتباره العديد من

الأمثلة والحوادث التاريخية التى لا تؤيد أقواله وهذا هو العيب الأكبر فى اللجوء إلى التعميم وبقصد الدفاع عن الحضـارة العربية الإسلامية بحق وبغير حق . لابد أن نضع فى إعتبارنا أن كل حضارة مع ما يوجـد فيها من إيجابيات وإنجازات إلا أننا نجد مع ذلك نوعًـا من السلبيـات لقد تكلـم محـمد عبـده فى هذا الفصل عن كافة العلوم عند العرب وذكر أن جميع المقـالات والكتب كانت تنتشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقـبة ولا حجـر ولا نقض شىء مما كتب صاحب الكتـاب ما عدا الإشـارة من جانب مـؤرخ واحد إلى أنه قـد وضع قانون فى بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد وبحيث لا ينشر منها شىء إلا بإذن .

والدارس لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية لابد وأن يلاحظ وقوع العديد من الأحداث التى تدلنا على قيام العـديد من الخلفاء وبعض رجال الدين بالتضييق على حرية الفكر حتى فى العصر العباسى والذى يشير إليه محمد عبده كثيرًا بالإضافة إلى عصـور أخرى فى المشرق والمغـرب ألم يسمع مـحمد عـبده عن إحراق كـتاب إحياء علوم الدين للغزالى فى بلاد الأندلس وعن رجم العامة المشتغلين بالمنطق والفلسفة ومن لديهم كتاب من هذين الموضـوعين وعن إحراق مئات بل آلاف الكتب عبد صـدور الحكم على ابن رشد بالنفى خارج قرطبـة إلى غير ذلك من مئـات الأحداث التى كان ينبـغى على محمـد عبده الوقـوف عندها أليس ذلك أفضل له وللقراء من اللجوء إلى التعميمات .

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد حلل ـ كما قلنا ـ موضوع اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبيـة والعقلية فـإننا نجده يبحث أيـضًا فى موضـوع « الإسلام فى أوائل القرن العشرين » ونود أن نقف قليلاً عند الخطوط الرئيسية فى حديث محمد عبده عن هذا الموضوع ، وذلك حتى ندرك بعدًا آخر من أبعاد فكره التجديدى .

يبين لنا الشـيخ محمد عبـده أنه لا يصح الإحتجاج بآراء وأفـعال بعض

المسلمين على الإسلام هذا هو محور هذ الفصل والذى يعد من الفصول الهامة، إذ يكشف عن صراحة الإمام محمد عبده ورغبته فى الإصلاح والدليل على ذلك **أننا نجده لا يتردد فى نقد سلوك كثير من المشايخ القدامى منهم أو الذين عاصروه والقارىء لهذا الفصل يشعر بصدق الإمام محمد عبده** وبعد نظره فى العديد من الآراء التى قال بها كمحاولة من جانبه للدفاع عن الإسلام واستمراريته خلال القرون التالية ، إنه يتكلم فى عبارات مليئة بالأسى والحزن عما وصل إليه حال المسلمين اليوم فى بعض الأقطار الإسلامية ويذكر العديد من الأحداث والروايات التى تدلنا على جمود بعض المشايخ ومن تابعهم وكيف أن هذا الجمود إذا استمر فإنه لن يكون فى صالح الدين بل سيكون من أسباب عدم تآخيه مع روح العصر الحديث .

إننى أدعوا القارىء إلى التأمل فى كل الأفكار التى قال بها محمد عبده بين ثنايا هذا الفصل ، وسيجد أكثرها يصلح أن يكون منهجًا أو دستورًا يجب أن نسير عليه اليوم ، بل إنها ستؤدى إلى أن يكون حالنا أفضل بكثير جدًا من أحوالنا فى الأمس القريب والأمس البعيد أيضًا .

يبين لنا محمد عبده فى هذا الفصل أن سلوك بعض المسلمين والمعادى للعلم والفلسفة بوجه عام لا يصح أن يتخذ دليلاً على أن العيب فى الدين لقد كان ينشر بالجرائد ـ فيما يقول محمد عبده ـ العديد من المقالات التى تستهجن إدخال دروس علم الجغرافيا التى يتلقاها طلبة جامعة الأزهر وكان كتاب تلك المقالات يقومون بالهجوم على من أشار بإدخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم التى تدرس بالأزهر . ومن الواضح أن محمد عبده يشير إلى نفسه لأنه من أنصار تعليم هذه العلوم ، ولقد وجدت آراؤه معارضة شديدة من جانب بعض المشايخ والذين هم أعداء لكل مخالف لما هم عليه من التقليد والتزمت ،

إنه إذا قيل لطلبة الأزهر بأنه ينبغى دراسة بعض مبادىء الطبيعة والتاريخ الطبيعى فإن هؤلاء المشايخ ـ فيما يقول محمد عبده ـ يصيحون أجمعين : هذا عدوان على الدين هذا توهين لعقده المتين هذا تغرير بأهله المساكين ولا يزالون يشيدون بهذا إلى أن يبقى شىء عرف له اسم فى اللغة إلا الصفوة بهذه البدعة فى زعمهم .

والواقع أننا نجد عند مفكرنا الشيخ محمد عبده فى هذا المجال دعوة إلى الإنفتاح على العلوم الأخرى حتى لو كانت من العلوم غير الدينية أى غير المرتبطة ارتباطا مباشراً بالعلوم الدينية الشرعية وهذه الدعوة من جانب محمد عبده تعد دعوة ممتازة رائعة . إذ نلاحظ أن بعض الشيوخ ومن جاراهم وحتى يومنا هذا للأسف الشديد ونحن فى أواخر القرن العشرين ، يقومون بالهجوم على العلم وعلى الحضارة القائمة على العلم إنهم يتناقضون ـ فيما أرى ـ تناقضاً شديداً ، إنهم يهاجمون الحضارة وفى نفس الوقت يكونون من أكثر المستفيدين من الحضارة وذلك حين يستخدمون الميكروفون مثلاً وهو ثمرة من ثمرات العلم والحضارة .

فهل تجدون أيها القراء الأعزاء تناقضًا أكثر من هذا التناقض ؟ بل إننا إذا كنا نجد اليوم أناسًا يدعون إلى الوقوف عند التراث فى مجالات الطب والطبيعة وغيرها فإن هذه الدعوة من جانبهم تدلنا على نوع من القصور فى أفهامهم إذ أن كتب التراث لا تستطيع أن تهدينا إلى إختراع من المخترعات التى ننعم بها الآن إن العلم قديمًا كان يسوده الكيف ، والعلم الآن لم يؤد إلى العديد من التطبيقات التكنولوجية إلا أنه أصبح كمًا وكمًا فقط .

والواقع أن القارىء لهذا الفصل يشعر بغيرة الإمام محمد عبده على الإسلام ودفاعه دفاعًا مجيداً إنه يحارب التقليد والجمود محاربة شديدة ويرى أن الجمود عند النص الدينى هو الذى أدى بالمسلمين إلى التأخر وعدم اللحاق

بالأمم الأخرى ولم يذكر لنا الإمام محمد عبده العديد من الأمثلة التى يؤكد من خلالها على صحة الآراء التى يذهب إليها . وإذا كان محمد عبده يبدو متشائمًا خلال حديثه عن أحوال المسلمين فى عصره إلا أنه يبدو متفائلاً تمامًا حين يتحدث عن المستقبل إنه يرى أن أمر العالم لابد وأن ينتهى إلى تأخى العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم .

هذه هى أبرز النقاط التى تعرض لها محمد عبده فى دراسته لموضوع « الإسلام فى القرن العشرين » ولا شك أن محمد عبده على علم شامل ودراية شاملة فى تحديده لأوجه قصور المسلمين وأوجه العلاج أيضًا إنه كرجل دين على الأقل يعد واعيًا تمامًا بأصول الدين من جهة وسلوك بعض المسلمين ورجال الدين من جهة أخرى ، هذا السلوك الذى يراه مبتعداً تمامًا عن الدين كما ينبغى أن يكون الدين الذى فهمه الأسلاف فهمًا عميقًا جيدًا ، فى حين أساء إليه نفر من المتأخرين أصحاب العقليات المظلمة الجامدة المغلقة .

وينتقل محمد عبده إلى بيان كيفية تشجيع الإسلام للعلم والعلماء فى عصور قوة وكيف نجد تواكبًا بين العلم والدين وبين العلماء من جهة ورجال الدين من جهة أخرى ولا يقول أحد منهم للآخر أنه زنديق أو كافر أو مبتدع أما **فى حالات الضعف فإننا نجد القول بالزندقة أو الكفر من جانب رجال الدين فى حديثهم عن أهل العلم** .

ومن الواضح أن محمد عبده من خلال حديثه عن الإسلام ومدنية أوربا يريد أن يبين لنا فضل الإسلام والمسلمين على أوربا وكيف أدت العلوم عند العرب دوراً ملموسًا فى تشكيل المدنية الأوربية وكم نجده يذكر العديد من الأمثلة التى يوضح من خلالها وجهة نظره .

٦ـ كلمة خاتمة :

ونود أن نقول فى آخر دراستنا لبعض آراء الشيخ محمد عبده أن أكثر

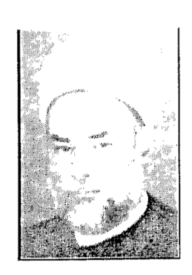
الآراء التى تركها لنا مفكرنا محمد عبده تدلنا على أنه كان سابقًا لعصره . تدلنا على أنه كان يتمتع بعقلية نقدية دقيقة من النادر أن نجد مثيلاً لها حتى عند مشايخ عصرنا الحالى .

وكم نجد فى كتاباته من الدروس التى نحن فى أمس الحاجة إليها الآن رغم مرور قرن من الزمان على وفاة الشيخ محمد عبده .

إن كل الظواهر التى نشاهدها الآن ونحس بها إنما تدلنا إذا ابتعدنا عن التفاؤل الساذج والتزمنا بالموضوعية ـ على أن عالمنا العربى يتأخر إلى الوراء ولا يتقدم خطوات إيجابية ملموسة نحو ما هو أفضل وما يعد ضروريًا لنا حتى نواكب روح الحاضر وروح المستقبل . لقد أسرفنا فى المناقشات اللفظية العقيمة التى تعد كالأرض القحلة الجدباء ، فهمنا العلم فهمًا خاطئًا واكتفينا بالتغنى بالماضى والبكاء على الأطلال .

رحم الله شيخنا محمد عبده ، وعلينا دراسة أفكاره والتى صدرت عن نفس مؤمنة وعقل مفتوح . نقول هذا ونحن نحتفل بمرور قرن من الزمان على وفاته لأن أفكاره ما تزال حية ، فهل يدرك هذا أهل الجهل والتقليد والذين يريدون لنا الصعود إلى الهاوية وبئس المصير ؟

لقد قال بالعديد من الآراء من خلال فكر تجديدى خلاق ، ومن هنا فإننا نجد استمرارية لهذه الآراء فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية . إنها أفكار تدعو إلى البناء تدعو إلى القوة وذلك حتى نجد مستقبلنا أفضل من ماضينا وحاضرنا.



الامام محمد عبده مفتيًا
للاستاذ الدكتور / على جمعة
مفتى جمهورية مصر العربية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وآله الطاهرين ، وأصحابه الطيبين وأتباعه إلى يوم الدين . . . وبعد .

فإن الإمام محمد عبده هو أحد أبرز المجددين في الفقه الإسلامى في العصر الحديث وأحد دعاة الإصلاح وأعلام النهضة العربية الإسلامية الحديثة ؛ فقد ساهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود الذي أصابه لعدة قرون ، كما شارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر ، وبعث الوطنية ، وإحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة في العلم ، ومسايرة حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية .

وُلد الإمام محمد عبده في عام ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م ، لأب تركماني الأصل ، وأم مصرية تنتمى إلى قبيلة « بني عدى » العربية ، ونشأ في قرية صغيرة من ريف مصر هي قرية « محلة نصر » بمحافظة البحيرة .

أرسله أبوه إلى الكُتّاب ، حيث تلقى دروسه الأولى على يد شيخ القرية، وعندما شبَّ الابن أرسله أبوه إلى « الجامع الأحمدى » - جامع السيد

البدوي ـ بطنطا ؛ لقربه من بلـدته ؛ ليجوّد القرآن بعد أن حفظه ، ويدرِّس شـيئًا من علوم الفقه واللغة العربية .

انتقل محمد عبده من الجامع الأحمدي إلى الجامع الأزهر عام (١٢٨٢هـ ـ ١٨٦٥م) ، وكانت الدراسة في الأزهر ـ في ذلك الوقت ـ لا تخرج عن هذه العلوم في شيء، فلا تاريخ ولا جغرفيا ولا طبيعة ولا كيمياء ولا رياضيات وغير ذلك من العلوم التي كانت توصف ـ آنذاك ـ بعلوم أهل الدنيا .

نال « محمد عبده » شهادة العالمية من الأزهر ، وانطلق ليبدأ رحلة كفاحه من أجل العلم والتنوير ، فلم يكتف بالتدريس في الأزهر ، وإنما درّس في « دار العلوم » وفي « مدرسة الألسن » ، كما اتصل بالحياة العامة . وكانت دروسه في الأزهر في المنطق والفلسفة والتوحيد ، وكان يُدرّس في دار العلوم مقدمة ابن خلدون ، كما ألّف كتابًا في علم الاجتماع والعمران .

واتصل بعدد من الجرائد ، فكان يكتب في « الأهرام » مقالات في الإصلاح الخلقى والاجتماعى ، فكتب مقالاً في « الكتابة والقلم » ، وآخر في «المدبر الإنسانى والمدبر العقلى والروحانى » ، وثالثاً في « العلوم العقلية والدعوة إلى العلوم العصرية ».

وكان من الطبيعى أن يكون لرجل في عظمة محمد عبده وجلال قدره حساد وخصوم ، حيث لجأ خصومه إلى العديد من الطرق الرخيصة والأساليب المبتذلة لتجريحه وتشويه صورته أمام العامة ؛ حتى اضطر إلى الاستقالة من الأزهر في سنة (١٣٢٣هـ ١٩٠٥م) ، وإثر ذلك أحس الشيخ بالمرض ، واشتدت عليه وطأة المرض ، الذي تبيّن أنه السرطان ، وما لبث أن تُوفي بالإسكندرية في (٨ من جمادى الأولى ١٣٢٣هـ ـ ١١ من يوليو ١٩٠٥م) عن عمر بلغ ستة وخمسين عامًا .

ما كتب عن الإمام محمد عبده :

لقد كتب أعلام الأدب والفكر المعاصرون عن الإمام محمد عبده كُتبًا بيَّنت فكره ، ومنهجه ، وأسلوبه ، وجهاده في مجال الدعوة الإسلامية ومن أبرز ما كتب عنه :

١) كتاب بعنوان « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » لأحمد أمين طبعته مكتبة النهضة بالقاهرة عام ١٩٤٨ .

٢) كتاب بعنوان « رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده » لعثمان أمين طبعته مكتبة النهضة عام ١٩٥٥ .

٣) كتاب بعنوان « محمد عبده » لعباس محمود العقاد طبعته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة عام ١٩٦٢ .

٤) كتاب بعنوان « مشكلتا الوجود والمعرفة في الفكر الإسلامى الحديث عند محمد عبده ومحمد إقبال » لعطية سلمان عروة طبعته دار الحداثة سنة ١٩٨٥ .

٥) كتاب بعنوان « مفكرون من مصر » لسامي خشبة طبعته الهيئة العربية العامة للكتاب بالقاهرة عام ٢٠٠٠ .

٦) كتاب بعنوان « الإسلام والمرأة في رأي محمد عبده » لمحمد عمارة طبعته دار الهلال .

٧) كتاب بعنوان « منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن » لعبد الله محمود شحاته طبعه المجلس الأعلى لرعاية الفنون .

٨) كتاب بعنوان « كمال بلاغة العربية في مدح الشيخ محمد عبده » لكمال الدين العراقى .

من تراثه الفقهي الإفتائي

كان ـ رحمه الله ـ فقيهًا بارعًا ينظر إلى العواقب والمآلات وإلى المفاسد والمصالح، وترك من التراث الفقهي الإفتائي الكثير الذي يعد مرجعًا للعلماء بعده ، ومن هذا التراث نتخيَّر تلك الفتاوى :

١ ـ **فقد سئل رحمه الله في رجل أقرَّ أنه كان من طائفة الدروز ويريد الآن أن يترك ما كان عليه من الاعتقادات الدرزية ويعتنق الدين الإسلامي** الحنيف المبين . فهل والحالة هذه إذا أتى بالشهادتين مع عبارة التبرى من جميع ما يخالف دين الإسلام يعتبر بنظر الشرع مسلمًا ويعامل معاملة المسلمين فورًا ولا يعد منافقًا . وإذا صح إسلامه بتلك الصيغة فما حكم من لم يقبل إسلامه من المسلمين ، وهل يشترط لقبول إسلامه أن يكون رسميًا أرجو الجواب ؟

فأجاب: « الذي قالوه إنه متى جاء الدرزي ونحوه طائعا معلنًا بأنه كان على عقيدته وأنه رجع عنها متبرئًا من كل دين يخالف دين الإسلام وجب قبول قوله واعتبر مسلمًا ، وقالوا كذلك إن من لم يقبل رجوع من يريد الأوبة إلى الإسلام يكون أسهم ببقائه على الكفر . وقالوا إن أقل ما في ذلك أن يكون آثمًا مسيئًا ، ثم إنه ليست لنا سنة نتبعها في اعتبار المتحول إلى الإسلام مسلمًا منا له ما لنا وعليه ما علينا في أخوة الدين إلا سنة نبينا محمد ﷺ وقد كان عليه السلام يقبل الرجعة إلى الإسلام بعد الردة والإخلاص بعد النفاق ، ولم يكن ينظر إلى من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأن القرآن حق والآخرة حق وأن جميع ما فرضه الله في كتابه واجب الأداء وما منعه يجب عنه الانتهاء إلا نظرة المسلم للمسلم ، ولم يكن يفرق بين المسلمين في الإسلام إلا أن يطلعه الله على مكان شخص من نفاق أو قامت له على ذلك شواهد قاطعة . **وكتب السنة شاهدة بذلك فكيف لا نقنع من الناس بما قنع ﷺ منهم ، وكيف نطالبهم بأكثر مما طالبهم به وهو صاحب الشريعة وإليه المردُّ عند النزاع .**

فهذا الدرزي الذي اعترف بما كان عليه وجاء الآن طائعًا من نفسه يشهد أنه على الدين الحق وأنه ينبذ كل دين يخالفه ، يعد مسلمًا حقًا . ومن لم يقبل منه ذلك يخشى أن يبوء بها ـ نعوذ ـ ، بالله فليتق الله المسلمون وليرجعوا إلى حكم الله وحكم رسوله ولا يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم والله ينقذهم مما صاروا إليه وهو يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

أما اعتبار الراجع إلى العقيدة الصحيحة مسلماً ، فلا يحتاج إلى أن يكون ذلك من طريق رسمية ، بل يكفي أن يعلم الله عنه ذلك ثم في جريان أحكام المسلمين عليه لا يحتاج إلا إلى أن يعرف الناس منه ذلك وتبين أمره بين من يعرفونه . والله تعالى أعلم » أ .هـ .

ويتضح في إجابة فضيلة الإمام محمد عبده مدى إعمال النص التشريعي مع الخلق النبوى مع الرحمة والرأفة بالمسلمين ولا يغفل النصح لهم فهذا هو النموذج للعالم الرباني الذي يريد رفعة أمة الإسلام .

٢ ـ **ولنتخير فتوى أخرى تعبر عن هذا المنهج القويم في النصح** والإرشاد للمسلمين ؛ حيث يتضح فيها إدراكه للواقع لقوانين البلاد المختلفة من دول الإسلام وغيرها ، كما يتضح فيه قدرته على إسقاط الحكم الشرعي على الحادثة ببراعة واقتدار .

فقد سئل فضيلة الإمام رحمه الله عن المسلم إذا دخل بمملكة إسلامية . هل يعد من رعيتها ، له ما لهم وعليه ما عليهم على الوجه المطلق . وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه عمومًا وخصوصًا . وما هي الجنسية عندنا . وهل حقوق الامتيازات المعبر عنها عند غير المسلمين بالـ(كبيتولاسيون) موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم بعضًا ؟ .

فأجاب : « من المعلوم أن الشريعة الإسلامية قامت على أصل واحد ، وهو

وجود الانقياد لها على كل مسلم في أى محل حل وإلى أي بلد ارتحل ، فإذا نزل ببلد إسلامى جرت عليه أحكام الشريعة الإسلامية في ذلك البلد ، وصار له من الحق ما لأهله ، وعليه من الحق ما عليهم ، لا يميزه عنهم مميز ولا أثر لاختلاف البلاد في اختلاف الأحكام .

نعم قد يكون الحاكم في بعض الأقطار حنفيًا وفي بعضها مالكيًا مثلاً ، ولكن هذا لا أثر له في الحق للشخص أو عليه . فمتى قضى له أو عليه فله ما قضي له به وعليه أداء ما قضى به عليه على أى مذهب كان متى كان القاضي مولى من طرف الحاكم العام ؛ إذ حكم الحاكم يرفع الخلاف . **ولا ذكر لاختلاف الأوطان في الشريعة الإسلامية إلا فيما يتعلق بأحكام العبادات من قصر الصلاة للمسافر أو جواز الفطر في رمضان مثلاً ، وقد يتبع ذلك شيء في اختصاص** المحاكم من حيث تعيين الجهة التي يكون لقاضيها الحق في أن يحكم في الدعوى التي ترفع إليه من شخص على آخر ، هل هي محل المدعي أو محل المدعى عليه غير أن شيئًا من ذلك لا يغير من حق للمدعي أو المدعى عليه .

فالشريعة واحدة والحقوق واحدة يستوي فيها الجميع في أي مكان كانوا من البلاد الإسلامية ، فوطن المسلم في البلاد الإسلامية هو المحل الذي ينوي الإقامة فيه ويتخذ فيه طريق كسبه لعيشه ، ويقر فيه مع أهله إن كان له أهل ، ولا ينظر إلى مولده ولا إلى البلد الذي نشأ فيه ، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول ، ولا إلى ما يتعارفون عليه في الأحكام والمعاملات . وإنما بلده ووطنه الذي يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذي انتقل إليه واستقر فيه . فهو رعية الحاكم الذي يقيم تحت ولايته دون سواه من سائر الحكام ، وله من حقوق رعيه ذلك الحاكم وعليه ما عليهم ولا يميزه عنهم شيء لا خاص ولا عام . **أما الجنسية فليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها أحكام تجرى عليهم لا في**

خاصتهم ولا عامتهم. وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية. وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه .

وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم . جاء الإسلام فألغى تلك العصبية ومحا آثارها وسوّى بين الناس في الحقوق فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر في الحقوق ولا في الأحكام.

فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة. فقد قال ﷺ إن الله أذهب عنكم عبية (بضم العين وكسر الباء المشددة وفتح الياء أى ـ عظمة) الجاهلية ؛ عظمتها وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقى وفاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب وروي كذلك عنه : « ليس منا من دعا إلى عصبية » . وبالجملة فالاختلاف في الآصناف البشرية كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه . ومن كان مصريًا وسكن بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب ، ولا ينظر إلى أصله المصرى بوجه من الوجوه .

وأما حقوق الامتيازات المعبر عنها بالكابيتولاسيون فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة. فهذه بلاد مراكش وبلاد أفغانستان لكل من البلدين حكومة مستقلة عن الآخرى . وكلا الحكومتين مستقل عن الدولة العثمانية ، ولا يوجد شيء من حقوق الامتيازات بين حكومة من هذه الحكومات وأخرى منها .

وما نراه من الوكلاء لحكومة مراكش مثلاً من الممالك العثمانية لا يعتبرون سفراء مثل سفراء الدول الأجنبية وإنما هم وكلاء لشخص الحاكم ورجال دولته لقضاء بعض المصالح الخاصة ولمساعدة مواطنيهم فيما يعرض لهم من حاجات ، ولا أثر لهم فيما يدخل في الشرائع والأحكام ، وما يوجد

من أثر الامتياز في الحقوق لرعية شاه العجم أو سلطان مراكش في بعض الممالك الإسلامية كمصر ، فإن الإيرانيين والمغاربة قد نالوا ضربًا من الامتياز بالتقاضي إلى المحاكم المختلطة من عدة سنوات . **ذلك الذي تراه من أثر الامتياز يناقض أصول الشريعة الإسلامية كافة** .

فلا أهل السنة يجيزونه ولا مجتهدو الشيعة يسمحون به ، وإنما هو شيء جر إليه فسوق بعض الرعايا وميل المحاكم المختلطة إلى التوسع في الاختصاص . وما قضت به بعض القوانين المصرية من أن سائر العثمانيين لا ينالون حق التوظف في مصالح الحكومة المصرية ، ولا حق الانتخاب في مجالس شوراها إلا بقيود مخصوصة يشبه تقرير الحقوق في انتخاب مجالس البلدية . فمجلس بلدية الاسكندرية مثلا لا يدخل في انتخاب أعضائه المقيم بالقاهرة ، فهو من باب تفضيل سكان المكان على سكان غيرهم ، وإيثارهم أولئك بالنظر في المنافع على هؤلاء لقربهم مع استواء الكل في الانتساب إلى شريعة واحدة ، واشتراكهم في الحقوق التي قررتها الشريعة بلا امتياز . هذا ما **تقضي به الشريعة الإسلامية على اختلاف مذاهبها . لا جنسية في الإسلام ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم . والبلد الذي يقيم فيه المسلم** من بلاد المسلمين هو بلده ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره ، والله أعلم » أ . هـ .

٣ ـ وقد سئل فضيلة الإمام محمد عبده عن امرأة مسيحية ماتت عن أم وابن وبنتين شرعيين . وعن بنت ولدتها من الزنا . فهل ترث البنت من الزنا كبقية أولادها الشرعيين؟ .

فأجاب : « صرح في البحر من كتاب الفرائض بما يفيد إرث ولد الزنا واللعان من الأم . حيث قال : ويرث ولد الزنا واللعان من جهة الأم فقط ؛ لأن نسبه من جهة الأب منقطع أما من جهة الأم فهو ثابت فيرث به أمه وأخته من

الأم بالفرض لا غير ، وكذا ترثه أمه وأخته من أمه فرضا لا غير. انتهي .. وعلى ذلك تكون هذه البنت التي من الزنا وارثة لأمها المذكورة . والله أعلم » أ.هـ .

ويمضي فضيلة الإمام في النصح للأمة وتقديم الحكم الشرعي لهم في كل واقعة ترفع إليه بما يجلي هذا المنهج الذي ينهي فيه عن التعسف في استخدام الحق ، وينصر فيه الضعيف بما يتفق مع أدلة الشرع الحنيف كما في الفتوى التالية :

٤.سئل : شخص تزوج بامرأة . وكلما أرادت أن تزور أبويها يمنعها زوجها ويدعي أن ذلك لا يجوز شرعًا فما الحكم ؟

فأجاب : « صرحوا بأنه لا يمنعها من الخروج إلى الوالدين في كل جمعة إن لم يقدرا على إتيانها على ما اختاره في الاختيار ، ولا يمنعهما من الدخول عليها في كل جمعة . كذا في التنوير وشرحه ، وهو ما اختاره في فتح القدير حيث قال وعن أبي يوسف في النوادر تقييد خروجها بأن لا يقدرا على إتيانها ، فإن قدرا لا تذهب وهو حسن . وصرح بأن الأخذ بقول أبي يوسف هو الحق إذا كان الأبوان بالصفة التي ذكرت ، وإلا ينبغى أن يأذن لها في زيارتهما في الحين بعد الحين على قدر متعارف .

أما في كل جمعة فبعيد ، فإن في كثرة الخروج فتح باب الفتنة خصوصًا إذا كانت شابة والزوج من ذوي الهيئات بخلاف خروج الأبوين فإنه أيسر . وهذا ترجيح منه لخلاف ما ذكر في البحر أنه الصحيح المفتى به من أنها تخرج للوالدين في كل جمعة بإذنه وبدون إذنه ، وللمحارم في كل سنة مرة بإذنه وبغير إذنه ، كذا في رد المحتار وصرح في البحر بأن الخروج للأهل زائدا على ذلك يكون لها بإذنه .

وعلى ذلك يجوز لهذه المرأة أن تخرج إلى أبويها في كل جمعة أذن لها الزوج أو لم يأذن ، ولها أن تخرج إلى المحارم كذلك كل سنة مرة بإذنه وبغير إذنه كما أن لها أن تخرج

إلى الأهل كلك كل سنة مرة بالإذن وبدونه. أما خروجها زائدا على ذلك للأهل فيسوغ لها بإذنه. والله أعلم.

٥ ـ كما يتجلى استيعابه لأعراف وعادات غير المسلمين، والقدرة على إفتائهم في وقائع تختص بهم حيث سئل: عن رجل تعهد لابنته بمبلغ من النقود بصفة دوطة حسب العوايد المسيحية في الزواج يدفعه لها عند زواجها لتشتري به عقارا لها على شرط أنه إذا مات قبلها يخصم من نصيبها في تركته. وقد تزوجت قبل أن تهتدي على العقار اللازم شراؤه، فاتفق الطرفان على بقاء مبلغ الدوطة تحت يد الوالد إلى وقت الطلب لشراء العقار. وقد استثمر الوالد هذا المبلغ ودفع لابنته ما استحق لها من ثمرته مدة ـ ثم ماتت البنت عن زوجها وولدها منه قبل أداء هذا المبلغ من والدها. فهل للزوج والولد أن يطالبا والدها بما يخصهما في المبلغ المذكور أو يجوز للوالد أن يدعي أن ابنته لم تملكه لعدم القبض قبل وفاتها؟

فأجاب فضيل الإمام بقوله: « حيث إن مبالغ الدوطة في عرف المسيحيين هي كمبالغ المهور عند المسلمين، فكما يلزم مبلغ المهر في ذمة والد الزوج إذا ألزم نفسه به فكذا يلزم مبلغ الدوطة في ذمة والد الزوجة متى ألزم به نفسه كما في حادثتنا، فالمبلغ الذي ألزم به نفسه الوالد في واقعتنا يعتبر دينًا لازمًا لذمته كسائر الديون التي تلزم الذمة ولا يعتبر من قبيل الهبة التي لا تتم إلا بالقبض، خصوصًا وقد شرع الوالد في استثمار المال باسم ابنته وقد قبضت مبلغًا من ثمرته، فلا ريب أن المبلغ يعتبر تركة لتلك البنت ولزوجها وولدها حق المطالبة بنصيبهما منه، وليس للوالد حق الامتناع من تأديته لهما والله أعلم ».

٦ ـ كما كان، رحمه الله، واسع الإطلاع شديد الشفقة بالناس أفتى في قضايا الزواج والطلاق وتطرق في فتاويه إلى مسائل الخلع الذي عمل به في القانون المصري مؤخرا حيث سئل فضيلته عن امرأة سألت زوجها أن يخالعها على براءة ذمته من

نصف مؤجل صداقها ونفقة عدتها وخالعها على ذلك وقبلت المرأة وقامت تطالبه بباقى المؤجل فهل ليس لها ذلك ، وسقط بالخلع المذكور ، حيث إن الخلع يسقط كل حق لكل واحد على الآخر فيما يتعلق بالنكاح كالمهر المقبوض أو غير المقبوض قبل الدخول أو بعده والنفقة الماضية كذلك ؟

فأجاب: «صرح علماؤنا بأنه إذا خالعها واشترطت عليه أن يدفع لها بعض المهر فإنه صحيح . وصرحوا أيضًا بأن الخلع لا يسقط إلا المسمى وهو الصحيح. وحيث وقعت المخالعة في حادثتنا على نصف المؤجل ونفقة العدة فهما اللذان يسقطان بسبب تسميتهما ، ولا يسقط باقى المؤجل ؛ لأن هذه التسمية أفادت اشتراطها عليه دفع باقي المؤجل ، أما النفقة فيما مضى قبل الطلاق فلا يسقط منها دون الشهر وما زاد على ذلك فإن لم تكن مقضيا بها ولا متفقًا على تقديرها ، ففيها خلاف معروف ويحق سقوطها في حادثتنا ؛ لأن الزوجة هي الطالبة للطلاق ، وهو طلاق خلع فلا يتصور فيه الحيلة من الزوج على إسقاط النفقة فتسقط إلا أن تكون قد تداينتها بإذن قاضي . وما صححوه من عدم سقوط النفقة المفروضة قد عللوه بحسبة اتخاذ الطلاق حيلة لسقوط حقوق النساء ، وهي في حادثتنا غير ممكنة ؛ لأن الزوجة هي الطالبة كما تقدم والله أعلم.

٧ ـ **كما كان، رحمه الله، بعيد النظر يعي الأمور ودوافعها وهذا يتضح في تعامله مع الفتوى التالية: فقد سئل: عن زوجة ارتدت عن الإسلام بقصد فسخ النكاح وعادت إلى الإسلام فورًا فهل يفسخ النكاح ردًا لقصدها** أو لا يفسخ ولا ينفذ قصدها . وإذا فسخ فما حكم الصداق ، هل يقرر على الزوج بالدخول أو يلزمها حيث إن الفسخ من جهتها وأن الزوج تركها من مدة ثلاثة شهور ولم يسأل عنها إلى الآن ؟

فأجاب: « قال في الفتح قد أفتى الدبوسي والصفَّار وبعض أهل سمرقند

بعدم وقوع الفرقة بالردة رداً عليها . وغيرهم مشوا على الظاهر ، ولكن حكموا بجبرها على تجديد النكاح مع الزوج . ولما كان الإجبار على النكاح غير متيسر ولا نفاذ له وكان كثير من الزوجات قد اتخذن دينهن لعبة يخلعنه كلما اردن التخلص من أزواجهن ، وهي وسيلة من أقبح الوسائل وجب ذلك إقفال هذا الباب في وجوههن ، خصوصاً مع تعذر إجراء أحكام الردة عليهن كما هو معلوم . فلهذا لا ينفسخ النكاح ولا تقع الفرقة بمجرد ردة الزوجة بل تبقى الزوجة في عصمة زوجها ، والمهر واجب عليه بالدخول لا يسقط بردتها كما هو ظاهر والله أعلم » .

٨ ـ **وكان يؤكد دائماً على أن الحق لا يضيع بالتقادم بل يظل صاحب الحق له المطالبة بحقه ولا يسقط حقه هذا بالتقادم أبداً فقد سئل : عن رجل صدر له حكم من مجلس بني سويف الملغى بتاريخ ٢٠ ذى القعدة سنة ٣٠٢** بإلزام محمد عبد الهادي بأن يدفع له مبلغ ٠١٦ , ٤٩٤٠، وقد بقى هذا الحكم بلا تنفيذ حتى ألغي المجلس لإفلاس المحكوم عليه ، ثم افتتحت المحاكم الأهلية بالوجه القبلى ، وفي ٥ ربيع الأول سنة ١٣١٩ أعلن هذا الحكم للمحكوم عليه لأجل تنفيذه فعارض المحكوم عليه بسقوط حكم المجلس الملغى لمرور مدة تزيد عن خمس عشرة سنة وبأن منع القاضي من سماع الدعوى بعد مرور الزمن نتيجة سقوط الحق وبأن القول بعدم سقوطه بتقادم الزمان هو أن صاحبه لو تمكن من الحصول عليه بدون واسطة القضاء لحل له أخذه ديانة . **فهل يوجد بأحكام الشريعة نص يسقط الحكم بمرور الزمن وهل ما قيل موافق للشريعة** . أفتونا في هذه الحادثة .

فأجاب : « من هذا السؤال يظهر أن المحكوم عليه لا يزال مقراً بهذا المبلغ الذي حكم به عليه ، غاية الأمر أنه يعارض بسقوط الحكم بالنظر لما ذكر **والذي يقتضيه الحكم الشرعي أنه مع الإقرار به يلزمه ؛ لأن الإقرار حجة معتبرة يعامل به المقر**

ولو طال الزمان ما دام لم يأخذ صاحب الحق حقه : لأن الحق لا يسقط بتقادم الزمان ولا بعدم أخذه مع التمكن فلا عبرة بما عارض به المحكوم عليه . والله تعالى أعلم » .

٩ ـ كما كان منهجه في الفتوى هو عدم انفصال الفرد عن مجتمعه ، ومعرفة الحكمة من العوائد المخالفة في ظاهرها لعادات المسلمين والعرب ، فقد سئل في فتوى عن عدة أشياء : أولا : يوجد أفراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعودة الفوائد عليهم هل يجوز ذلك . **ثانيا** : إن ذبحهم مخالف ؛ لأنهم يضربون البقر بالبلط وبعد ذلك يذبحون بغير تسمية . والغنم يذبحونها من غير تسمية هل يجوز ذلك **ثالثا** : إن الشافعية يصلون خلف الحنفية بدون تسمية ويصلون خلفهم العيدين ، ومن المعلوم أن هناك خلافًا بين الشافعية والحنفية في فرضية التسمية وفي تكبيرات العيدين . فهل تجوز صلاة كل خلف الآخر .

فأجاب ـ رحمه الله ـ : « أما **لبس البرنيطة** إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفرا . وإذا كان اللبس لحاجة من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك ؛ لزوال معنى التشبه بالمرة . **وأما الذبائح** فالذي أراه أن يأخذ المسلمون في تلك الأطراف بنص كتاب الله تعالى في قوله ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٥] ، وأن يعولوا على ما قاله الإمام الجليل أبو بكر العربي المالكي من أن المدار على أن يكون ما يذبح مأكول أهل الكتاب قسيسهم وعامتهم ويعد طعامًا لهم كافة . **فمتى كانت العادة عندهم إزهاق روح الحيوان بأي طريقة كانت وكان يأكل منه بعد الذبح رؤساء دينهم ساغ للمسلم أكله ؛ لأنه يقال له طعام** أهل الكتاب ولقد كان النصارى في زمن النبي ﷺ على مثل حالهم اليوم ، خصوصًا ونصارى الترنسفال من أشد النصارى تعصبًا في دينهم وتمسكهم بكتبهم الدينية ، فكل ما يكون من الذبيحة يعد طعام أهل الكتاب متى كان الذبح جاريًا على عادتهم المسلمة عند رؤساء دينهم ومجيء الآية الكريمة : ﴿الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ بعد آية تحريم الميتة

وما أهل لغير الله به بمنزلة دفع ما يتوهم من تحريم طعام أهل الكتاب ؛ لأنهم يعتقدون بألوهية عيسى وكانوا كذلك كافة في عهده عليه الصلاة والسلام إلا من أسلم منهم .

ولفظ أهل الكتاب مطلق لا يصح أن يحمل على هذا القليل النادر . فإذن تكون الآية كالصريحة في حل طعامهم مطلقًا ، متى كانوا يعتقدونه حلاً في دينهم دفعًا للحرج في معاشرتهم ومعاملتهم .

وأما صلاة الشافعي خلف الحنفي فلا ريب في صحتها ، ما دامت صلاة الحنفي صحيحة على مذهبه ، فإن دين الإسلام واحد . وعلى الشافعي المأموم أن يعرف أن أمامه مسلم صحيح الصلاة بدون تعصب منه لإمامه . ومن **طلب غير ذلك فقد عد الإسلام أديانًا لا دينًا واحدًا ، وهو ما لا يسوغ لعاقل أن يرمي إليه بين مسلمين قليلي العدد في أرض كل أهلها من غير المسلمين** . والله أعلم ».

ما ذكر قليل من كثير لا يفي بقدر هذه الرجل العظيم الذي جاهد بالكلمة والرأي والفكر ، وعاش حياته نموذجًا للعالم الرباني المنفتح على العالم المستنير لا سيما وكان يتقن الفرنسية وغيرها من اللغات وكان خبيرًا بعادات الشعوب .

والله نرجو أن يبارك لنا دائما في رجالنا وقادة الفكر والعلم في أمتنا الإسلامية بما يتحقق معه خير البلاد والعباد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



محمد عبده أستاذا مربيًا

للاستاذ الدكتور محمد الجوادى
استاذ القلب بجامعة الزقازيق
وعضو مجمع اللغة العربية

---

١ ـ لست أدرى هل أنا محظوظ بأن أتحدث عن هذا الجانب من محمد عبده، أم أنى قد وُضعت أمام أصعب المواقف ، ذلك أن محمد عبده نفسه كان يجد ذاته فى وظيفة الأستاذ المعلم إلى حد أنه كان يفضل هذه الوظيفة على ما وصل إليه من منصب قضائى عال وهو منصب المستشار فى محكمة الإستئناف، ولم يكن هناك فى ذلك الوقت أعلى من هذا المنصب إلا رئاسة محكمة الإستئناف . **وقد روى الأستاذ محمد كرد على فى كتابه « المعاصرون » أن اللورد كرومر كان يرى أن الأستاذ الإمام محمد عبده أولي الناس برياسة الوزراء في مصر لو أنه خلع زيه الأزهري ، لكن محمد عبده كان يؤثر على هذا كله وظيفة الأستاذية حتى بدون أن يكون لها راتب أو أجر ثابت** . وليس هناك جدال فى أن تضحية محمد عبده بمنصب الإفتاء وزهده فى مشيخة الأزهر ، لم يكن عن كراهية لمثل هذه المناصب المؤثرة بقدر ما كان حبًا فى الأستاذية وممارستها ، **وربما أن التاريخ نفسه حفظ لهذا الرجل مكانته التى تطلع إليها فلقبه فى حياته وبعد مماته باللقبين المحببين إليه وجمعهما معًا فى لقب واحد وهو « الأستاذ الإمام » ، وقدم الأستاذية على الإمامية** ، إيحاء بأنه لم يكن أستاذًا إلا بعد أن أصبح إماما ، وشتان بين أستاذية بحتة

وأستاذية تتحقق بعد الإمامة ، ذلك أن الأستاذية التى تتحقق بعد الإمامة يصبح صاحبها بمثابة الإمام بين الأستاذية ، كما يصبح بمثابة الأستاذ الذى لا يعلوه آخر، لأنه يتفوق على الآخرين . ومن عجائب القدر وللقدر حكمة .. بل حكم لا نعرفها ، أن بعض تلاميذ محمد عبده وتابعيهم حين أرادوا للمنصب الكبير الذى شغلوه وهو منصب مشيخة الأزهر لقبًا خاصًا يدل عليه ، آثروا أن يكون هذا اللقب هو الأستاذ الأكبر وكأنهم كانوا بعقولهم الواعية وغير الواعية يحتفظون للشيخ محمد عبده بلقب الأستاذ الإمام الذى هو أكبر من كل أستاذ أكبر .

٢ ـ لكل هذه المعانى وغيرها ، فإنى أحس نفسى عاجزاً عن أن أكون على قدر الندية للمهمة التى اختيرت لى بالحديث عن الأستاذ الإمام ، **فالعادة فى مثل حالتنا هذه أن يتحدث كل منا على الجزئية التى يتناولها ، فما بالنا والجزئية التى اخترتها هى الكلية الكبرى فى حياة رجلنا العظيم ، وقد مارسها فى القاهرة وبيروت .. فى باريس وفى الجزائر .. وفى دار العلوم ، وفى الألسن** .. فى الأزهر وفى خارج الأزهر.. فى الإفتاء ، وفى مجلس شورى القوانين .. فى الجريدة الرسمية وفى الصحافة .. فى مجلس الأوقاف ، ومجلس الأزهر.. فى جمعية العروة الوثقى، وفى الجمعية الخيرية الإسلامية .. فى كل هذه المحافل مارس محمد عبده أستاذية نادرة ذات ملامح مكتملة ، وسجايا مؤتلفة ، وآثار متسقة . **وقد كان أول من انتبه إلى ضرورة إنشاء مؤسسة للتعليم تخلو من ازدواجية التعليم الدينى والمدنى وترنو إلى الإفادة من مزايا التعليمين معاً** ، ومن حسن الحظ أنه أنشأ هذه المؤسسة من خلال **جمعيتنا هذه التى رأس مجلس إدارتها** ووجه جهودها فى اتجاه الإصلاح الإجتماعى المدنى الصادر عن روح إيمانية لا حدود لإخلاصها الحقيقى ، ولا لفهمها العميق .

٣ ـ والواقع أن الأستاذ الإمام محمد عبده لم يكن تربويًا تقليديًا ، وإنما كان رائدًا تربويًا بكل ما تعنيه الكلمة من مدلولات ودلالات .

وقد تمكن من وضع أكثر من خطة من خطط تطوير التعليم والتربية ، سواء على مستوى الإمبراطورية العثمانية ، أو على مستوى أقطارها فى مصر وسوريا الكبرى.

كما أنه تمكن من النهوض **بمؤسسات تربوية** إلى مستويات لم تكن معطياتها تؤهلها للوصول إليها .

وعلى صعيد ثالث فإن محمد عبده كان من أصحاب الطرق الخاصة فى التربية والتعليم .

وعلى صعيد رابع فإن محمد عبده كان أفضل مصمم للمناهج عرفته مصر فى عصره والعصور التالية .

وعلى صعيد خامس فقد نجح هذا الرجل العظيم فى تطوير البيئة التربوية فى أعرق مؤسسة تعليمية فى العالم الإسلامى تطويراً لم يكن من الممكن أن يتم على يد غيره ، بل أن كل التطويرات التى شهدتها هذه البيئة فيما بعد عهده كانت نتاجًا مباشراً لأفكاره وخططه وتوجيهاته .

وليس من شك فى أن هذه الجوانب الخمسة بل بعضها كان كفيلاً بأن يجعل صاحبها نموذجًا لعبقرية تربوية لا شك فيها .

وبالإضافة إلى هذه الأصعدة الخمسة التى نجح محمد عبده من خلالها فى أن يقدم شخصية التربوى الفذ ، كان الرجل فى مجموع نشاطه ومجمل أفكاره عالمًا مجدداً ، ومصلحًا إجتماعيًا ، ومفكراً سياسيًا ، ورجل دولة من طراز رفيع .

٤ ـ على أنه لا يمكن لنا الوقوف أمام محمد عبده التربوى دون أن نمر

بمحمد عبده المربى الذى أحبه تلاميذه ، وتعلقوا به ، وتعشقوه ، وساروا على دربه ، وتمثلوا شخصيته ، وجعلوه مثلاً أعلى ، بل ونموذجًا للاستدعاء والاستحضار عند كل معضلة فكرية .

لا يمكن أيضًا أن نتجاهل محمد عبده المربى كان قادرًا على اكتشاف العبقرية وتوجيهها وتنبيها ، ويكفى أن نذكر أنه هو الذى اختار سعد زغلول فى شبابه مساعدًا له ، وأنه مرّ بمديرية أسوان مرورًا عابرًا فرأى نباهة عباس العقاد فتنبأ له بما أصبح عليه بالفعل ، ويكفى أن نعرف أنه هو الذى أجاز كلا من الظواهرى ، والمراغى ، وعبد المجيد سليم بشهادة العالمية من الدرجة الأولى ، وأنه هو الذى عضد حسونة النواوى . ويكفى أيضًا أن نذكر أنه المربى الذى كان يجيد الإمتحان والتقييم على نحو ما كان يجيد التدريس والتدريب والتأهيل .

ولا يمكن أيضًا أن نتجاهل دور المربى فى شخصيته متمثلاً فيما بقى بعد رحيله من مؤلفات معلمة ، بل من مؤلفات مربية ، **بل إن أسلافنا المتنورين فى مديرية البحيرة حين أرادوا تخليد ذكراه خصصوا الأموال التى جمعوها لهدف تربوى وهو تمويل بعثة علمية إلى أوروبا يبتعث فيها خريجو الأزهر ، فكان من هؤلاء الدكتور محمد البهى عليه رحمة الله وهو أول مدير لجامعة الأزهر في طورها الحديث .**

٥ ـ ربما كان من حقكم علىّ بعد هذه المقدمة الطويلة أن أطلعكم على بعض ملامح الفكر التربوى لمحمد عبده ، وعلى بعض ملامح الإنجاز التربوى لمحمد عبده ، ولعلى أبدأ بأن ألفت نظركم إلى قدرته على اكتشاف الحقيقة فى أزمة التعليم الأزهرى فى عصره ، وهو الذى عانى منها فى صباه حتى كاد يترك العلم والتعلم والتعليم ، ثم نذر نفسه من أجل إصلاح نظام التعليم الأزهرى **واكتشف موطن التعقيد فيه ، وبلور هذا فى قوله :**

« إن أهل الأزهر يتعلمون كتبًا لا علمًا ، وغرامهم فى حل عبارات المؤلفين والمهمشين والمحشين » .

ولهذا السبب أعاد محمد عبده تنظيم التعليم الأزهرى بما يحقق تعلم العلوم لا تعلم الكتب ، وربما أننا بحاجة اليوم إلى أن نستهدى بمثل هذه الفكرة فى تعليمنا العام والجامعى على حد سواء .

وكانت لمحمد عبده نظرات صائبة فى أصول التربية وطرق التدريس ، وكان أبلغ من نبه إلى ضرورة المدرسة والتلقى على الأستاذة تنبيهًا نحن أحوج ما نكون إليه فى عصر أصبح يظن أن بالإمكان التقليل من دورها .

وكان يقول :

« إن الكلام المسموع يؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء ، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشارته ولهجته فى الكلام ، كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ، ويمكن السامع من أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه، فإذا كان مكتوبًا فمَنْ يسأل ؟ إن السامع يفهم ثمانين فى المائة من مراد المتكلم ، والقارىء لكلامه يفهم منه عشرين فى المائة » .

٦ ـ هكذا كان هذا الرجل العبقرى يبلور خبرات تربوية عالية فى عبارات لا تستعصى على إدراك أولياء الأمور الأميين الذين هم فى البداية والنهاية أصحاب القرار فى التوجيه التربوى لأبنائهم ، وهكذا نجح أيضًا فى خطاب المجموع والمجتمع فى وطن محتل يعانى من الأمية ، ولهذا نجح تمامًا فى أن يؤتى خطابه الحضارى والتربوى ثماره .

كان محمد عبده مختلفًا فى طريقه تدريسه وشرحه عن أستاذه جمال الدين الأفغانى ، **وللأستاذ أحمد أمين ملاحظة صائبة فى ذلك إذ يقول :**

« كان الشيخ محمد عبده يقرأ النص أولاً ويتفهمه ويفهمه ، ثم يفيض فى التعليق عليه ، وفى بسط الموضوع من عنده ، أما أستاذه جمال الدين فكان يشرح الموضوع بإفاضة ثم يقرأ النص ».

ولست بمستطيع أن أستغرق وقتكم فى الحديث عن مقومات منهجه ومكونات طريقته ، لكنى أريد أن أصل بكم إلى القول بأن هذا الرجل كان حريصًا كله على التعليم بمعناه الحقيقى ، **وربما أقفز بحضراتكم إلى الغاية القصوى من هذا المعنى بأن أشير إلى أن اختلاف محمد عبده مع زعماء الثورة العرابية كان ينحصر فى اهتمامه بتعليم الأمة أولاً حتى توكل إليها حقوقها لتكون أمينة عليها .**

٧. كان محمد عبده يرى أن التربية هى التربية الدينية التى هى أساس كل إصلاح وهو يقول: « الإنسان لا يكون إنسانًا إلا بالتربية ، وهى عبارة عن اتباع الأصول التى جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحكم والتعليم » .

وكان يرى أن التربية هى أساس كل التقدم ، وأن التقدم نتيجة تلقائية وحتمية للتربية الجيدة : « **مَنْ يرد خير البلاد والعباد فلا يسع إلا فى اتقان التربية، وبعد ذلك يأتى له جميع ما يطلبه بدون إتعاب فكر، ولا إجهاد نفس** » .

وكان يؤثر التربية على كل القوانين الوضعية مهما كانت قوتها وإنفاذها وهو القائل : « ليست القوانين التى تفرض العقوبات على الجرائم وتقدر المغارم على المخالفات ، هى التى تربى الأمم وتصلح شأنها ، فالقوانين لم توضع **فى جميع العالم إلا للشواذ والهفوات والسقطات ، وأما القوانين المصلحة فهى نواميس التربية الملية لكل أمة** » .

وكان يفهم التربية الحقيقية من منظور اجتماعى فيقول : « إذا تربى الإنسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره ، وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه »، ويقول : « إن التربية الحقيقية هى التى تعلم الإنسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من الأفراد فى جماعته ، فهى تعلمه مَنْ هو ؟ ومَنْ معه ؟ فيتكون بذلك شعور واحد وروابط واحدة هى ما يسمونه بالاتحاد » .

وكان الأستاذ الإمام يعتقد أن تربية العقول من أهم أهداف التربية : «لإخراجها من حيز البساطة الصرف والخلو من المعلومات وإبعادها عن

التصورات والاعتقادات الرديئة ، إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر ، والضار والنافع ، ويكون النظر بذلك سجية لها » .

٨. وكان يصل فى إيمانه بالتربية الرياضية إلى أن يصنفها على أنها من سمات النبوة.

وكان الأستاذ الإمام من أوائل من فرقوا بين مدلول التربية ومدلول التعليم :

«إن من المعلوم البين أن الغرض الحقيقى من تأسيس المدارس والمكاتب ، والعناية بشأن التعليم فيها إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن المتربى من نيل كمال السعادة أو معظمها ما دام حيًا وبعد موته » .

وكان كما رأينا فى الجملة السابقة يرى أن التربية عملية إنسانية لا يتوقف أثرها على النجاح فى الدنيا ، وإنما تتعدى ذلك إلى ما تمهد له من خلود صاحبها ومن سعادته فيما بعد هذه الحياة .

ولهذا كله كان محمد عبده يرى أن تربية العقيدة تأتى أولاً ويليها العلم إذ يقول :

« العقائد الدينية السليمة هى الأساس لكل ذلك ، فمن تتبع قوانين التعليم فى الممالك الأوروبية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها إلى ما يزيد على ست سنوات تقريبًا » .

كان الأستاذ الإمام حفيا بدور الموارد البشرية فى العملية التربوية ، وكان يجهر بآرائه فى هذا الصدد فى عصر كان يعلى من قيمة « النظام التربوى » والضبط والربط ، ولا يعول على الموارد البشرية كثيراً ، لكن الأستاذ الإمام كان متنبها إلى أهمية دور المعلم فى تربية العقل والروح قبل المعرفة :

« فمتى وجد الولد صغيراً فى حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله

ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم ، فلا ريب توثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، وتنطبع فى نفسه صور ما هم عليه » .

ومن هذا المنطق كان محمد عبده ينصح كل أب : « ألا يبعث أولاده وهم صغار لا يعقلون ولا يفهمون إلا ما يلقى إليهم من المعلم أو المؤدب إلى مدارس يتولى التعليم فيها والإدارة مَنْ ليس على مذهبه أو دينه » .

كما كان محمد عبده واعيًا **للرقابة المجتمعية والحكومية على المؤسسات التربوية** ، وكان يطالب المسئولين عن التعليم بمعرفة أخلاق النظار والأساتذة الذين وضع الأطفال فى كفالتهم ، والذين يديرون أمورهم ويرشدونهم إلى كمالهم ، إذ يجب أن يكونوا من أصحاب العقيدة الراسخة ، والأخلاق الفاضلة ، والأفكار المستقيمة ، والعفة ، والنزاهة ، والغيرة على مَنْ وكّل أمرهم إليهم ، وأداء ما أوجب فى ذمتهم » .

٩ ـ **كان محمد عبده يدعو إلى أن يكون المعلم بمثابة القدوة الصالحة لتلاميذه** حتى يكون حاله وكماله درسًا آخر يُعطى للتلاميذ كل يوم فيتطبع هذا الكمال فى نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات فى عقولهم .

وقد انتبه الأستاذ محمد عبده مبكرًا إلى أهمية تعليم البنات وكان يقول :

« إن من الجرم الصارخ أن تترك النساء المسلمات حبيسات ذلك السجن الضيق ، سجن الجهل والجور والجمود ، وهن اللاتى يأخذن على عواتقهن أشق تبعات الحياة اليومية ، أعنى تربية الأبناء وإعدادهم ليكونوا رجالا صالحين » .

« إن ما يجب أن تعلمه الفتاة من عقائد دينها وآدابه وعباداته محدود ، ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات ـ فى بيت فيه غنى ونعمة ـ يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال ، كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال » .

ومن أجل إقناع المجتمع بجدية دعوته هذه كان يتساءل :

« أى الأمرين أفضل فى نظر الإسلام : تمريض المرأة لزوجها إذا هو مرض ، أم اتخاذ ممرضة أجنبية تطلع على عورته وتكشف مخبآت بيته » ؟ .

وكان يردف هذا بسؤال آخر :

« وهل يتسير للمرأة أن تمرض زوجها أو ولدها إذا كانت جاهلة بقانون الصحة وبأسماء الأودية ؟ نعم قد يتيسر للكثيرات من الجاهلات قتل مرضاهن بزيادة مقادير الأدوية السامة ، أو بجعل دواء مكان آخر » .

١٠ ـ كان الأستاذ الإمام أكثر أهل عصره والعصور التالية حفاوة بتعليم اللغة العربية ، وكان يراها أساس الدين لأنها حياة المسلمين ، وحياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال ، فإصلاح اللغة إذاً لابد منه لأنها وسيلة لإصلاح الدين ، وقد قال فى خطبة ألقاها فى تونس :

« إن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذى صدهم عن فهم ما جاء فى كتب دينهم وأقوال أسلافهم ، وفى اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان » .

كان الأستاذ الإمام صاحب دعوة رائدة إلى تعليم الفنون وإلى تدريس الرسم والنحت والتصوير وغيرهما من الفنون الجميلة ، وكان يرى أنه يجب تحبيب تعليم الفنون وتعلمها إلى الناشئن ، وكان يفسر معنى الإقبال عليها من الغربيين ـ لمن يجهله ـ بأنها عندهم كالشعر عندنا ، وإنها لغة نفسية تفرق فى تعبيراتها بين أدق المعانى الشعرية التى لا يظهر التفرقة بينها وبين أسمائها وأوصافها » .

وليس من شك فى أن آراء محمد عبده كانت بمثابة أكثر العوامل التى ساعدت على نشأة « مدرسة الفنون الجميلة » فى مصر التى نشأت عقب وفاته مباشرة .

وقد تصدى لما لا يزال يشـاع من شبهة فى تعلم الفنون وتعليـمها ، وفى هذا المعـنى **قال الأستاذ الإمام فى فصل كتبه عام ١٩٠٣** : « يغلب عـلى ذهنى أن الشريعة الإسـلامية أبعد من أن تحـرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعـد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين ، لا من وجهة العقيدة ، ولا من وجهة العقل » .

ووصل به الغضب والاستنكار من محاجاة بعض الناس فى هذه الفكرة إلى أن قال:

« على أن المسلمين (يقـصد معارضـيه من معاصريه) لا يـتساءلون إلا فيما تظهـر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ، وإلا فـما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو مـا سماهم بعضهم من الأولياء وهـم ممن لا تـعرف لهم سيرة ، ولـم يطلع لهم أحد على سريرة » .

كان محمد عبده يدرك وينبه إلى ما للأدب من تأثير عظيم فى ترقية الذوق وبناء الشخصية ، والدلالة على عبقرية الأمة العربية الإسلامية ، ولهذا كان اهتمامه العظيم به ، وبعلوم البـلاغة العربيـة التى أقبل على شرح أمـهات الكتب فيـها ، وخاصة كتابا عبد القاهر الجرجانى : (أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز) .

١١ ـ **وكان الأستاذ الإمام محمد عبده يدعو مبكرًا إلى جعل العملية التعليمية غير قاصرة على حجرات الدراسة ، وأن يكون من أهدافها تزويد الناشئين** بالخبـرات المنوعة عن طريق الرحلات والزيارات ومشاهدة العالم والآثار ، وكان هو نفسه ينهج هذا المنهج ، وعنـدما زار صـقلية أبدى إعـجـابه بأهلهـا لمحافظتـهم على آثارها القـديمة ، وكان فى فـهمـه الحضارى مـتقـدمًا حتى على خلـفائه ، وهو القائل : «ليس فى ديننا شىء ينافى المدنية الحاضـرة المتفق على نفعها عند الأمم المرتقية إلا بعض مسائل الربا » .

وإلى الأستاذ الإمام يعود الفضل فى تنظيم العام الدراسى فى الأزهر ، فـقـد حدد بداية العام الدراسى ونهايته ، ومواعيد العطلات ، وأصبحت مدة الدراسة ثمانيـة أشهر بدلا من أربعة حـرصًا على وقت الطلاب من الضيـاع . ولم يترك

محمد عبده سنوات الدراسة بالأزهر مفتوحة بغير حد ، بل جعل أقصاها خمس عشرة سنة وقسمها إلى فترتين ، الأولى مدتها ثماني سنوات يعطى الخريج بعدها شهادة الأهلية ، وبعد أن يقضى الطالب أربع سنوات يمنح بعدها الشهادة العالمية .

وأدرك محمد عبده ما للمكتبات من أهمية خاصة فى التعليم ، فحرص على تزويد الأزهر بمكتبة تليق بمكانته العلمية ، وإليه يرجع الفضل فى تأسيس دار الكتب الأزهرية لتقف على قدم وساق مع دار الكتب الخديوية .

وإليه يرجع الفضل فى هدم نظرية تعليمية قديمة شجعها الأزهر لبعض الوقت كانت تقول إن هناك علومًا تعلم ، وعلومًا لا تعلم ، فقد قرر أن كل العلوم يجب أن تعلم ، إلا ما يتخذ شكل العلم وليس بعلم كالسحر والشعوذة.

١٢ ـ دعى محمد عبده للتدريس فى المدرسة السلطانية فى بيروت ، فأصلح مناهجها ، وارتقى بها من مدرسة أولية إلى مدرسة عالية ، وقد درس فيها التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الإسلامى والفقه الحنفى ، ولم يقتصر على التدريس فى داخل المدرسة السلطانية ، بل كان يفسر القرآن فى مسجدين من مساجد بيروت ، وكان يقيم فى بيته ندوة كانت تعمر بالسامعين للحديث فى العلم والأدب ، وقد شرح فى تلك المرحلة نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذانى ، بل كان من آثار دروسه فى بيروت كتاباه الشهيران : (رسالة التوحيد) ، و (شرح البصائر النصيرية فى المنطق) . كذلك كان يحرر المقالات الداعية إلى إصلاح العالم الإسلامى فى شتى نواحى حياته فى صحيفة (ثمرات الفنون) . وفى هذه الفترة الخصبة التى قضاها فى بيروت تبلورت نظرياته الإصلاحية للتعليم فى البلدان الإسلامية فوضع لائحتين فى إصلاح التعليم الدينى فى مدارس السلطنة العثمانية بمناسبة ما أشار إليه السلطان عبد الحميد بتشكيل لجنة برئاسة شيخ الإسلام لإصلاح المناهج فى المدارس

الإسلامية ، وقـد رفع محمد عبده إحـدى اللائحتين اللتين وضعهـما إلى شيخ الإسلام فى الآستانة :

وفي هذه اللائحـة : قرر بوضوح أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصول الدين ، وأن ذلـك قد أخر أخلاقهم . ورأى أن العـلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الدينى الذى رسم له الخطط الجديدة .

أما اللائحة الثانية فقد تقدم بها إلى والى بيروت ، وقد وصف فيها سوء حال التعليم فى سـوريا الكبرى من حيث توزعهـا بين الأهواء السياسية نتـيجة انتشـار المدارس الأجنبية فـيها ، واقـترح نشر المدارس الوطنيـة وإصلاح مناهج التعليم الدينى .

١٣ ـ **كان محمد عبده عند عودته إلى وطنه بعد الفترة التى قضاها فى المنفى ، طموحًا إلى أن يتولى وظيفة المعلم على أى مستوى ، لكن الخديو عباس حلمى** لم يسمح له بالعـودة إلى التـدريس الذى كان يـعشـقـه ويرى فيـه أسـاس إصلاح الأمـة الإسلاميـة . وكانت للخديو مبـرراته من الخوف من تأثير أفكار الأسـتاذ الإمام الإصـلاحيـة وآرائه على شـبـاب الأمة وهى آراء كـفـيلة بتـجديد روح الحـرية والتحرر أو التمرد ، ولهذا فقد عينه قاضيًا أهليًا فى محكمة بنها ، ثم الزقازيق ، ثم عابدين ، ثم عين مـستشاراً فى مـحكمة الاستئناف . وقـد ظل محمـد عبده ضيق الصدر بإبعـاده عن التعليم ، وكان يقول : « ما خُلقت لأكون قـاضيًا ، بل لأكون معلمًا ، وقد جربت نفسى فى التعليم ونجحت » .

ولـم ينس محمد عـبده الإصلاح التربوى فى خضم عمله بـالوظيفة بعد عودته من منفاه ، فقد عكف على كتابة تقرير بعد عودته من المنفى ضمنه وجوه إصلاح التعليم .

وقد كان من ذكاء محمد عبده أن يحصر جهود الإصلاح فى ثلاث جهات لا شأن للإنجليز بالتدخل فيها وعرقلتها ، وهذه الجهات الثلاثة هى: الأزهر ، والأوقاف ، والمحاكم الشرعية . وبدأ بالأزهر فوضع تقريراً شاملاً لوجوه إصلاح التعليم فيه ، ووافق الخديو عباس الثانى على هذا التقرير وصدر (١٨٩٥) قرار بتشكيل مجلس إدارة الأزهر ، واختير الشيخ محمد عبده عضواً فيه ، ولكنه قوبل بحركة مناوئة من جانب المحافظين الذين رأوا فى التجديد كفراً ، وخاصة حين تجاوز محمد عبده جوانب الإصلاح الشكلية كتحسين حال الأساتذة ، وتنظيم مساكن الطلبة ، والإشراف الصحى عليهم ، إلى وضع مناهج جديدة للتدريس ، واختيار الكتب المقررة ، وتعديل طرق التدريس ، والحق أنه كان يتمنى أن يصلح الأزهر إصلاحًا شاملاً يقضى على آثار الجمود والتخلف فيه ، **ولكن على الأقل نجح فى إدخال العلوم الحديثة فى الدراسة ، كما نجح فى منع قراءة الحواشى فى الأقسام الأولية .**

١٤ ـ كانت دروس محمد عبده فى تفسير القرآن التى كان يلقيها فى بيروت فى مسجدين ، وفى أحد مساجد القاهرة ، وفى الأزهر ، وفى أثناء زيارته للجزائر ، وفى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التى كان راعيًا لنهضتها ، مثالا لما كان يريده فى التعليم الدينى ، **فقد كان يعنى فى تفسيره بأمور العقيدة وما دخل عليها من فساد فى عصور التخلف والجهل ، كما عنى بالمعرفة الحديثة ، ليؤكد عدم وجود فجوة بين العقيدة الصحيحة والعلم الحديث ، وحين كان** فى وسع الأستاذ فى الأزهر أن يختار ما يدرسه ، اختار محمد عبده أن يدرس المنطق والفلسفة والتوحيد ، وكان يقرأ مع بعض طلبته (**تهذيب الأخلاق**) لمسكويه ، و(**تاريخ المدنية فى أوروبا وفرنسا**) للكاتب الفرنسى فرانسوا جيزوا، وكان قد

عـربّه حنين نعـمة الله خـورى وسمـاه (**التـحـفـة الأدبيـة فى تاريخ تمدن الممـالك الأوروبيـــة**) وحين تصـدى محمـد عبده لتدريـس التاريخ فى دار العلوم **درّس مقدمة ابن خلدون**.

١٥ ـ بقى أن أحدثكم عن بعض جـهود محـمد عبده فى تعليم نفـسه ، ولن أحـدثكم عن أنه علم نفـسـه فى بداية حيـاته ، بعـدمـا يئس من الأسلوب الأزهرى فى التعليم ، ولا عن أنه علـم نفسه القوانين المدنيـة حتى نبغ فيها نبوغًا عظيمًا ، **لكننى أحب أن أحدثكم عن أنه أتقن الفرنسية بعدما تعلمها تعلمًا ذاتيًا وترجم عنها كتاب التربية للفيلسوف الإنجليزى هوبرت سبنسر الذى التقى به من قبل** فى أثناء زيارته لانجلترا وأعجب كل منهما بالآخر.



محمد عبده مصلحاً اجتماعياً

للاستاذ الدكتور/ سيد عبد الستار ميهوب
أستاذ الفلسفة الإسلامية
وكيل كلية دار العلوم بجامعة المنيا

نرى ضرورة أن تنحسم مادة الخلاف حول الأستاذ / الإمام / الشيخ محمد عبده ، إنصافًا للرجل ، واعترافًا بفضل كبير ندين له به ، **فهو لم يقل ما قال، ولم يفعل ما فعل، ولم يترك ما ترك، بل حتى لم يتراجع عما تراجع عنه إلا وقد وضع نصب عينيه مصلحة الأمة بمفهومها الواسع: الأمة المصرية، والأمة العربية، والأمة الإسلامية** .

يمكننا رصد عدة محاور أقام عليها محمد عبده مشروعه الإصلاحى الذى كان ـ فى جوهره ـ محاولة صادقة لضخ دماء جديدة فى شرايين الأمة ، ولهذا تعددت اهتماماته بتعدد النواحى التى رأى غفلة الأمة فيها :

المجتمع: أسسه وغاياته:

إن الناظر فى التراث الذى خلّفه لنا محمد عبده يلمح أنه ـ عبده ـ قد **أخذ على عاتقه مهمة تفعيل الخطاب الإصلاحى المصرى / العربى / الإسلامى، رغم أن هذا الإصلاحى قد تحول على يد الأتباع إلى إعاقى** ! ! .

وقد اختلف الباحثون فى حقيقة الإصلاح الذى تغياه محمد عبده :

فالبعض رآه **إصلاحًا أخلاقيًا مستمدًا** من الدين ومعتمدًا عليه [1] ، والبعض الآخر رآه **إصلاحًا اجتماعيًا يشمل** الحياة الاجتماعية بكل روافدها ،

---

(١) فى اعتقاد الأستاذ الإمام أهمية الأخذ بالتربية بوجه عام ، والدينية منها بوجه خاص طريقًا للإصلاح .. **جاء قوله « عامل الدين هو أقوى العوامل فى إصلاح العامة والخاصة. وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم** » محمد عبده : رسالة التوحيد . تحقيق . محمود أبو رية . دار المعارف . القاهرة . ط ٥ ١٩٧٧ م ص ١١٤ .

وجاء قوله « إن قوائم الدولة مستقرة على أديم الدين ، وكلما قوى الدين فى الأفئدة ظهرت آثاره فى الأعمال ، وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة » محمد عبده : الأعمال الكاملة . تحقيق د. محمد عمارة . دار الشروق . القاهرة ط١ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ج٣ ص ١٠١ .

وجاء قوله « أنفس المصريين أشربت الأنقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها ، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التى أودعه فيها ، فلا نبت ، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه » المصدر السابع . ج٣ ص ١١٣ .

وجاء قوله : « إن الدين وضع إلهى ، وهو أو ما يمتزج بالقلوب ويرسخ فى الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها ، وكأنما الإنسان فى نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده ، ومايطرأ على النفوس من غيره فهو نادر وشاذ ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات ، بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح فى البشرة بعد الاندمال » محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدينة . تحقيق ودراسة د . عاطف العراقى دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ١٩٩٨م ص ٥٠ ، ٥١ وانظر أيضا ما كتبه استاذنا الدكتور عاطف عن هذه القضية فى كتابه القيم « العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر » المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت ط١ ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ص١٣٥ : ١٦٤ .

ولعل ما يذهب إليه الأستاذ الإمام أن يكون متباهيا مع الاعتقاد بأن الاعتماد على الإسلام ممثلاً بالاساس فى القرآن والسنة النبوية المطهرة ، هو الطريق الاصوب لتغيير المجتمع نحو الافضل ، والا فستفشل أى محاولة تريد النهضة الاجتماعية للأمة العربية / الإسلامية ، من حيث أن الدين أمر سار فى الكيان الجمعى للأمة ، ما يجعله ـ الدين ـ المكون الأساسى لخلق جيل جديد عبر فهم جديد للدين ووظيفته .

تربوية وسياسية وتعليمية [1]، ولهذا كان المدخل الإجتماعى ضرورة لفهم المشروع الإصلاحى عند محمد عبده ومنهجه ، ما يبين الخلاف ـ والإختلاف ـ بينه وبين أستاذه جمال الدين الأفغانى [2] .

وتكمن أهمية البعد الإجتماعى عند عبده فى نظرته ، والمفكرين عامة ، إلى الإنسان من حيث هو كائن إجتماعى ، ونقصد بـ « الإجتماعى » ، أن الإنسان مدنى بطبعه !! أى ، لابد من الاجتماع الذى هو المدنية فى الاصطلاح، فالله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل ذلك الغذاء ، فلابد من اجتماع أبناء الجنس فيحصل التعاون وبه يحصل قدر الكفاية من الحاجة من الطعام ، وكذلك الحاجة إلى الدفاع عن النفس ، فقدرة الواحد محدودة ، ولابد من الاستعانة بأبناء جنسه والتعاون على ذلك كله بهم ، فإذا كان التعاون حصل له السلاح للمدافعة . فإذا هذا الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى ، وإلا لم يكمل وجودهم [3] .

---

(١) د.زينب الخضيرى : التطور والإصلاح عند محمد عبده . الكتاب التذكارى عن الأستاذ الإمام محمد عبده . بإشراف الأستاذ الدكتور عاطف العراقى . المجلس الأعلى للثقافة . مصر ١٩٩٥م ص٨٠ وما بعدها .

(٢) كان جمال الدين الأفغانى أكثر تقدمًا فى القضايا الإجتماعية ، بينما كان محمد عبده أكثر تقدمًا فى القضايا العقلية والعلمية .

(٣) ابن خلدون : المقدمة . ضبط وشرح وتعليق د. محمد الإسكندرانى . دار الكتاب العربى. بيروت ط٢ ١٩٩٥ م ص ٤٨ ،٤٩ وإنظر أيضًا ، محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص٩٠ وما بعدها .

وكثيراً ما نجد مفكرين معاصرين يعارضون سلوك الزاهدين وآراءهم التى تقلل من أهمية الاحتكاك بالآخرين والأخذ عنهم ومعاملتهم ومخالطتهم ، ويرفضون السلوك الذى ينادى بالبعد عن الناس وعدم التعاون معهم[1] فهؤلاء الزهاد « لا يحصل لهم شىء من الفضائل الإنسانية التى اشترط لحصولها مخالطة الناس لهم ومساكنتهم فى المدن ، وبذلك تظهر ملكاتهم الإجتماعية ، أما أولئك المنعزلون عن الناس ، فإن ملكاتهم تعد باطلة ، لأنها لا تتوجه إلى خير أو شر . **ومن هنا كانت ضرورة أن يحيا الناس فى مجتمع ، وأن تقوم بينهم علاقات ، وعلى هذا الأساس كان قيام المجتمعات الإنسانية منذ عصورها الأولى »** [2] .

المجتمع : أفراده .. غايات أم وسائل ؟ :

لما كان الإنسان الفرد ـ عند الأستاذ الإمام ـ نواة المجتمع ، كان لابد من

---

(١) قرأنا فى ذلك ـ مثلاً ـ قول بعضهم مبرراً عدم الزواج ، والزواج أمر فطرى لولاه ما قامت المجتمعات « لو قدرت أن أطلّق نفسى لطلقتها »

انظر . ابن عبد ربه : العقد الفريد، شرح وضبط . أحمد أمين وآخرين . تقديم د . عبد الحكيم راضى . الهيئة العامة لقصور الثقافة . مصر . ٢٠٠٤م ج٦ ص ١٢٠ .

(٢) د. على عبد الفتاح المغربى : الفكر الاجتماعى عند الإمام محمد عبده . الكتاب التذكارى ص ١١٣ وما بعدها .

وانظر محمد رشيد رضا : الخلافة أو الإمامة العظمى ، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٤١هـ ص ١١٠ وما بعدها . وانظر نقداً للسلوك غير الصحيح عند بعض الزهاد د. أبو الوفا التفتازانى : عن ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ط ٢ ١٩٦٩م ص ٧٦ وما بعدها . وانظر لنا ، الولاية عند عبد الكريم الجيلى . دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع .القاهرة ١٩٨٨م ص ٧٢ وما بعدها.

النظر فى سلوكه ، إذ السلوك يعد المرآة العاكسة لأفكار المرء ومعتقداته ... أو هكذا يجب أن يكون [(١)] .

جبل الإنسان على الأثرة [(٢)] والأنانية ، ولهذا جاء النعى القرآنى

---

(١) نقرأ في ذلك تفسيرًا لقول الله تعالى ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [سورة النساء آية:١٢٣] « ليس شرف الدين وفضله ، ولا نجاة أهله به أن يقول القائل منهم : إن دينى أفضل وأكمل ، وأحق وأثبت ، وإنما عليه إذا كان موقنًا به أن يعمل بما يهديه إليه ، فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمنى والغرور ، فلا أمر نجاتكم إيها المسلمون منوطًا بأمانيكم فى دينكم ، ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطًا بأمانيهم فى دينهم ، فإن الأديان ما شرعت للتفاخر والتباهى ، ولا تحصل فائدتها بمجرد الإنتماء إليها والتمدح بها بلوك الألسنة والتشدق فى الكلام ، بل شرعت للعمل » أنظر . محمد عبده : الأعمال الكاملة . ج٥ ص٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وقد سبق لكاتب هذه السطور أن عتب على المسلمين تفرقتهم بين دينهم وبين العمل الجاد المثمر ، حتى حُسب ـ باطلاً ـ أن العمل من غير ضروريات الإسلام . فقال : لاحظ فى حياة المسلم ـ المعاصر تحديدًا ـ لا مبالاة.وربما احتقار لما يعرف اجتماعيًا بـ « الواجبات العامة » ؛ فأنت ـ مثلاًـ قد ترى مسلمًا يواظب على صلاته فى مسجد الحى ، أما نظافة ما حول المسجد ، أما نظافة الحى نفسه فأمر لم يخطر له على باله ، لأنه **فرق بين ما هو إلهى وما هو إجتماعى، ناسيًا أو متناسيًا ، أن الإلهى لم ينزل إلا لتنظيم ما هو اجتماعى** ، انظر د. سيد عبد الستار ميهوب : تحليل كتاب « الوهم والحقيقة فى الحركة الإسلامية المعاصرة » دراسة نقدية ضمن الكتاب التذكارى المزمع إخراجه عن الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا ، وانظر أيضًا ،. شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ، تقديم رشيد رضا . دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع ، مواضع مختلفة . وأيضًا انظر د. زكى نجيب محمود : قيم من التراث . دار الشروق . القاهرة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م مقال « نعم إسلامنا يكفينا . ولكن كيف » ص ١٣٣:١٤٢ ، ومقال « حرية الذين يعلمون » ص٢١٧:٢٢٤.

(٢) أثرَ : فضّل نفسه على غيره فى النصيب ، والأثرُ : الرجل يستأثر على غيره بالخير . انظر المعجم الوسيط . طبعة مجمع اللغة العربية . القاهرة ط ٣ج١ ص٥ مادة « أثِرَ » .

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[1] وقد شدد الأستاذ الإمام فى الأخذ على هذا الخلق غير القويم ، فقال مفسراً : إنكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم ، وتشتدون فى أكله حتى تحرموا صاحب الحق من حقه (وتحبون المال) مطلقًا ميراثًا كان أو غيره (حبًا جمًا) أى كثيراً . ولو كنتم ممن لم يبال بالدنيا وأهلها لتركتم ما يترك الأموات لأبنائهم وفقراء أهلهم ، ولما شاركتموهم فى شىء لا كسب لكم فيه ولا دخل لأعمالكم فى تحصيله ، ولما ازداد حبكم فى المال إلى الحد الذى أنتم عليه ، فشرهكم إلى المال ، واشداد شهوتكم إلى اللذات ، وانصراف أنفسكم إلى التمتع بها ، وشعوركم بمقدار الحاجة إلى المال فى تقويم شؤونكم ، ثم قسوة قلوبكم ، وشلل وجدانكم إلى حد لا يألم لحال المسكين ، ولا ينظر إلى ما تجرإليه الاستهانة بشؤون اليتامى من فساد أخلاقهم وتعطيل قواهم ، وانتشار العدوى منهم إلى معاشريهم ، وما يصيب الأمة من ذلك . كل هذا منكم دليل على أن ما تزعمونه من اعتقاد بإله يأمركم وينهاكم ، وأن لكم دينًا يعظكم ، زعم باطل ، وإذا غششتم أنفسكم بدعوى أنكم تتذكرون الزواجر وتراعون الأوامر مع بقائكم على ما وصف من حالكم ، فإنما ذلك منكم مقال لا تصدقه فعال[2] .

وإذا كانت الأثرة أو الأنانية من الصفات المذمومة التى تهدد العلاقة بين

---

(١) سورة الفجر الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) محمد عبده : الأعمال الكاملة . ج٥ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ . ويذهب جار الله الزمخشرى فى تفسيره إلى قريب من هذا المعنى ، ما يبرز البعد الأعتزالى عند الشيخ الإمام ، ذلك البعد الذى جعله ، الشيخ ، أكثر ميلاً إلى الجانب العقلى فى فهم الدين والعمل بتشريعاته بحسب التعليل والتأويل .

انظر الزمخشرى : الكشاف . دار المعرفة . بيروت ج٤ ص٢١٠ وما بعدها . وانظر ما كتبناه بهذا الخصوص فى الكتاب الذى صدر فى احتفالية الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة احتفالاً بذكرى الشيخ مصطفى عبد الرازق فى إبريل ٢٠٠٣ م ص ١٨٩ وما بعدها .

الفرد والآخرين ، ومن ثم البنيان الاجتماعى ، **فإن الأستاذ الإمام دعا إلى استبدال «المحبة» بها لتحسن علاقة الإنسان بالأغيار، ذلك لأن الأنانية تعد مدخلا إلى تضخيم الأنا ، ما يعنى، ضمنا، نفى الآخر معنويا أو ماديا** ، ووضعه تحت لافتات مشبوهة ، بينما تبقى المحبة مدخلاً للإنسان إلى عالم التسامح والشعور بالآخرين ، لا من حيث أنهم وسائل ، بل من حيث أنهم غايات .

وقد عرف تاريخنا النوعين معاً ، فحين سادت معانى التسامح ساد معها الاعتزاز بالنفس مقروناً بالتواضع للآخرين ، فكان : رأينا صوابا يحتمل الخطأ. وكان : رأينا هذا هو أفضل ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأفضل منه قبلناه . وكان : كل إنسان يؤخذ منه ويرد ما عدا صاحب هذا القبر . وأشير إلى قبر الرسول ﷺ . وكان: كلما شدد المسلم قبضته على عقيدته الإسلامية، ازداد شعوره بالآخرين، لا من حيث هم وسائل تستغل ، بل من حيث هم غايات فى أنفسهم.

لكن حين سادت معانى الأنا المتضخمة سادت معها قيم نفي الآخر ومفاهيم التهميش والإقصاء والاستبعاد ، فكان : منشور المأمون ، ومنشور ابن عياش ، وجناية خالد القسرى .. وغير ذلك كثير[1] .

---

(١) انظر فى ذلك ، على سبيل المثال ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . حيدر أباد الدكن ج٨ ص١٨٨ . الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، دار الكتب العلمية . بيروت ج١٢ ص١٦٦ : ١٨٠ . جمال الدين القاسمى : تاريخ الجهمية والمعتزلة ، مؤسسة الرسالة . بيروت ط١ ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ص ٣٧، ٣٨ ، ٦٥ : ٦٩ . زهدى جار الله : المعتزلة . مطبعة مصر . القاهرة . ١٩٤٧ م ص ١٩٠ وما بعدها ، د. زكى نجيب محمود : قيم من التراث . دار الشروق . القاهرة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ص١٥٤: ١٦٣ ، طارق البشرى : الحركة السياسية فى مصر ط١ ص١٨٣ وما بعدها ، د. رفعت السعيد : التيارات السياسية فى مصر ، شركة الأمل للطباعة والنشر . القاهرة ط١ ٢٠٠١ م ص١٤٨ وما بعدها ، د. عبد العظيم رمضان : جماعات التكفير فى مصر . الأصول التاريخية والفكرية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٩٥م مواضع مختلفة ، وكتابنا : القرآن والنبوة عند القاضى عبد الجبار . دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ط ١٩٩٦ م ص٩٥ : ٩٠ .

إن الإنسان : لا يعيش إلا فى جملة ما وهب من قوة النطق ، فلم يخلق الله لسانه مستعدًا لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة إلى التفاهم ، وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهما عن الآخر(١) .

ولما أسس محمد عبده نظرته إلى الفرد. من حيث كونه عضواً فى جماعة. على المحبة ،كان على وعى تام بأن المحبة ستكون دافعاً إلى :

- اشتداد الترابط بين الفرد والآخرين .
- إدخال السكينة إلى القلوب منفردة كانت أو مجتمعة .
- العمل المبنى على الإتقان ، لكونه ـ العمل ـ رسالة لا مجرد وظيفة تؤدى آليًا.

المحافظة على البنيان الاجتماعى ، ذلك أن كل أفراد المجتمع أصبحوا متوادين متراحمين ، حتى لو اختلفوا .. فخلافهم لا يؤثر فى كونهم جميعًا ، أبناء مجتمع واحد (٢) .

---

(١) محمد عبده : الرسالة . ص٩١ .

(٢) جاء فى ذلك قول الرسول ﷺ « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفعهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » انظر : الإمام مسلم : صحيح مسلم . تحقيق . محمد فؤاد عبد الباقى . دار إحياء التراث العربى . بيروت ج٤ ص١٩٩٩ . ابن كثير : تفسير ابن كثير . دار الفكر ، بيروت ١٤٠١ هـ ج٨ ص٢٢٧.
وانظر تفصيلاً لقيمة أدب الحوار والاختلاف ما يحفظ على المجتمع بناءه وأمنه ، وعلى أفراده أصره المودة والرحمة : ابن الجوزى : المنتظم ج١ ص١٧٢. جمال الدين القاسمى: تاريخ الجهمية والمعتزلة . ص ٦٧وما بعدها . د. محمد عمارة : المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٧٢ م ص٦٠ وما بعدها ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة الاعتزالية . القاهرة ١٩٨٤م ص٥٨٢ وما بعدها ، وانظر كتابنا « القرآن والنبوة عند القاضى عبد الجبار . ص٨٥ وما بعدها .

يقول محمد عبده: لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخليقة فى غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، فالمحبة عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل ، فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب ، وهى الدافع لكل المتحابين عل العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظًا لنظام الأمم وروحًا لبقائها [1] .

وبقياس الخلف ، تكون المشاعر المذمومة فى الإنسان ، كالحقد والكراهية والأنانية ، من عوامل هدم المجتمع وانفراط عقد الترابط المفترض بين أفراده ، ما يعنى أن يتحول العمران البشرى إلى وجود متسيب منفلت ، لا قوة فيه ولا تماسك ، بل صراع متسارع ، وحقوق ضائعة بين مظلوم وظالم ، ومسائل أو مصالح ، تقضى بين حاقد وحاقد ، وإسراف فى استخدام السلطان ، وبطش فى استخدام القوة . فإن « من أوتى القوة فسخرها لسلطان الشهوة فتناول ما ليس له ، ومنع الحق أهله ، فقد عمل على تبديد نظام الجماعة ، وتقطيع روابط الألفة بينهم ، وحمل كل نفس على اتخاذ الأثرة قاعدة عملها ، ومصدر سيرها فى سعيها [2] ، فيكثر الفساد ، إذ لا معنى للفساد فى شىء إلا اختلال نظامه وهلاك قوامه ، ومتى تحكمت الأثرة فى أنفس قوم ، وغفل كل واحد منهم على

---

(١) محمد عبده : الرسالة . ص ٩٢ .

(٢)هناك أمثال ترددها العامة وقت الانفلات الاجتماعى وضياع قيمة التآخى والتكافل واحترام الفرد الآخر .. منها : إن جالك الطوفان حط ابنك تحت رجليك . نفسى نفسى . يا روح ما بعدك روح . الغير ما فيه خير . كُل قرصك والزم خصك . انظر فى ذلك . أحمد تيمور باشا : الأمثال العامية . مركز الأهرام للترجمة والنشر . القاهرة ط ٤ ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م مواضع مختلفة .

ارتباط وجوده بوجـود الآخر ، عمل بعضهم لإهلاك بـعض ، وانتهى الأمر بهم إلى الانمحاء من سجل الأمم القائمة »[1] .

هذا حال الفـرد ـ نواة المجتمع ـ حـين تأخذه المشاعـر المذمومة من حـقد وكراهية وحسد .. وغيرها ، أما الإنسـان المأخوذ بالمحبة فيـعدّ همزة وصل بينه وبين أفـراد مجتـمعـه ، ما يؤدى ـ ضـرورةً ـ إلى شعـور جمعى بـأن « الواحد للكل، والكل للواحد » فيـعطف الغنى على الفقير ، ويرحـم القـوى الضعيف ، ويوقر الصغير الكبير ، فيتماسك المجتمع ويترابط أفراده[2] .

إننا نعتقد أن أهم ما يجب أن يتزود به الإنسان ليصح كونه لبنة صالحة فى المجتمع الإسلامى ، هو الجانب الخلقى بوجه عام ، والتواد والتعاطف بوجه خاص ، لأن لكل مجتمع سمة أو سمات تميز أفراده عن غيرهم من أفراد المجتـمعـات الأخرى ، ونرى أن أهم ما يميز الفرد المسلم هو الجانب الأخلاقى الذى يعد التواد الدعامة الأساس فى تكوينه ، ومن ثم فى سلوكه ، صدوراً عن **حديث رسول الله** ﷺ « المؤمن إلف مـألوف ، ولا خيـر فى من لا يألف » [3] مـا يعـد دلالة على أن الجانب الخلقى ـ عامة ـ هو الضابط القيمى لحركات الفرد المسلم وسكناته .

إن سـورة « الفـجـر » تعد ـ برأينا ـ دالةً بمـفردها على أهميـة قيمـة التواد والترابـط والتراحـم بين الفـرد والآخرين ، فالـسورة الكريمـة تقدم لنا التـصور

---

(1) محمد عبده : الأعمال الكاملة . ج ٥ ص ٣٨٦ .

(2) د. على المغربى : الكتاب التذكارى ص٦١٩ .

(3) عبد الرؤوف المناوى : فيض القدير . المكتبة التـجارية الكبرى . مـصر ط ١٩٩٥م ج٦ ص٢٥٣ . محـمد القـضاعى : مـسند الشهاب . تحـقيق حـمدى عـبد المجيـد السلفى ، مؤسسة الرسـالة بيروت ط٢ ١٤٠٧هـ/ ٧-١٤هـ / ١٩٨٦م ج١ ص١٠٨ . أبو حاتم البستى : المجـروحين . تحقيق محـمود إبراهيم زايد ، دار الوعى ، حلب ، ج ٢ ص٧٩ . شمـس الدين الذهبى : ميـزان الاعتـدال فى نقد الرجـال ، تحقـيق على محـمد مـعوض وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ ١٩٩٥ م ج٥ ص٣٠٠ .

الإلهى للفرد المرجو حين يؤسس مجتمعه قيمه بحسب مفردات الإسلام وتشريعاته ، وأهمها المحبة والتواد والرحمة ، ذلك بعد أن تقدم لنا ، السورة الكريمة ، صورًا لحضارات تعبر عن غير التصور الإسلامى ؛ فعاد وثمود وفرعون ، نماذج لإقامة أخلاق الفرد ـ والمجتمع ـ على غير ما يريده الإسلام للفرد المسلم . ولذلك فحين لم تقم هذه الحضارات ببناء الفرد على قيم النبل والتعاطف والرحمة يمارسها فى علاقاته بالآخرين ، **كان الوصف القرآنى** ﴿ الَّذين طغوْا في الْبلاد * فأَكْثرُوا فيها الفساد * فصَبَّ عليْهمْ ربُّك سوْط عذاب * إنَّ ربَّك لبالْمرْصاد ﴾ [1] ، على الرغم من أن هذه الحضارات أقامت من «الماديات» ما يعد ضربًا من الخيال ومستحيلاً من المستحيلات : **فحضارة «عاد»** برعت فى بناء المدن ، فأقامت مدينة « إرم » بشكل قد لا يتصوره خيال ، فهذه المدينة أقيمت من قصور عالية لها طوابق متعددة ، وكانت هذه الطوابق العالية تقام على « عمد » ، هذه « العمد » تقام ـ بدورها ـ على أسطح الطوابق السفلى، ما يبدو للناظر من بعيد وكأنها غابة كثيفة من جذوع صخرية قوية . و«**ثمود**» عاشت فى واد صخرى قد لا نجد فيه دافعًا لنماء ـ أو بقاء ـ حيوان أو نبات ، بله الإنسان ، فكانت معجزة هذه الحضارة النحت فى هذه الصخور لتقيم فيها البيوت والقصور. و« **فرعون** » حضارته الفرعونية على أساس المهارة المعمارية كما تتبدى فى المسلات والتماثيل والمعابد .

أما انهيار هذه الحضارات فكان نتيجة لازمة لأزمة الفرد تجاه الفرد ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [2] .

إن الإمام محمد عبده يرى أنه « لو كان الغنى لم يعمه الطغيان ، والفقير لم يطمس بصيرته الهوان ، وكان الفرد على حال إنسانية رفيعة ، لشعر هذا وذاك بما عسى أن يقع فيه اليتيم ، فيكون إكرامه ، فإن الذى يفقد أباه معرض لفساد

---

(١) سورة الفجر الآيات : ١١ ـ ١٤ .   (٢) سورة الفجر الآيات : ١٧ ، ١٨ .

طبيعته إذا أهملت تربيته ، ولم يعامل بما فيه إكرامه ، وما فيه رفع نفسه عن دنايا الأمور وسفاسفها ، ولو كان الفرد على درجة من الصلاح راقية لتحرك قلبه إلى التعاون على إطعام المسكين الذى لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله » [1] .

المجتمع : الحراك الاجتماعى .. ولا بدائل :

لما قلنا إن الأستاذ الإمام كان عالم دين[2] ، قصدنا أن عليه تبعات إصلاحية أكثر مما هى على غيره ، وقصدنا أنه لابد أن يكون الأستاذ الإمام مزوداً بوعى كبير يؤهله لتحمل الشدائد ، فهو ـ عبده ـ يعلم قول النبى ﷺ « **أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه** » [3] ، ولهذا لم

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ج ٥ ص٣٨٩ . وانظر د.زكى نجيب محمود : أفكار وموقف ، دار الشروق ، القاهرة ط ٣ سنة ١٩٨٧م ص٢٠٠ : ٢٠٣ . د. سعيد مراد : زكى نجيب محمود آراء ومواقف . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٤م ص٣٧ ، ٣٨. وانظر لنا : من الدلالات الأخلاقية فى فكر زكى نجيب محمود . دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة ط١ ١٩٩٤ م ص٣٧: ٤٠.

(٢) ليس فى الإسلام مصطلح « رجل الدين» لأن هذه التسمية ، وبحسب دلالة المخالفة ، ستقسم الناس إلى رجال دين ورجال يدخلون فى دائرة اللادين . انظر د. عاطف العراقى فى : الكتاب التذكارى عن الأستاذ الإمام . ص٣٠ : ٣٢ ، تصدير كتاب الإسلام دين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة ط١ سنة١٩٩٨م ص٢٧ . العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر . ص ١٤٩ .

(٣) الحاكم النيسابورى : المستدرك على الصحيحين فى الحديث ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ١ ص ٩٩ . القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق أحمد عبد العظيم البردونى ، دار الشعب القاهرة . ط٢ سنة ١٣٧٢هـ ج١٣ ص٣٢٥. ابن كثير : تفسير ابن كثير ، دار الفكر بيروت ١٤٠١ هـ ج ٣ ص١٨٩ ، ابن حبان : صحيح ابن حبان . تحقيق . شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط٢ سنة ١٤١٤/ هـ ١٩٩٣ م ج ٧ ص ١٦٠ .

يكن عجيبًا أن نقرأ كم الهجوم على الشيخ الإمام، ونوعه، خاصةً من زملائه أصحاب العمائم، حتى أن الرجل أنشد فى لحظات احتضاره قائلاً:

ولست أبالى أن يقال محمد أبل ... أم أكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضى عليه العمائم[1]

وذلك بعد أن تجاوز الخصوم - ولا سبب للخصومة - حدود الأدب فى الحوار والخلاف والاختلاف، فكتب أحدهم عن الشيخ الإمام « الشيخ المهياص الهجاص » وكتب آخر « كشف الأستار فى ترجمة الشيخ الفشار » وكتب ثالث غامزًا فى خبث مثيرًا للعامة والدهماء « إن الشيخ يتساهل، أو حتى يتجاهل، أداء الفروض الدينية بما فى ذلك الصلاة »[2].

ولاشك أن التقليد - بمستوياته وأنواعه - يشى بتقزم الإنسان، من حيث أن التقليد لا حقيقة وراءه، وأنه تسليم من الإنسان فكره وعقله لآخر دون أن يسأله حجة ولا برهانًا ولا دليلاً يجيز لهذا أن يكون تابعًا ولذاك أن يكون متبوعًا. كل هذا جعل التقليد سلوكًا معرفيًا منافيًا للدين، مذمومًا فى القرآن الكريم، مرغوبًا عنه فى حجة العقل ودليله[3].

---

(١) محمد عبده: الأعمال الكاملة ج ٢ ص ٣٣٠.

(٢) وهكذا دخل الدين لعبة الخلافات والمصالح الشخصية الضيقة وتصفية الحسابات، حيث أقحمه البعض بطريقة نفعية انتقائية أضرت بالفهم الدينى ولم تفد الشخص النفعى الانتهازى. انظر. محمد عبده: الأعمال الكاملة ج ٣ص ١٩٣ وما بعدها. ألبرت حورانى: الفكر العربى فى عصر النهضة، ص ١٧٥ وما بعدها. محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام. القاهرة ١٩٣١م ج١ ص ١١. ففى هذه الصفحات يشدد الإمام على ضرورة التجديد بدءًا من الأزهر نفسه الذى أصبح برأى الإمام « الإسطبل » و« المارستان »، وأصبح التعلم فيه يحتاج إلى عشر سنين تكنس فيها الأدمغة مما علق فيها من علوم أغلبها لا يفيد، ولعل هذه النقدات شديدة اللهجة من الأستاذ الإمام أن تكون صيحةً فى واد ذى زرع ليقوم ذوو الغيرة من أبناء الأمة بالتجديد والتحديث.. فهذا أو الكارثة.

(٣) انظر تفصيلاً لذلك. محمد عبده: الأعمال الكاملة، ج٢ ص ٣١٠. الجاحظ: =

والدارس لمنحنى التفكير البشرى يدرك - فى غير مشقة - أن الآفات الى تصيب الفهم الصحيح للدين ، ومن ثم تعمل على تشويه جوهره ، إنما تأتى من ثلاثة : التقليد ، والإستسلام للنشأة ، والتعصب للرأى والهوى [١] .

إن الأستاذ الإمام يرى أن الإسلام حمل على التقليد حملة منهجية شديدة العقلانية ، بين من خلالها فساد الأركان الداعمة للتقليد الساندة لدعاته، وحذر أن من لم يحترم نفسه واستقلال فكره ، ومن لم يمرن نفسه على الأخذ بما يعتقد أنه الحق ، وإن خالف الآباء والمعلمين والأحياء والأموات وغير المعصومين من الخطأ ، فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد [٢] .

يقول الأستاذ الإمام : عقل الشىء معرفته بدلائله ، وفهمه بأسبابه ونتائجه ، وأقرب الناس إلى معرفة الحق الباحثون الذين ينظرون فى الدلائل بقصد صحيح ولو فى غير الحق ، لأن الباحث المستدل إذا أخطأ يومًا فى طريق الاستدلال أو فى موضوع البحث فقد يصيب فى يوم آخر ، لأن عقله يتعود الفكر الصحيح وإستفادة المطالب من الدلائل ، **وأبعد الناس عن معرفة الحق المقلدون، الذين لا يبحثون ولا يستدلون، لأنهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم،**

= الرسائل ، المكتبة التجارية ، مصر ط١ سنة ١٩٣٣ م ص ١٥٢ . على بن محمد الجرجانى : التعريفات ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ط١ ١٤٠٥ هـ ص ٩٠ . ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ج٣ ص ١٤١، ج ٤ ص ٣٩ . ابن حزم : المحلى ، جزء العقيدة تحقيق لجنة إحياء التراث العربى . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ص ٦٩.

(١) نشوان الحميرى : الحور العين ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجى القاهرة . ١٩٤٨م ص٨ . د. زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، مقال « الدين والتدين وعلم الدين » ص ١٤٣ : ١٥٣ .

(٢) محمد عبده : الرسالة ص ١٣٩ وما بعدها .

وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم ، فهم لا يوصفون بإصابة ، لأن المصيب هو من يعرف أن هذا هو الحق ، والمقلد إنما يعرف أن فلانًا يقول إن هذا هو الحق فهو عارف بالقول فقط (١) .

وهكذا أسس محمد عبده مشروعه الإصلاحى على دعامتين :

لا تقليد فى التفكير .

وتنقية الدين من شوائب الخلاف (٢) .

لقد كان محمد عبده ـ فى دعوته إلى نبذ التقليد ـ ذا رؤية جريئة تريد أن تضع حلاً ـ وربما حدًا ـ لحالة الاستسلام اللذيذ / المريح على المستويين الفكرى والعلمى لما كان سائدًا قديمًا ، ولما هو « متسيد » حاليًا !! فيكون الاكتفاء بالفعل المتكلم بديلاً عن الفعل العامل . هذا كله أدخله ـ الإمام ـ فى معارك فكريه أبانت عن عظم الجهد المطلوب لإقناع معارضى التجديد ضرورة شيوع مفاهيم المثاقفة ، وأن الدراسة النقدية لا تمثل جرحًا لهذا الرمز أو ذاك ، من حيث أنه **لا يمكن تجديد الفكر الدينى دون تحليل ونقد موروثات هذا الفكر** عبر نحت مفهوم جديد يعتمد تنسيب أقوال رموز هذا الفكر آليةً ترضى جميع

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ج ٤ ص ٣٩٤ .

(٢) يقول الأستاذ الإمام : عملت على تحرير الفكر من التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم ، باعثًا على البحث فى أسرار الكون ، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبًا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل . وقد خالفت فى الدعوة إلى هذا رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منها جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هوفى ناحيتهم . انظر . محمد عبده : الأعمال الكاملة ج٢ ص ٣١٠ .

الأطراف ، فلا نرضى أن يفرض شخص ما سلطته الفكرية ، ومفاهيمه الأبدية ، وتوجهاته السياسية تحت لافتة أن هذا هو الإسلام ، خالطًا ـ عن عمد قاصد ـ بين « الرأى » و « العقيدة » . وخطورة هذا المنزلق إحجام المفكرين عن « التصرف » حيال هذا الموروث الفكرى لهذا المفكر أو ذاك ، مخافة الاتهام بالخروج عن العقيدة ، لرسوخ الارتباط بين الدين والمتدينين فى ذهنية الجمهور، مع أن الأمر فى الإسلام على غير ذلك ، إذ هناك تفرقة أساس بين الدين والمتدينين ؛ فالله تعالى ينزل الدين خالصًا ونقيًا ليرقى به الناس ، لكن البشر هم الذين يضعون بصماتهم ـ آراءهم ـ على الدين حين يتدينون ، فتظهر ـ من ثم ـ تلك الفجوة بين الدين الحق وبين تدين البشر ، ويضع البشر صورة قانونية تشريعية للتدين الذى يمارسونه ، **ودليل ذلك تأثر مذاهب الفقه بكل ما يتعلق بصاحب المذهب الفقهى من ظروف اجتماعية وسياسية ونفسية ، مايعود . بشكل أو بآخر. على المذهب وأتباعه**[1] هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، نرى ضرورة توصيف العلاقة بين كل من الشرع والفقه ، من حيث أن الشرع هو ما يؤخذ من الله تعالى من خلال القرآن الكريم ، أو من الرسول ﷺ من خلال السنة النبوية المطهرة ، أما الفقه فهو ما يضعه الفقهاء ، أو يصوغه الشراح، أو يفسره المفسرون [2] .

لقد أظهرت أكثر من دراسة أن « الفكر الدينى » الذى عاصره محمد عبده كان مجرد فكر إعلامى / احتفائى يكتفى بمجرد ترديد ما هو قديم ، مما

---

(١) انظر . د. زكى نجيب محمود : قيم من التراث . مقال « الدين والتدين وعلم الدين » ص ١٤٣ : ١٥٣ . وكتابنا « الولاية عند عبد الكريم الجيلى » . ص ١٤ .

(٢) انظر دراستنا فى الكتاب التذكارى عن الدكتور فؤاد زكريا . وأيضًا سيد قطب : كيف نستوحى الإسلام . سلسلة مختارات من الفكر الإسلامى المعاصر ، مكتبة الجديد القاهرة ، ص ٥٧ . المستشار محمد سعيد العشماوى : الربا والفائدة فى الإسلام . دار سينا للنشر . القاهرة ط١ ١٩٨٧ م ص ٢٧ ، ٢٨ .

أشاع فى الأمة ـ وقتها ـ ثقافة التقليد / الترديد / والتكرار / الاجترار ، وهى ثقافة نافية كائدة متربصة ، بدلاً عن إشاعة ثقافة التواضع / المراجعة ، تلك التى من شأنها « صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وتسجيل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، والتنبيه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسميًا لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والنظرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها ، والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه »[1] ، وهذا كله من شأنه أن يضع علامات استفهام متعجبة خلف عبارات مثل « ما ترك السابقون للاحقين شيئًا » و « ذهب السابقون بالخير كله » و« لن يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله »[2] .

ونستطيع ـ مما سبق ـ أن نحدد عن المتحاورين ، أو حتى المتساجلين ، فى قضية التقليد والتجديد قسمات اتجاهات ثلاثة :

---

(١) محمد عبده : الرسالة ، ص ١٤٠ . واقرأ قول محمد عمارة « بسبب من القداسة التى أضافها المنهج السلفى على النصوص امتدت هذه القداسة إلى العصر الذى قيلت فيه تلك النصوص ، وشاع فى الحركة السلفية تعظيم الماضى ، وزاد ذلك التعظيم كلما ازداد هذا الماضى إيغالاً فى القدم واقترابًا من عصر صحابة الرسول ﷺ » انظر د . محمد عمارة : التراث فى ضوء العقل . دار الوحدة .ط ١ سنة ١٩٨٠ م ص ٢١٣ .

(٢) هذه عبارة سياسية ، لا فكرية ولا عقدية ، كما يتصور البعض قالها زياد بن أبى سفيان متوعدًا أهل البصرة ، حيث أرسله معاوية بن أبى سفيان هناك عام ٤٥ هـ ، وذلك لما اشتدت وطأة الخوارج على العراق ، قالها زياد فى خطبته المعروفة بالبتراء ، لأنه لم يحمد الله فيها ، وتوعد بالانتقام . انظر الطبرى : تاريخ الطبرى ، دار الكتب العلمية . بيروت سنة ١٤٠٧ هـ ج٣ ص ١٩٧ وما بعدها .

اتجاه ماحق : أى غير مبال بأى من قواعد الانضباط الوطنى ، فهو طفيلى على مستويات الاقتصاد والاجتماع والتعليم .. وغير ذلك .

اتجاه لاحق : أى غير مبال بتجارب الآخرين ، بل ومحتقر لها ، فهو ممجد لماضيه بصورة تضخيمية مرضية ، والماضى عنده خزينة بها خطط لحل كل مشكلات الزمان والمكان على كل الصعد .

اتجاه سابق : أى متوازن مع ما كان ، وما هو معاش ، وما هو مأمول ، فلا هو ضخّم ، ولا هو حقّر ، ولا هو دمّر ، ولا هو قدّس . وهذا الاتجاه لم يزل مجرد مشروع فى رحم الغيب غائب مضبب ، لم تنزل قسماته فى طور التكوين، لم تتحدد بعد [1] لأنه ـ ببساطه ـ لا يمكن عبور مشروع التجديد عبر نفق الدجمائية الواقف تقديسًا للقديم ، لمجرد أنه قديم .

إن محمد عبده فى محاولته الإصلاحية للعالم الإسلامى القائمة على الثورة على التقليد والجمود اللذين أصابا هذا العالم وانتهيا إلى أن يصبح المسلمون متأخرين بعد تقدم ، كان يدعو ـ فى الوقت نفسه ـ إلى ضرورة إضافة الاجتهاد خاصة فى المسائل أو القضايا التى لم تعرض للرسول ﷺ فى عصره ، من حيث أنه ـ الاجتهاد ـ تعبير عن طبيعة هذا الدين الذى جاء ليوافق الطبيعة البشرية فى كل زمان ومكان [2] **ما يعنى أهمية أن نوجد تفرقة ضرورية بين إيمان العجائز القائم على التقليد المريح ، والتسليم غير الواعى ، وبين الإيمان المؤسس على فهم ذاتى وجهد فكرى ما يجعله إيمانا مسئولا ، حيث شاع الاعتقاد بأن كل موروث**

---

(١) انظر فى تفصيل هذه الإشكالية د . صلاح الجورشى : الإسلاميون التقدميون ، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ، دراسة رقم ١٦ ص ١١ وما بعدها .

(٢) د . منى أبو زيد : الكتاب التذكارى . ص ٢٦٥ . وانظر دراستنا فى احتفالية الجمعية الخيرية الإسلامية فى أبريل ٢٠٠٣ م ص ١٨٢ وما بعدها .

لابد أن يكون، بذاته، ملزمًا، خاصة إذا جاء هذا الموروث منقولاً .. فيصبح واجب الاتباع [1]، ويصبح التحرر منهما، أو من أحدهما، معصية كبرى، لكن يجب فحص، أو بيان، صحة انتساب هذا الموروث أو ذلك المنقول إلى أصله الدينى، حتى إذا ثبتت صحة انتسابه، فلابد من النظر : هل يراد بهذا الموروث أو ذلك المنقول تشريع ؟ حتى إذا أريد به تشريع، فلابد من النظر : هل هذا التشريع مطلق أم هو نسبى ؟ [2].

إننا نعلم أن محمد عبده كان فقيهًا مستنيراً ؛ فهو الذى كان يجاهر بالطلب إلى طلابه أن يقرأوا « الموافقات » للشاطبى، وهو ـ الشاطبى ـ الداعى إلى إفساح مكان للعقل إلى جانب النقل، وإبطال الأخذ عن القدماء لمجرد أنهم قدماء . وكان الأستاذ الإمام ممن ساروا عل نهج ابن حزم ـ رغم أنه، ابن حزم ـ ظاهرى ـ الذى حين أبطل قاعدة القياس إنما كان يريد تحجيم تراث فقهى كبير وخطير سبقه، ليبقى الإلزام محصوراً ـ فقط ـ فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وعلى المسلمين ـ فى كل عصر وحين ـ أن يعملوا عقولهم فى تنظيم أمورهم، مع الوضع فى الاعتبار أن ابن حزم، وكذا ابن القيم، أعلنا تابعية العقل للنقل، لكنهما عنيا بـ « النقل » الكتاب والسنة التشريعية الصحيحة، لا كل ما قال به علماء المسلمين، أو فقهاء المسلمين أو أئمة المسلمين [3].

---

(١) يفرق الأصوليون بين كون النص واجب التطبيق علي وجه التعبد دون النظر إلى معقولية ما جاء به ،وبين كون النص واجب التطبيق على وجه التعبد وهو معقول بالضرورة .

(٢) انظر د . محمد نور فرحات : البحث عن العقل، دار الهلال، القاهرة أغسطس ١٩٩٧م ص ١٠٥ وما بعدها .

(٣) انظر الدراسة الممتعة التى قام بها الراحل محمد الغزالى فى كتابه القيم « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » دار الشروق ـ القاهرة، حيث نزداد وعيًا بقيمة التراث=

المجتمع: التربية عبر الأسلوب التبريرى نفيًا للمسؤولية !!:

لعل من أهم الظواهر الدالة على سوء الفهم الكونى والدينى معًا، **سيادة فكرة الجبر** عبر السلوك الاجتماعى عامة، وكذلك **سيادة الفهم الخرافى / الأسطورى**.. إن جاز أن يكون هاهنا فهم !! . ففكرة الجبر تمثل عقبة كأداء أمام المصلح الإجتماعى، لأنه حين تشيع هذه الفكرة ينفلت السلوك الجمعى ليفرز سلبية مقيتة، تمثل اغترابًا لأفراد المجتمع، الذى سينتج - لا محالة - فجوة تباعد بين المحكومين والحاكمين، فلا يصبح هناك هدف يسعى الجميع لتحقيقه، بل سيكون الكل ممزقًا بين رغبات فردية آنية، إذا أشبعت فلن تفيد المجتمع، وإذا أحبطت ستحيل كل فرد من أبناء المجتمع إلى أزمة مزمنة لها أمراضها التى يصعب، بل يستحيل، علاجها.

إننا نعتقد أن عقيدة الجبر تمثل أشد الجوانب الإنسانية رفضًا على المستوى العقدى الإسلامى، فـ« أختار ألا أختار» أو« الحيلة فى ترك الحيلة » أو « التدبير فى ترك التدبير » لا تمثل طاعة بقدر ما تعبر عن نكوص معيب عن الوعى، وقعود عن العمل تعللاً بأن الله تعالى سينتصر للمسلم اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا !! ولو لم يعمل هذا المسلم ما به يستحق هذا النصر. ولعل الأمثلة عل ذلك كثيرة، تلك التى إذا أصابها مصيبة أوكلت أسبابها ونتائجها إلى القضاء والقدر، وتقوقع أصحابها ينتظرون فعل الغيب [1] بهم دون أن يتخذوا من الأسباب أو

= بأن نتدبره، ونعى مقاصده ومراميه والمصالح التى يتغياها، حيث أن العبرة - فى التشريع - بالهدف منه لا باللفظ فيه. ولهذا أوجد الأصوليون قاعدة « تخصيص ما هو عام »، **وبذلك نجعل للتراث وجوبية الإحترام، ونجعل للمصالح الإجتماعية حقوقية الاعتبار، فننفى عن أنفسنا ثقافة التعبد بالتحريم والتضييق على المسلمين.**

(١) انظر فيما قيل عن الأسباب الميتافيزيقية وراء « ابتلائنا » بالحملة الفرنسية، ثم خروجها من مصر بعد أن أصاب جنودها الطاعون. وما قيل ميافيزيقيًا أيضًا، عن أسباب هزيمتنا فى ١٩٦٧م. وكذلك ما قيل فى أسباب انتصارنا المجيد فى حرب السادس من أكتوبر=

الوسائل ما يدفع عنهم تلك المصيبة ، ناسين .. أو متناسين أن الرسول ﷺ قد أمرهم ، وأمرنا ، أن نأخذ بالأسباب ، وعلّمنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن المسلم أدرى بشؤون دنياه [1] .

= العاشر من رمضان . **فكل ما قيل يجعلنا دائمًا مفعولين لا فاعلين !! ما أفرز في العقلية المتلقية تعللات هلامية لا قوام لها كالتفسير التآمري** للتاريخ ، ذلك الذى يقيم الوقائع التاريخية بغير أسبابها ، فيتم العلاج بعيدًا ـ جدًا ـ عن الأسباب وموطن الداء ، ما يمثل هروبًا مريحًا من التدرب عل حمل المسؤولية ، فضلاً عن تحملها فعلاً .

(١) انظر فى ذلك ابن حبان البستى : صحيح ابن حبان . ج١ ص ٣٠١ . الإمام مسلم : صحيح مسلم . ج ٤ ص ١٨٣٦ . د. عبد المنعم النمر : الاجتهاد . دار الشروق . القاهرة. ص ٩٣ . وانظر ما كتبناه فى احتفالية الجمعية الخيرية الإسلامية . إبريل ٢٠٠٣ م ص ١٨١ : ١٨٣.

وإلى قريب من هذا جاء قول الأستاذ الإمام « إن تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسل فيه إلا من وجه العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه . فليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكن من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم ، فإن ذلك كله من و سائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك ، يزيد من سعادة المحصلين ، ويقضى فيه ، بالنكد على المقصرين» محمد عبده : رسالة التوحيد . ص ١٠٧ : ١١١ .

ولعل هذا الفهم أن يكون قريبًا من القول بأن معنى قوله تعالى فى سورة النحل الآية ٨٩ ﴿ونزّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتاب تبْيانًا لِكُلِّ شيْءٍ﴾ إنما يتعلق بالحلال والحرام ، وهذا ما يخص الجانب الاعتقادى والتشريعى وما يتعلق بذلك من أحكام . انظر . القرطبى : الجامع للأحكام القرآن .ج ١٠ ص ١٦٤ ، ٢٢٨ وأيضًا انظر . الطبرى : جامع البيان عن تأويل أى قرآن . دار الفكر . بيروت . ١٤٠٥هـ ج ١٤ ص ١٦١ ، ١٦٢ **فهذا القول فى الآية الكريمة يعد من باب العموم الذى يراد به الخصوص .ولما أقر المفسرون تعلق الآية الكريمة** =

إن الدارس للتاريخ الإسلامى لابد أن ينتهى إلى رؤية واضحة تبين له أن فكرة الجبر فى المجتمع الإسلامى ما أفرزتها إلا عوامل سياسية بأسلوب تبريرى[1] . وتكمن خطورة هذا المنحى أنه يوجد قيوداً خارجية غير حقيقية تربط الإنسان فى مسار محدد له ، ويسيّره فى طريق أعمى ، عليه أن يمضى فيه[2] .

ولا شك أن مذهب الجبر سيؤدى بمعتنقيه إلى أن يكونوا ذوى عقيدة مهتزة أمام الله تعالى ، وأن يكونوا ذوى نفوس ضعيفة أمام الناس ، تأسيساً على أن الجبر يتبنى ـ ودائماً ـ الجانب السلبى فى الحياة ، ما يجعله معتمداً على غيره، حتى لو كان هذا الغير أضعف منه قوة وألين قناة[3] .

يقول الأستاذ الإمام : جاء القرآن الشريف ـ وهو الكتاب المنزل بالإسلام ـ يعيب على أهل الجبر رأيهم ، وينكر عليهم قولهم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[4] وأثبت الكسب

= **بمجال الاعتقاد والتشريع ، يصبح من الطبيعى أن ما يخص العلوم الطبيعية والاجتماعية وما إلى ذلك إنما هو رهن البشرية وما تحصله هذه الخبرة عبر مناهج البحث المعروفة** مما لا دخل للمعرفة الدينية فيه .

(١) حسين مروة : النزعات المادية فى الإسلام ، دار الفارابى ، بيروت ١٩٨١ م ج١ ص٦٣١ وما بعدها . واقرأ ما كتبه الأستاذ الدكتور عاطف العراقى فى الكتاب التذكارى . ص ٣١ حيث يقول : لا يخفى علينا دور بعض الأنظمة السياسية على الدعوة الى التواكل والنظر إلى الإنسان وكأنه لا حول له ولا قوة .

(٢) د . على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلامى ، دار المعارف . القاهرة ، ط ٨ ١٩٨١م ج ١ ص ٣١٤ .

(٣) محمد عبده : العروة الوثقى : دار الكتاب العربى ـ بيروت ، ط ٢ ١٩٨٠ م ص ٩٣ وما بعدها . محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٢٦٠ وما بعدها . وانظر نقود الأستاذ الإمام لمذهب الجبر : الرسالة . ٦٣ : ٦٨ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٤٨ .

والاختيار فى نحو أربع وستين آية ، **وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فإنما جاء فى تقرير السنن الإلهية العامة المعروفة بنواميس الكون ، كما فى الآية** ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (١) والعاقل يرى الفرق **الجلى بين مسألة اختيار العبد فى أفعاله وبين أثر القدرة الإلهية فى أخلاق الأمم أو فى تعزيز الغرائز مثلا ، فاختيار العبد** فى أفعاله مما يقر به الوجدان ، ولا ينكره إلا من جهل نفسه ، لكن ما عليه **الأمم من الاختلاف** فى الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق الله فى اختيار ، بل خلقه كخلق السموات والأرض رما بينهما (٢)

هذه هى الأسس التى بنى عليها الأستاذ الإمام رأيه فى أن عقيدة الإذعان للقدر سبب من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموما ، وعند المسلمين خصوصا ، لأنها نزعت بالأمم المعتقدة بها إى الكسل انتظارا لما يأتيهم من الغيب ، وبسطت أيدى أغنيائهم فى الإسراف اتكالاً على ما يسوقه عالم الغيب(٣) وينتهى الإمام إلى أن ذلك سوء فهم سببه سوء فهم أهل هذه العقيدة (٤) .

يقول الأستاذ الدكتور عاطف العراقى شارحًا مذهب ابن رشد فى القضاء والقدر : إذا فرضنا الإنسان غير مكتسب لأفعاله ، فإن هذا سيؤدى ـ لا محالة ـ إلى القول بأن التكليف من الأشياء التى لا تطاق ، إذا تكليف

---

(١) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

(٢) محمد عبده : الأعمال الكاملة . ج ٣ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٣) يذكرنا قول الإمام هذا بالمثل الشعبى المُساق على ألسنة العامة دليلاً على سوء الفهم وسوء التدبير معً « إنفق ما فى الجيب ، يأتى لك ما فى الغيب » !!! .

(٤) انظر . محمد عبده : الأعمال الكاملة ج ص ٤٩٥ : ٥٠٠ .

الإنسان فى هذه الحالة سيترتب عليه عدم وجود فرق بينه وبين تكليف الجماد الذى ليس له استطاعة [1] .

هذه دراسة ـ بقدر إختصارها بقدر تواضعها ـ حاولنا خلالها بيان الجانب الإجتماعى أو جزء منه ، فى فكر الأستاذ الإمام محمد عبده ، ذلك الرجل الذى ماهمّه شىء قدر أن تكون أمته على غير ما أراد لها دينها أن تكون.. **حيث يقول** : هل أتأسف أننى كنت مقدامًا فى المكرمات ؟ هل أتأسف أننى كنت شجاعًا فى الدفاع عن ذوى مودتى ؟ هل أتأسف أننى كنت أبيًا أغار أن ينسب مكروه لأولى صلتى ؟ هل أستحق العقاب على حبى لبلادى والناس لها كارهون ؟ كلا... والله لن يكون ذلك . ولم أزدد فى سبيل القضية إلا

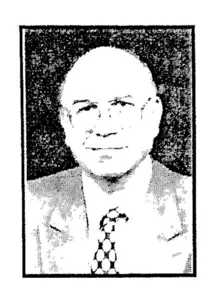
---

(١) د. عاطف العراقى : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ، دار المعارف ـ القاهرة ، ١٩٨٦م ص ٢٠١ . وللمزيد حول إشكالية الجبر والإختيار فى الفكر الإسلامى قديمًا وحديثًا ، يمكن التفضل بالرجوع إلى المصادر الآتية سواء للتعريف بمذهب الجبر أو نقده .

القاضى عبد الجبار : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق . فؤاد سيد . الدار التونسية مكتبة وهبة . القاهرة . ١٩٦٥ م مواضع مختلفة . أبو الحسن الخياط : الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد . تحقيق د. نيبرج . المكتبة الأزهرية . القاهرة . ١٩٨٨ م مواضع مختلفة . د . أحمد محمود صبحى : الزيدية ، الزهراء للإعلام العربى . القاهرة. ط٢ ١٩٨٤ م ص ٨٨ . الجوينى : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به . تحقيق . محمد زاهد الكوثر . مكتبة الخانجى ـ القاهرة ١٩٦٣ م ص ١٤٤. د. عاطف العراقى : تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية . دار المعارف ـ القاهرة . ط ٣ سنة ١٩٧٦م ص١٣٩ : ١٤٤ . الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق سيد كلانى . مطبعة الحلبى . القاهرة ١٩٧٦ م ج١ ص ٨٥ . التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق د. لطفى عبد البديع . ١٩٦٣م ج ١ ص ٢٨٣ . د. محمد عمارة : المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية . المؤسسة العربية للنشر بيروت . ط١ ١٩٧٢م ص ٤٦ب .

بصيرة ، ولم أزدد فى المحافظة عليها إلا ثباتًا ، ولئن عشت لأصنعن المعروف ، ولأغيثن الملهوف ، ولأنقذن الهاوى فى حفرة الغدر ، ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم ، ولأتجاوزن عن السيئات ، ولأتناسين جميع المضرات ، ولأبين لقومى أنهم كانوا فى ظلمات يعمهون [1] .

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام . مطبعة المنار . مصر . ط٢ ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م ج٢ ص ٥٩٢



الإمام محمد عبده صحفيًا

للكاتب المؤرخ جمال بدوى

كانت الصحافة هى المنبر الذى اعتلاه الامام محمد عبده لبث أفكاره وتعاليمه ، وإيقاظ الأمة من سباتها كى تعرف حقوقها وواجباتها ، وتتخلص من المفاهيم الخاطئة التى دخلت على الدين . وإذا كانت دروسه فى الأزهر قد أتاحت له مخاطبة تلاميذه ومريديه ، فإن الصحافة أتاحت له مخاطبة المجموع فى مصر والعالم العربى ، واتسعت أمامه دائرة الاتصال بالجماهير بقدر اتساع الأرض العربية والإسلامية ، فصار معلمًا ومصلحًا يرشد الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، ويعالج هموم المجتمع وما ينخر فيه من علل وأمراض كالبدع والخرافات ، ويتطرق إلى موضوعات تتعلق بحقوقهم السياسية والقانونية والثقافية .

ومنذ بداية نضجه السياسى والفكرى ، والتقائه بالسيد جمال الدين الأفغانى : ظهرت عليه بوادر الولوع بالصحافة والكتابة الصحفية ، وكان الأفغانى يمد تلاميذه بالأفكار التى يجسدونها بأقلامهم فى شكل مقالات تُقبل الصحف على نشرها فى تلك الفترة من سبعينيات القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى احتدم فيها الصراع بين التيارات الوطنية والدينية ، وبين هجمة

التغريب التى استفحلت مع هجمة الاستعمار على البلاد الإسلامية ، وشهدت تلك الفترة ازدهار الصحافة الأهلية بتشجيع من الخديو إسماعيل لتكون بوقا له، ومظهراً من مظاهر الحداثة والتمدين ، ولكن ما لبثت أن تحولت إلى سياط تلهب ظهره بالنقد اللاذع لتصرفاته وبذخه ، وإنحراف البلاد فى الديون مما أدى إلى خضوع مصر للنفوذ الأجنبى .

كانت باكورة مقالات محمد عبده ، مقالين كتبهما فى الصحيفة التى كان يصدرها أديب اسحق ، أحد تلاميذ الافغانى - الأول عن (فلسفة التربية) والأخرين (فلسفة الصناعة وكلاهما من إيحاء الأفغانى . أما انفتاح باب الصحافة أمام محمد عبده : فقد حدث بعد صدور صحيفة الأهرام فى عام ١٨٧٦ وبدأت المرحلة الأولى من حياة الإمام الصحفية ، فكتب فى العدد الخامس مقالا رحب فيه بهذا الوليد الذى يحمل اسمًا يعيد إلى الاذهان مجد مصر القديم ، ويقارن فيه بين القديم والحديث ، ويتمنى أن يكون أهرامنا غير أهرامهم التى كانت مساكن أموات ، أما هذه فلسان سر السموات ، وكانت الأولى أهرام أشباح وهذه غذاء أرواح ، وأين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذى سطعت فيه شموس العرفان ، وأين الذى تفنيه الرياح والأمطار ، من الذى لا يوهنه توالى المدد والأعصار ، فإن مقره العقول العاليات ، والنفوس الزكيات ، التى لا يتناولها الفنا ، ولا يبتذلها العنا ، فبخٍ بخٍ بمنشيها ، وطوبى لقاريها ... وباسم الله مجراها ومرسيها .

كان محمد عبده فى هذه المرحلة المبكرة من حياته الصحفية متأثرا بالأساليب الشائعة فى زمانه ، وأبرزها السجع والتزام التراكيب العتيقة ، والمحسنات اللفظية ، وظل الشيخ ملتزمًا بهذه الاساليب طوال الفترة التى ظهرت فيها مقالاته بالأهرام ، رغم أنها اشتملت على أفكاره الفلسفية ، ودعوته إلى العلوم العصرية .

وفى نفس الفترة يقول رشيد رضا ان الامام كتب مقالين فى صحيفة لم يذكر اسمها ، انتقد فيهما سياسة الدولة العثمانية تجاه العرب ، وهاجم عبثها باستقلال تونس الادارى ، والعبث بحقوق مصر وامتيازاتها بعد خلع إسماعيل ، وتعيين توفيق .

وبتعيين محمد عبده رئيسًا لتحرير (الوقائع المصرية) بقرار من رئيس النظار رياض باشا وبتوصية من البارودى فى اكتوبر ١٨٨٠ ، بدأت المرحلة الثانية والمميزة فى حياة الامام الصحفية ، ففيها انفسح المجال أمامه لبث أفكاره الاصلاحية ، خاصة بعد تحرره من تأثير أستاذه الأفغانى وتوجهاته الثورية ، وتلك علامة فارقة فى طبيعة العلاقة بين الشيخ والمريد ، وأخذ المريد يحرر أفكاره الاصلاحية مثل : حكومتنا والجمعيات الخيرية ، واحترام قوانين الحكومة، وأوامرها من سعادة الأمة ، وحب الفقر وسفه الفلاح . ولكن ... ما أن قامت الثورة العرابية حتى انجرف إليها رغبة فى الحصول على الدستور ، وارتفعت عنده نبرة الدعوة إلى الاصلاح ، وكان يراه عن طريقين قال عنهما :

* **الأول :** تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع إلى ينابيعها الأولى .

* **الثانى :** إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، سواء كان فى المخاطبات الرسمية أو فى المراسلات بين الناس ، وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب .

ـ الأول ما كان مستعملا فى مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات ، ورصّ غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم ، لا فى صورته ولا فى مادته .

ـ والثانى ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر ، وهو

ما كـان يراعى فيـه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحظ الفـواصل وأنواع الجناس ، وإن كان رديئًا في الذوق ، بعيداً عن الفهم ، ثقيلاً على السمع .

ثم يقول الامام عن دعوته الاصلاحية : وهناك أمر آخـر كنت من دعاته ، والناس جـمـيـعًـا فى عـمـى عنه ، ولكنه الركن الـذى تقـوم عليـه حـيـاتهم الاجتماعـية، وما أصابه من الوهن والضعف والذل ، إلا يخلو منه مجـتمعهم ، وذلك هو التمـييز بين ما للحكومـة من حق الطاعة على الشعب ، ومـا للشعب من حق العدالة على الحكومة ، **نعم .. كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهو لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد على عشرين قرنا ، فدعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم ، وان وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، جهرنا بهذا القول والاستبداد فى** عنفوانه ، والظـلام قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم له عبيد .

ان الحديث عن الجانب الصحـفى فى حياة الامام محمد عـبده إنما يتركز على الفترة التـى أصبح مسئولا فـيها عن تحرير الوقائع المـصرية منذ العدد ٩٣٣ الصادر فى ٩ اكتـوبر سنة ١٨٨٠ . فأصبحت جـريدة رسمية يومـية تصدر كل يوم ما عدا الجـمعة ، كما انها اسـتقلت بشئونها جـميعًا فأصبـحت ذات مطبعة خاصـة غيـر مطبعة بولاق ، وهـى (مطبعة الداخلـية الجليلة) . وكتـب الشيخ افتتاحية العدد المذكور بعنوان (دخول جريدة الوقائع المصرية فى طرز جديد) ، وفى هذه الافتتـاحية أعلن الامام دسـتور جديد للوقائع ، أبعـد أثرًا وأدق نظامًا من برنامجها الأول ، فقد قال الامـام بعد أن تحدث عن نسبة الحكام إلى البلاد ، وأثرهم فى ضعفها أو قوتهـا ، ولم يقتصر دولتلو رئيس نظارها ـ رياض باشا ـ على النظر فى الكليات ، ولكن وجه عنايته الى ترتـيب الجزيئات ، فشمل نظره إدارة الوقائع المصـرية التى أتت عليها أدوار عـديدة وتقلبت في أطوار مخـتلفة مدة مـديدة ، وهي في كلها غير ملتـفت إليها من أول الأمـر ، تتقدمهـا الجريدة

الرسمية الفرنساوية بكونها يومية دائمة الظهور ، تنشر فيها المهمات قصداً وبالذات ، ولا تدرج فى الوقائع إلا عرضًا وبالتبع . ولا يخفى ما كان فى ذلك من الحظّ بشأن اللغة العربية وأبنائها الذين هم الوطنيون الحقيقيون ، وهم الأحق بالاطلاع على أوامر حكومتهم السامية وأعمالها الرفيعة ، فقد نالت هذه الجريدة على عهد الخديو الأعظم ـ يعنى إسماعيل ـ بتوصية من دولتلو ناظر الداخلية ـ يعنى رياض ـ من علو الشأن ما لم تنله من قبل إذ صدر أمر دملتلو بأن تكون يومية بعد ما نظم لها لائحة تكفل لها أن تكون ذات المركز الأول ، والمقام الأعلى فى بابها ، وأن تسابق الصحف الشهيرة فى غزارة المواد المفيدة على نمط تألفه الناس ، ولا يمجه الطبع .

ويسجل مؤرخ الصحافة الدكتور ـ إبراهيم عبده ـ البند الأول فى دستور الوقائع فى ثوبها الجديد ، ويقضى بأن تحتوى الجريدة على أخبار الدواوين والنظارات بدون استثناء فى جميع فروعها وأقلامها ، وإلزام هذه الجهات بأن ترسل إلى الجريدة هذه الأخبار بانتظام واطراد ، بما فيها أخبار رفت الموظفين وتنصيبهم ، والأسباب التى أوجبت ذلك . كما فرض على المحاكم الشرعية ومجالس القضاء إرسال نتائج أحكامها وأسباب الحكم ونتيجة التحقيق ، وألزمت المديريات وحكمدارية السودان وسواحل البحر الأحمر وجهات (هرر) وملحقاتها بإرسال أخبارها وما يفعله مأموروها ومديروها من الفوائد والسياحات والاستكشافات كما يجب إرسال أخبار القتل والسرقات وما هنالك من تعيين ورفت المشايخ وعمد البلاد .. كما ينبغى على الجهات المختصة أن تبلغ الجريدة عن سير العمليات بواسطة البرق ، وكل مديرية ملزمة بتحرير كشف فى كل موسم زراعى ببيان أصناف مزروعاتها صنفًا صنفًا .

وتقضى بقية بنود هذا الدستور بأن وظيفة الجريدة المقارنة بين الدواوين والمديريات ، فهى شاهد عدل على أعمالهم حتى تهتم كل جهة بشئونها .

وتنقسم الجريدة إلى أقسام متخصصة ، **فقسم** للأوامر الكريمة وقرارات مجلس النظار ، وخطاباته المهمة ، **والثانى** للنظارات العليا ومنشوراتها ، **والثالث** للمديريات والمراكز ، **والرابع** لقرارات المجالس والقومسيونات والمحاكم بأنواعها ، و**الخامس** للعلوم والأدب بأنواعها تحت عنوان (فنون متنوعة) ويدخل فى هذا القسم العبارات التهذيبية المتعلقة بالأخلاق ، **والقسم السادس** للحواديث الخارجية ، **والسابع** للاعلانات ، إلا إذا كان الاعلان مهما فيقدم .

ويرسم البند العاشر علاقة المحررين بالحكام ، فيحظر على محرر الجريدة أن يطرى من يشاء ، ثم إن الموظفين يذكرون بأسمائهم وألقابهم الرسمية وأعمالهم وآثارهم الصحيحة ، وليس لمحرر أن يغير فى المقالات المرسلة من الخارج ، وإذا وجد بها نقصًا أرسلها لصاحبها ليصلح خطأها . وإذا تهورت الصحف الاهلية وتجاوزت فى جدالها حدود الأدب ، وتدخلت فى الأحوال الشخصية المخلة بالأداب العمومية ، كان لادارة المطبوعات أن تفصل بين هذه الجرائد المتجادلة ، وإن لم تشكو إحداها ، وللادارة الحق أن تنذر المتهورة منها بالكف عن ذلك .

ومن التقاليد الجديدة التى ابتدعها الامام محمد عبده ، الاقلاع عن فرض الجريدة على المأمورين والعمد وإجبارهم على دفع قيمتها ، وعمل الامام بتوجيه من رياض باشا على أن يجعل للجريدة قيمة فى ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تتضمنه من الأوامر واللوائح ، فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم ، من غير إكراه من الحكومة لهم على ذلك. كما اتجه الإمام بإن الإسراف فى مديح الخديوى وكبار المسئولين مما ينفر الناس من رؤيتها ، فطلب رياض باشا وسيلة جديدة لتغيير طريقة التحرير ، بحيث تستميل الناس بالاطلاع عليها .

ويقول الدكتور إبراهيم عبده ان الامام محمد عبده وضع للوقائع المصرية

الأصول والقواعد الجديدة حتى بلغت الجريدة بمقتضاها عصرها الذهبى ، وقد عُين الشيخ محمد عبده فى أول الأمر محرراً ثالثًا ، إلى جانب محرريْها الأول والثانى أحمد عبد الرحيم وشقيقه ، فكانت بداية أعمال شيخنا المحرر الثالث أن وضع تقريراً لاصلاح الجريدة ، ورفعه إلى رياض باشا فاهتم به اهتمامًا خاصًا ، وأمر بتشكيل لجنة من مدير المطبوعات ووكيل الداخلية وصاحب التقرير لوضع لائحة لقلم المطبوعات ، وتحرير الجريدة الرسمية ، فوضعت هذه اللائحة وأمضاها الوزير ثم كافأه على تقريره القيم بأن عيّنه رئيسًا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية ، ومشرفًا على المطبوعات ، فاختار معه نخبة من المحررين القادرين على استمالة الناس بأقلامهم ، ومنهم الشيخ سعد زغلول الذى أضحى فى القرن العشرين قائد الحركة الوطنية فى مصر ، ومنهم الشيخ إبراهيم الهلباوى الذى صار من أكبر المحامين ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وكلهم من أصحاب الرأى والفكر .

وكان الامام بعد هذا كله حريصًا أشد الحرص على أن يكون أسلوب الكتابة عربيًا صحيحًا يفيد اللغة ويسمو بها ، وعندئذ اضطر الجاهلون باللغة والتحرير فى إدارات الحكومة إلى استدعاء المعلمين ، أو الذهاب إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير قبل إرسالهم أخبارهم إلى الجريدة ، وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير فى مصالح الحكومة . فكأنه قصد من تدخله فى أمور الحكومة : إصلاح اللغة فيها وتعليم الجهال من موظفيها كيف يكتبون ويحررون ، وكان فى موقعه على رأس إدارة المطبوعات قد لفت نظر الصحف الى تحريرها وتحسين أسلوبها ، وإلا أنذرت ، مما جعل الصحف تلبى دعوته ، فأصبحت تتسابق على إظهار مزاياها فى التحرير كى تحظى بإعجاب إدارة المطبوعات وشيخها .

وعلى هذا جاءت الوقائع المصرية فى عهد الامام مدرسة للصحافة واللغة العربية ،يأخذ فيها التلميذ عن أستاذه حتى ارتفع مستوى الأساليب العربية ، وتمثل ذلك فى الشيخ عبد الكريم سلمان الذى حل محل أستاذه محمد عبده بعد فشل الثورة العرابية .

لقد انعكست الهزيمة على فكر الشيخ بعد أن خابت آماله فى الثورة ، وما أصابه من جروح نفسية من رؤية بلاده تحت وطأة الاحتلال ، ثم نفيه إلى فرنسا ، وهناك التقى باستاذه الأفغانى ، واتفقا على إصدار (العروة الوثقى) لتكون أداة اتصال بالجماهير فى أنحاء البلاد الإسلامية . **وبذلك تبدأ المرحلة الصحفية الثالثة فى حياة الامام ،ويتلخص برنامج هذه الجريدة كما سجله أستاذ الصحافة الدكتور عبد اللطيف حمزة فى الأمور الآتية :**

أولاً : إفهام الشرقيين واجباتهم التى كان التفريط فيها موجبًا لسقوطهم وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .

ثانيًا : إفهامهم كذلك أن الأمل فى النجاح قريب . إذ لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم .

ثالثًا : دعوة المسلمين إلى التمسك بالأصول التى كان عليها أباؤهم وأسلافهم ، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، والمثل الأعلى للمسلمين فى نظر الجريدة هنا هو : ما كان عليه الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين قبل أن يدخل عليهم الفساد من أبواب شرحتها الجريدة شرحًا وافيًا فى المقالات التى تيسر لها أن تنشرها .

رابعًا : إبطال الزعم بأن المسلمين لا يتقدمون فى مضمار المدينة الحاضرة

ما داموا مستمسكين بدينهم ، لأن دينهم فى نظر من لا يفهمونه من الأوروبين يدعو إلى التواكل .

خامسًا : تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينهم .

سادسًا : وصل الشرقيين بما يهمهم من الأخبار العامة والأخبار الخاصة وبسياسة الدول الأجنبية تجاه البلاد الشرقية ونحو ذلك .

إلا أن العروة الوثقى لم تصدر أكثر من ثمانية أعداد فقط من مارس إلى اكتوبر ١٨٨٤ ، وفى أثناء ذلك انتقل الشيخ محمد عبده من دائرة ضيقة كان يعمل فيها لإصلاح مصر من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، إلى دائرة أوسع وأكبر هى الدائرة التى أصبح فيها مع السيد جمال الدين يعملان لصالح الكافة من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وعن المنطلقات السياسية عند الامام ، يقول الدكتور حمزة إنه استبدل بطابع الهدوء الذى غلب على نفسه وخلقه ، طابع الثورة التى انتقلت إليه بالعدوى من أستاذه، وكان الأفغانى لا يمهله حتى يفكر بالطريقة التى تعودها، وإنما يدفعه دفعًا ، وبقوة لا تعرف الإبطاء لمحاربة الأدواء التى نخرت بسببها عظام الإسلام ، ولم يكن مضر للشيخ من مسايرة هذا الجواد الجامع ، يعدو بعدوه ، ويركض بركضه ، ويثب بوثوبه . وها هو الشيخ فى باريس يقوم بدور المعلم المصلح للعالم الإسلامى كله ، بعد أن كان فى مصر معلمًا للمصريين وحدهم ، ومن ثم أخذت مقالاته فى (العروة الوثقى) طابع الدعوة الحارة ، إلى جانب الطابع الأول ، وهو طابع الدرس الخالص الهادىء . ومضى يكتب نحوا من اثنتين وثلاثين مقالة بهذا الروح ، كان للسيد فيها فضل الفكرة فى أكثرها ، وكان للشيخ فضل الأسلوب والتعبير ، على أن أسلوب الشيخ فى هذه المقالات لم

يكن يجرى مجرى الحديث العادى كما كان يفعل فى المرحلة الأولى من مراحل كتاباته الصحفية ، ولكن يجرى مجرى الخطابة ، وفيه كثير من خصائصها مثل تكرار الكلام بقصد التأكيد ، وكثرة النداء فى غضون المقال، وكثرة الاشارة والاستفهام الإنكارى ، ونحو ذلك . ومن السهل على قارىء هذه المقالات أن يدرك أن العناية بالفكرة توشك أن تغلب فيها العناية بالأسلوب ، وهذا ما يفسر خلو العبارة من الألفاظ الجزلة ، ومن الجرى وراء المحسنات اللفظية التى استعاض عنها الشيخ بصدق العواطف المنبثة فى ثنايا المقال ، وبدرجة الحرارة التى وصل إليها .

وتبدأ المرحلة الرابعة فى حياة الإمام الصحفية عندما سمحت له السلطنة العثمانية بالسفر إلى لبنان ، وهناك اتصل به العلماء والأدباء ، وفسحت له بعض الصحف صدورها ، فاستكتبته جريدة (ثمرات الفنون) . وقد استطاع الدكتور عبد اللطيف حمزة أن يعثر على سبع مقالات له فى تلك الجريدة ، دافع فى **إحداها** عن المصريين المهتمين بعصيان الخديو توفيق ، **ورد فى الأخرى** على سؤال وجه إليه فى كتب المغازى ، **ولخص فى الثالثة** خطبته التى القاها بالمدرسة السلطانية ببيروت ، **وكتب الرابعة** فى الرد على (رسالة صمويل بيكر فى السودان ومصر وانجلترا) وذهب فى هذه الأخيرة إلى أن المصريين عثمانيون وبذلك أرضى الدولة العلية لأنه كان يومئذ نزيل قطر من أقطارها ، ودافع عن الجيش المصرى الذى طالب صمويل بيكر حكومته بالعمل على إلغائه ، واستبدال جيش الدولة العثمانية لمصلحتهم فى تذليل السودان لهم ليتفرغوا للمسألة الأفغانية ، وذلك جريًا على سياستهم المعروفة فى ضرب الأمم بعضها ببعض .

وكان المقال الخامس فى موضوع المحاكم الأهلية ، وفيه دافع عن الوحدة بين المسلمين والاقباط ، وهو دفاع مؤيد بالحجج التاريخية ، والأحاديث

النبوية، والدلائـل اللفظية ، **والسادسة** فى اللغة الرسميـة فى المحاكم الاهلية ، **والسابع** عنوانه (الانتقاد) .

أمـا اسلوب الامـام فى تحـرير هذه المقـالات السـبع ، فـأسلوب بسـيط هادىء ، وتفسير ذلك أنه ابتعد عن استاذه الحاد الطبع ، وتحرر من تأثيراته الميالة إلى العنف ، فعاد الشيخ إلى طبيعته الأولى .

وعاد الشيخ إلى مصر، وتعددت اهتماماته بعد اشتغاله بالقضاء الشرعى، ثم قيامه بمنصب المفتى، أما الجانب الصحفى فى تلك الفترة فكان أهمـهـا الرد على المسـتـشـرق (هانوتو) وطفق يكتـب المقـالات الضـافـية فـى الرد على الوزير الفرنـسى الذى ينتقـد الإسلام فيـزعم أنه دين سـامى له طبيـعة مغـايرة للأديان الأخرى . وكتب الشيخ ست مقالات انفـردت كل واحدة منها بالرد على تهمة من التهـم السابقة ، وقـام بدحض الفكرة التى بنى عليـها (هانوتو) هجـومه ، فـجاء رده مـفحـمًـا لدرجة ازعـجت (هانوتو) فـراح يزعم أن مقـالاته أسىء فـهمـها، وراح يـسعى إلى صـاحب (الأهرام) لكى يسـترد اعـتباره . وبهـذه المقالات بلغ الامـام الذروة فى سهولة القول ، وسـلامة العبارة ، وقـوة الحجة ، واستـقامة المنطق ، وإشـراق الديباجة ، وبلغ الكمـال فى حياته الصـحفية كـما بلغها فى حياته الفكرية جميعًا .



الإمام محمد عبده وقضايا المرأة

للاستاذة الدكتورة/ مرفت عزت بالى
وكيل كلية الآداب بجامعة حلوان

تقديم:

ليس بغريب على الإمام محمد عبده رجل الدين المستنير وصاحب الفكر الإصلاحى فى كافة مجالاته ، الدينى والأخلاقى ، السياسى والاجتماعى أن يهتم بالمرأة وقضاياها ، ويجتهد فى حل مشكلاتها من منظور فهمه الواعى للقرآن الكريم والسنة النبوية .

نعم لقد حظيت المرأة عند الإمام محمد عبده بنصيب وافر من الإهتمام فى البحث والنظر فى مشكلاتها خاصة وأن فى إصلاح أحوالها ، واستقرار حياتها استقرار وأمان للأسرة بل والمجتمع ككل ... كيف لا وهى الأم والزوجة والإبنة والأخت داخل البيت ، والشريكة فى العمل خارجه ... ولهذا نرى اهتمام الإمام محمد عبده بالمرأة قد تعدى حدود النظر إلى التطبيق العملى ، وانطلق فى معالجته لقضايا المرأة ومشكلاتها من القول إلى الفعل ، ومن النظر إلى العمل مهتديًا بالتشريع الإسلامى .

وإذا كان الإمام محمد عبده قد جعل الإسرة من أولويات برنامجه

الإصلاحى الإجتماعى ، فقد جعل المرأة ومشكلاتها على رأس هذه الأولويات واجتهد فى وضع حلول لقضاياها ومشكلاتها أعانة على ذلك تفقهه فى أمور الدين ، ومعرفته بأحكام الكتاب والسنة ، فضلا عن عمله بالمحاكم الشرعية فى دار الإفتاء المصرية .

سنحاول فى هذه الدراسة أن نوضح موقف الشيخ محمد عبده من بعض قضايا المرأة ومشكلاتها كقضية التعليم وقضية التملك ثم نختتم دراستنا ببيان رأى الشيخ فى بعض مشكلات المرأة فى ضوء تفسيره للقرآن الكريم كمشكلة تعدد الزوجات ومشكلة الطلاق .

وكل ما أرجوه أن أوفى الشيخ محمد عبده حقه فى فهم آرائه وأفكاره الخاصة بالمرأة وقضاياها ، وأن أعرضها بأمانة وموضوعية على ضوء الفهم الصحيح للشريعة الإسلامية الخاصة بحقوق المرأة وواجباتها فى الأسرة والمجتمع ، وأن استنير بتفسير الشيخ محمد عبده للقرآن فى توضيح رأيه فى بعض المشكلات الأسرية ، وأن أسهم بجهدى المتواضع فى اقتراح الحلول لتجنب ظهور هذه المشكلات فى مجتمعنا حماية للأسرة بل وللمجتمع ككل من التفكك والتصدع وأملاً فى مزيد من الهدوء والاستقرار للحياة الأسرية وتشوقًا للأمن والأمان فى المجتمع بأسره .

أولاً: المرأة مدخل الإصلاح فى الحياة الإجتماعية عند الإمام محمد عبده :

إذ اكان الإمام محمد عبده قد جعل الإصلاح هدفاً لجهوده فى النهوض بالمجتمع لإقالته من عثراته السياسية والإقتصادية والفكرية ، فإن المرأة فيما نرى، هى مدخل الإصلاح فى الحياة الاجتماعية عنده .

ولم يكن بلوغ هذا الهدف ليستعصى على الإمام محمد عبده ، بل كان أمراً يسيراً عليه ، كيف لا وكل ميسر لما خلق له ، فهو رجل الإصلاح والتنوير ، ومجدد الإسلام فى العصر الحديث بلا منازع .

والرأى عندى أن اشتغاله بحفظ القرآن فى صباه ، وفهمه الصحيح لمعانيه ـ خاصة وقد كان مفتيًا للديار المصرية ـ قد أعانه على بلورة أفكاره الإصلاحية سواء تلك التى تتعلق بالفرد أو المجتمع ككل . فالقرآن عنده يتضمن مبادىء إصلاح المجتمع الإسلامى[1] ولهذا نراه يجعل تفسير القرآن محورًا أساسيًا لأفكاره الإصلاحية ، **ويذهب إلى القول بأنه لا سبيل إلى إصلاح المجتمع من غير طريق الدين ، حيث أن الدين متأصل فى نفوس الأفراد وأى طريق خلاف الدين يحتاج إلى بناء جديد يتأصل فى نفوس الأفراد**[2] .

وقد تبلورت آراء الإمام محمد عبده الإصلاحية فيما يتعلق بالحياة الإجتماعية بعامة والمرأة بخاصة على ضوء فهمه الواعى للشريعة الإسلامية ورجوعه إلى الكتاب والسنة عند حل مشكلات المرأة وخاصة تلك التى تتعلق بتعدد الزوجات والطلاق .

ونظرًا لاهتمام الإمام محمد عبده بالحياة الإجتماعية للأسرة بعامة والمرأة وقضاياها ومشكلاتها بخاصة فقد أولاها عظيم عنايته فى كتاباته الإجتماعية فنراه يتحدث بعامة عن (الأسرة والمرأة) فى الجزء الأول من أعماله الكاملة وهو الخاص بتفسير القرآن بادئًا بالحديث عن العلاقات الأسرية وأهمية توثيقها فى إحداث الترابط الأسرى ، ثم عرج منها إلى بيان موقفه من ثلاث قضايا هى :

---

(1) Dr. Osman Amin : Lights on contemporary Moslem philosophy : The Renaissance Bookshop , Cairo , p. 92.

٢ـ محمد عبده : الأعمال الكاملة جـ ٣ ، ص ٢٣١ ، تحقيق ودراسة د. محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٢ .

١ـ قضية تعليم المرأة .

٢ـ قضية تقييد طلاقها .

٣ـ قضية تعدد الزوجات .

أما فى الجزء الثانى من أعماله الكاملة والذى خصه (للكتابات الإجتماعية) فقد تناول فيه بالتفصيل الحديث عن المرأة ومشكلاتها فتحدث عن (المرأة فى صدر الإسلام) وعن الطلاق ، وتعرض لمشكلة الإنفاق على الزوجة والتطليق على الزوج ، ومشكلة تعدد الزوجات ، وحكم الشريعة فيه ، وقدم فتواه فى هذه المشكلة وغيرها .

وإنا نرى أن عناية الإمام محمد عبده بالمرأة ومشكلاتها لم يكن خبط عشواء ، وإنما هى انعكاس لإدراكه بقيمتها ودورها الفاعل والمؤثر فى الأسرة ، ففى صلاحها وصلاح أحوالها صلاح المجتمع ككل ، بل هى إن جاز لنا التعبير مدخل الإصلاح فى الحياة الإجتماعية ، ولما لا فالأم كما قال الشاعر :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

ونظرًا لأن المرأة لبنة الأسرة الأساسية ، فقد وقف معها الإمام ومع قضاياها موقفًا واقعيًا وثوريًا عُدّ فى نظر البعض من أبرز المواقف الإصلاحية التى شهدها عصر الإمام محمد عبده[1] .

وهنا يحق لنا أن نلقى نظرة عامة على الحياة الإجتماعية فى عصر الإمام محمد عبده لنقف على حال المرأة فى عصره ، ورؤيته لإصلاح الحياة الإجتماعية من خلال نظرته إلى المرأة ودورها فى المجتمع .

لا نبالغ إذا قلنا أن الإصلاح هو محور الإرتكاز فى الفكر الإجتماعى للإمام محمد عبده .

ولعل من العوامل التى دفعته إلى العناية بالمجتمع المصرى ومشكلاته

١ـ الأعمال الكاملة ج ١ ، ص ١٧٣ .

والعمل لحلها هو إشتغاله فى القضاء بالمحاكم الشرعية ، وعمله كمستشار فى محكمة الإستئناف ، وتوليه الإفتاء ، وعضويته فى مجلس شورى القوانين وغيرها من وظائف جعلته بصيرًا بأحوال المجتمع وما آل إليه من حال الفوضى والإنقسام وخاصة المشكلات الأسرية التى تتضرر منها المرأة فى المقام الأول كمسألة طلاقها ، أو عدم الإنفاق عليها ، أو الزواج بغيرها ، وغيرها من مشكلات الأحوال الشخصية ، فضلا عن بعض صور الفساد والتفكك وانعدام التآلف والروابط بين أفراد المجتمع ، وتمسك أفراده بعادات وتقاليد سيئة ارتبطت لديهم بالدين ، فألبسها البعض ثوب القداسة ، وتمسك بها العامة تمسكهم بالدين ، وكذلك انتشار الجهل والأمية وما يصاحبه من فقر مادى وتخلف حضارى [1] وبالجملة ما أصاب المجتمع المصرى من جمود وتخلف عن مواكبة العصر فى تقدمه العلمى والفكرى كان هو الدافع الأول وراء الجهود الإصلاحية للإمام محمد عبده بعامة والاهتمام بإصلاح أحوال المرأة بخاصة .

ثانيًا : حال المرأة فى عصر الإمام

وبنظرة إلى ما كانت تعانيه المرأة فى عصر الإمام من مشكلات نجد أنها كانت تعانى الحرمان من التعليم ، النظرة الدونية لها فى قدراتها العقلية بالقياس إلى الرجل ، الحرمان من العمل ، الشقاق الزوجى ، الطلاق ، تعدد الزوجات وغيرها من مشكلات شائكة ، والحديث عنها آنذاك يحتاج إلى جرأة وشجاعة لم يعدمها الإمام محمد عبده . وإن أعانه أيضًا فيما نرى على تحقيق دعوته

١ـ انظر فى هذا الموضوع د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث جـ ١ ، والعقاد : على الأثير ص ٧ ـ ١٥ ؛ دكتور. على عبد الفتاح المغربى : الفكر الإجتماعى عند الإمام محمد عبده ، ضمن الكتاب التذكارى عن الإمام ص١١٤ .

الإصلاحية إرهاصات الفكر الاجتماعى فى عصره على نحو ما وجدنا عند **رفاعة الطهطاوى فى موقفه من** المرأة ورأيه فيها وفى قدراتها ، ففى رأيه أنه ليس هناك نقص طبيعى فى تكوين المرأة عن الرجل ، وأن ضعف الصفات البدنية لدى المرأة لا يعنى ضعفًا فى قدراتها العقلية ، ولهذا أيد تعليم المرأة ، ووقف مع حجابها واحتشامها لا حجبها فى البيت وحرمانها من العمل ، ودعى إلى إقامة الحياة الزوجية على المودة والمحبة وشعور كل من الزوجين بالمسئولية ، أما عن مشكلة تعدد الزوجات فقد رأى الطهطاوى أن تعدد الزوجات وإن كان مكروها فإنه مباح بشرط العدل[1] لقوله ﷺ : « أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

ولا يفوتنا أيضًا أن نذكر **اهتمام يعقوب صنوع** بمشكلة تعدد الزوجات والتى عرضها فى مسرحتيه الإجتماعية الساخرة (الضرتان) فقد بث فيها دعوته إلى الإخاء بين البشر ، وضرورة مراعاة مشاعر الزوجة عندما يكون لها ضرة ، كما دعى إلى الحرية السياسية والمساواة الاجتماعية [2] .

أما قاسم أمين (محرر المرأة) والداعى إلى اصلاح أحوالها من خلال كتاباته الجريئة ـ فى عصره ـ فقد اتفق مع الإمام محمد عبده فى كثير من جوانب الفكر الاجتماعى المتعلق بالمرأة ومشكلاتها فها هو يثنى عليه حين يجد من الإمام اهتمامًا بمسألتين أثارهما فى كتابه تحرير المرأة (ألفه عام ١٨٩٩) ولم يغفلها فى كتابه (المرأة الجديدة) (ألفه عام ١٩٠٠) وهما مسألة تعدد الزوجات ، ومسألة تخويل المرأة حق الطلاق ، ويقول قاسم أمين عن هاتين

١ـ د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، المبحث الثانى جـ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٩٤ .

٢ـ د. محمد عمارة : رفاعة الطهطاوى رائد التنوير فى العصر الحديث ، ص ٢٨٥ ـ٣٦٨ ، دار المستقبل العربى ١٩٨٤ .

المسألتين أنهما : « من أهم المسائل التى استلفتنا إليهما الأنظار فى كتاب تحرير المرأة ، ويسرنا أن عالمًا عظيمًا وفقيهًا حكيمًا مثل الشيخ محمد عبده رأى أنهما جديرتان بهمته فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما [1] ».

ولعلنا نجد اتفاقًا [2] كبيرًا بين رأى قاسم أمين والإمام محمد عبده فيما يتعلق بالإصلاح الإجتماعى للمرأة المصرية خاصة وهو يبدى تقديره للتقرير

١ـ قاسم أمين : المرأة الجديدة ، ص ١٣٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

٢ـ هذا الاتفاق ليس اتفاقًا بالكلية وإنما رأى ثمة جوانب للاختلاف بينهما فيما يتعلق بمسألة **الحجاب فبينما** يرى الإمام أن الشريعة الإسلامية أباحت للمرأة بكشف الوجه والكفين ، وأن موضوع الحجاب لا يدخل تحت دعوى أنه من آداب المرأة ، لأن الأدب فى رأيه واحدًا بالنسبة للرجال والنساء ، وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال والملابس . وان القول بأن الحجاب للمرأة خوفًا من الفتنة فإنه أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقدير ، **إذا ليست أسباب الفتنة من أعضاء المرأة الظاهرة بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات فى أثناء مشيها . وهو يرى أن الإنتقاب والتبرقع** ليسا من المشروعات الإسلامية لا للتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام ، وإنما من مشروعات الإسلام ضرب الخمر على الجيوب ، انظر فى الأعمال الكاملة الجزء الخاص بحجاب النساء ص ١٠٥ ـ ١١٣ .

أما قاسم أمين فإنه يرى الحجاب منافى للحرية الإنسانية ، وأنه صار بالمرأة بحيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التى خولتها لها الشريعة الغراء !! بل والضرر الأعظم للحجاب فى رأيه أنه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها !! وأن السبيل لخروج المصريين من الحالة السيئة التى يشكون منها هى تحرير نسائهم من قيود الجهل والحجاب!! بل يرى قاسم أمين أن الحجاب والحرية وإن غدا وسيلتان لصيانة المرأة فما أعظم الفرق بينهما فالوسيلة الأولى تضع المرأة فى وصف الأدوات والأمتعة ، وتجنى على الإنسانية والثانية تخدم الإنسانية وتسوق المرأة باعتباره وسيلة لحشمتها التزاما بتعاليم الإسلام ، **أغلب الظن أن قضية تحرير المرأة من قيد الجهل والعبودية كان لها مدخل فى** وصف المرأة بالأدوات والأمتعة !! انظر المرأة الجديدة ص ٤٩ ، ٩٩ ، ١٤٠ .

الذى وضعه الشيخ محمد عبده بشأن إصلاح المحاكم الشرعية وضمنه إصلاحًا كبيراً فى العائلات المصرية ، وخاصة فيما يتعلق بمسألة تعدد الزوجات وغيرها من قضايا ومشكلات تخص الأسرة بعامة والمرأة بخاصة وانتهى فيها إلى كتابة فتاويه وفقًا لفقه المالكية فى إحدى عشرة مادة وافق عليها الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر[1] .

لقد كان إيمان الإمام محمد عبده وقاسم أمين بقيمة المرأة ودورها الفعال فى البناء الإجتماعى للأسرة والمجتمع لا حد له ، فقوام العائلة ونظامها ، كما يقول قاسم أمين فى يد المرأة ، كيف لا وعملها فى المجتمع هو تكوين أخلاق الأمة ، تلك الأخلاق التى أثرها فى الاجتماع ، من حيث ارتقاء الأمم وانحطاطها ، يفوق آثار النظام والقوانين والديانات **ويستشهد على ذلك بفنلون** حين يقول : « إن الواجبات التى تطالب بها النساء هى أساس الحياة الإنسانية ، فالمرأة تدير جميع شئون العائلة ، وبهذا العمل يكون لها أعظم نصيب فى إصلاح الأخلاق أو إفسادها ، ليست الأمة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل ، وإنما هى مجموع العائلات وما من أحد يمكنه أن يهذب العائلة سوى المرأة ».

ويؤيد جان جاك روسو هذا المعنى أيضا فيقول : « يكون الرجال كما تكون النساء فإذا أردت أن تجعل الرجال من ذوى الهمة والفضيلة فعلم النساء » [2] .

١ـ لمزيد من التفصيل انظر فتاوى الإمام فى الأسرة ومشكلاتها ص ٦٦٣ـ ٦٦٩ فى الجزء الثانى من الأعمال الكاملة للإمام . وانظر قاسم أمين المرأة الجديدة ص ١٣٤ ـ ١٣٧ ، وكتاب تحرير المرأة ص ٥٧ ـ ٧٠ طبعة ١٩٢٨ .

٢ ـ انظر المرأة الجديدة : ص ٧٣ ، ٧٩ـ٨٠ .

هكذا كانت المرأة فى أعين رواد التنوير[1] فى العصر الحديث شرقيون كانوا أو غربيون ، فقد قدروا المرأة وعرفوا مكانتها ودورها الذى يتعدى تربية الأطفال وتعليمهم وتهذيبهم إلى التأثير على جميع من يعيش حولها من الرجال ؛ فالرجل الناجح كما يقول قاسم أمين ، يعزى نجاحه إلى زوجته التى سهلت عليه وسائل النجاح ، ووفرت له أسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لأعماله ، وهى التى تشارك الزوج والأخ والابن والوالد فى متاعبهم ، وهى التى تقوى عزائم الرجال إذا ما أصابهم اليأس أو اعترضتهم المشاكل [2] .

والمرأة فوق هذا وذاك إذا ما هُيأت لها الظروف للعلم والتعلم ، فإنها تتساوى مع الرجل فى الإنجاز وإتقان العمل ، بل قد يكون لها السبق فى التفوق والنجاح وها هو التاريخ كما قال قاسم أمين قد خلد ذكر عدد ليس بالقليل من النساء لشهرتهن بالعلوم والمعارف أو بالأعمال العظيمة ، ولهذا نراه يؤكد على أنه « لا يوجد علم من العلوم ولا فن من الفنون إلا وقد برهنت المرأة فيه على أنها مستعدة إلى أن تصل إلى أعلى مراتب الكمال الإنسانى [3] .

---

(١) يستشهد قاسم أمين ببعض النساء العالمات الذين أسدوا إلى الإنسانية أجل الخدمات مثل :

ـ ماريا متشل التى كانت معلمة لعلم الفلك ، وعُينت مديرة « لرصد خانة » فى أمريكا .

ـ صوفى جرمين صاحبة الإختراعات الجليلة فى العلوم الطبيعية .

ـ كارولين هرشل التى يعزى إليها اكتشاف سبعة نجوم .

ـ مدام استيل التى يعزى إليها الفضل فى تعريف ألمانيا لأوربا .

وغيرهم كثيرين فى مجال العلم أما فى مجال الأدب والفلسفة فنجد « لافايت » ، وجورج ساند التى يقول عنهما قاسم أمين أنه لم يسبقهن رجل فى فن الكتابة .

٢ـ المصدر السابق : ص ٨٣ .

٣ ـ انظر المرأة الجديد : ص٨١ .

بل ويشهد التاريخ العربى والإسلامى القديم والحديث على وجود كوكبة لامعة من النساء العربيات فى كافة مجالات العلوم والفنون والمعارف مما لا يتسع المجال لذكر إنجازاتهن فى ميدان العلم والعمل فضلا عن دورهن الأساسى فى إدارة شئون عائلاتهن . وهذا كله مما عظم من مكانة المرأة وكشف دورها الإيجابى فى الأسرة والمجتمع كعضو فاعل ونافع لها ولمن حولها يستوجب من أسرتها ومن الدولة تدعيمها وتعضيد مساعيها فى العمل والإنتاج ، وهو أيضًا ما حرص الإمام محمد عبده على تأكيده إيمانًا منه بالدور المؤثر للمرأة داخل البيت وخارجه **حين قال** : « إن الأمة تتكون من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها ... ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة » (١) .

ثالثا : نظرة نقدية لأهم قضايا المرأة فى رأى الشيخ محمد عبده

لعل من أبرز قضايا المرأة التى ناقشها الإمام محمد عبده فى مؤلفاته واجتهد فى وضع الحلول لها قضيتان وهما : قضية تعليم المرأة وقضية التملك. و نعرض لهاتين القضيتين بإيجاز كما رآها الإمام محمد عبده ، مدعمين رأيه بفتواه التى تؤكد حق المرأة فى التعليم من جهة ، وحقها فى التملك من جهة أخرى .

١. موقف الإمام محمد عبده من قضية تعليم المرأة :

الواقع الإجتماعى للمرأة المصرية فى عصر رائدى التنوير قاسم أمين ومحمد عبده كان مليئًا بالوقائع المحزنة ، **كما يقول قاسم أمين** : « فالرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان إلا فى لحظات قليلة ، وأنهما يتحاربان آناء الليل وأطراف النهار ، يريد الرجل أن ينتهز ضعف المرأة وجهلها ليجردها من كل ما تملكه ويستأثر وحده بالمنافع ، وتجتهد المرأة على قدر إمكانها فى الدفاع عن نفسها ، ولا تجد إلى ذلك سبيلاً » (٢) .

---

(١) انظر الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : جـ ١ ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ولهذا نادى الإمام محمد عبده بتعليم المرأة منذ وقت مبكر ، ودافع عن قضية تعليمها متضامنًا من وراء ستار مع تلميذه قاسم أمين فيما جاء بكتاب (تحرير المرأة) ، وتمنى أن تنهض القلة المستنيرة من النساء المتعلمات بتكوين جمعية نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات ، وقد حبذ هذا الدور لهنّ على ما يشغلهنّ من أمور السياسة واستقبال عليه القوم فى الصالونات [1] .

فمع اتفاقهما (أى محمد عبده وقاسم أمين) بأن أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى المجتمع هى أن تتزوج وتربى أولادها ، فإن الخطأ فى أن نبنى على ذلك أن المرأة ، كما يقول قاسم أمين ، لا يلزمها أن تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها إن كان لها أولاد صغار عند الحاجة [2] .

الشائع فى عصر الإمام كما يقول قاسم أمين ، أن المرأة خُلقت للأعمال التى تحافظ على قواها الحيوية وتعدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الإنسانية ... وأنه مهما اختلفنا فى تحديد وظيفة المرأة فى العالم ، فلابد أن نعترف أنها لا يمكنها أن تتخلى عن الأعمال والمعارف التى تتعلق بواجباتها العائلية ؛ وأن كل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الأعمال يكون نافعًا ، فضلاً عن تعلمها ما يؤهلها إلى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها ... ولهذا كله شاع الظن أن المرأة فى غنى عن أن تتعلم وتعمل [3] .

المدخل لتأييد الإمام محمد عبده لقضية تعليم المرأة ، فيما وقفنا عليه من كتاباته هو الجهل الذى كانت تعيشه المرأة فى عصره ، وهو ينفى أن يكون هذا الجهل هو سبب العفة والحياء ـ كما يزعم بذلك خصوم تعليم المرأة ـ وحجته فى ذلك أن العفة والحياء عند المرأة إنما هو بحكم العادة ، أو قليل جداً من

١ـ انظر محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ١ ص ١٧٤ .

٢ـ انظر المرأة الجديدة : ص ٦٤ .

٣ـ انظر قاسم أمين : المرأة الجديدة ، ص ٥٧ .

موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، **وقد ترتب على هذا الوضع بالنساء إلى أن أصبح « يحشو أذهانهن الخرافات ، وملاك أحاديثهن الترهات ، اللهم إلا قليل منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن .. »** [1] .

ومع مناشدة رائدا التنوير قاسم أمين ومحمد عبده كل أب أن يعلم ابنته وأن يعتنى بتربيتها كما يعتنى بتربية أولاده الذكور ، **بيّنا أن التعليم مطلوب لذاته فضلاً عن فوائده المادية والمعنوية للمرأة ، فالبنت إذا تزوجت كما يقول قاسم أمين ، لن تضار بعلمها ، بل على العكس تستفيد منه كثيرًا** ، وتفيد عائلتها ، وإن لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها .. أمكنها أن تستخدم معارفها فى تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها ، ولهذا أكد على ضرورة أن تُربى المرأة على أن تكون لنفسها أولاً لا أن تكون متاعًا لرجل ، وأن تدخل المجتمع الإنسانى ، وهى ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل ، وأن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها لا فى غيرها .

ويلفت أنظارنا إلى تفوق المرأة على الرجل فى بعض الحرف كالتربية والتعليم ، والطب ، والتجارة ، وجميع الحرف الأدبية ، فالمرأة فيما يرى قاسم أمين ومحمد عبده أشد استعدادًا لتربية الأطفال وتعليمهم من الرجل ، وأدرى منه بطرق استمالتهم واكتساب محبتهم .

وفن الطب هو من الفنون التي تلائم استعداد النساء الطبيعى ، فالمرأة بما جُبلت عليه من الرأفة والجلد والإعتناء الشديد صالحة لمثل ما يصلح له الرجال من معالجة الأمراض ، إن لم يكن أشد صلاحية لذلك منهم .

والمرأة أيضًا صالحة لأن تشتغل بجميع الأعمال التى قوامها الترتيب

١ـ محمد عبده : الأعمال الكاملة ، الجزء الثالث « الرد على هانوتو » ، الجزء الأول : الأسرة والمرأة ، ص ١٧٤ .

والتنظيم كالتجارة فبأيدى النساء ارتفعت العديد من البيوت التجارية بعد أن سقطت من أيدى الرجال[1] .

بهذه النظرة التنويرية دافع قاسم أمين ومحمد عبده عن قضية تعليم المرأة وتربيتها من جانب العقل والروح معًا ، لأنهما السبيل لسعادة الإنسان ، **بل ورأى قاسم أمين : « أن المصريين إذا أرادوا أن يترقوا وجب عليهم أن يعملوا لارتقاء شأن المرأة المصرية »**[2] .

وقد أيّد هذا الرأى عدد من الرجال من مسلمى الهند ممن توصلوا بأبحاثهم إلى الاعتراف بقيمة المرأة وأهمية وظيفتها فى المجتمع ومنهم **الأمير على القاضى الذى** قال : **« ما من مقياس يُقاس به ارتقاء الأمم مثل منزلة المرأة فيها ، فإذا أراد مسلمو الهند أن يرتقوا وجب عليهم أن يُعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التى كانت فيها فى صدر الإسلام »**[3] .

أما الباحث **الهندى عناية حسين** فمع تأكيده على أهمية تعليم المرأة يرى أن تقدم المجتمع ونجاحه ، إنما يكون بمساواة المرأة بالرجل ويقول أن : « الطفل هو والد الرجل ، وأنه متى كانت الأمهات جاهلات لا يقدرن على بث أنوار المبادىء الأدبية والتهذيبية فى نفوس أولادهن ، ولا يرقين عقولهن ، ولا يقوين أبدانهن بالوسائل الصحية فإننا نبقي إلي الأبد في آخر صف من صفوف الأمم »[4] .

١ـ انظر الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جـ ١ ، ١٧٣ ـ١٧٤؛ المرأة الجديدة ص ٦٩، ٧٠ ـ٧٢ .

٢ـ المرأة الجديدة : ص ٩٢ .

٣ـ انظر مقال « النساء فى الإسلام » مجلة « المقتطف » عدد يونية ويوليو ١٨٩٩ .

٤ـ انظر جريدة المؤيد ، عدد ١٤ يوليو ١٩٠٠

هكذا كانت قضية تعليم المرأة هى الشغل الشاغل لرواد التنوير فى مطلع القرن العشرين وعلى رأسهم الإمام محمد عبده ، فقد جاهدوا ما وسعهم الجهد لدفع المرأة لطلب العلم لأنه مع كونه فريضة على كل مسلم ومسلمة فهو وسيلتنا للرقى وسبيلنا للتقدم وملاحقة الغرب فى تفوقه .

٢.قضية التملك عند المرأة من منظور الشيخ محمد عبده :

أما عن رأى الإمام محمد عبده فى قضية تملك المرأة فقد عرض لها فى الجزء الثانى من أعماله الكاملة مشيراً إلى استقلال المرأة الإقتصادى وهو ما نسميه اليوم (بالذمة المالية) ، فللمرأة ذمتها المالية المستقلة عن الرجل سواء كان الأب أو الأخ أو الزوج ، ولها فى أن تتصرف فى أموالها دون إذنه ، وقد وقفنا على هذا الرأى من فتواه لكريمة المرحوم إسماعيل باشا حمدى التى كانت تملك مائة سهم من السهام الأساسية (لقومبانية) (أى شركة) قناة السويس وعندما أرادت سحبها نازعتها الشركة بدعوى ان الزوجة لا يجوز لها أن تتصرف فى أملاكها إلا بعد إذن زوجها .

وقد أفتى الشيخ محمد عبده بأن الحكم الشرعى فى هذه المسألة أن السيدة صاحبة هذه السهام والمالكة لها ، من حقها استلامها بنفسها ، ولا يتوقف ذلك على إذن زوجها [١] .

والرأى عندى أن فتوى الإمام محمد عبده بحق المرأة فى الإنفراد بالتصرف فى أموالها الخاصة يتفق ورأى الشرع وما قرره الإسلام بالمساواة بين الرجل والمرأة فى الشئون المالية كالتبرع والصدقة والدَّيْن والوقف ، والبيع والشراء ، والوكالة والكفالة ، والقتل والسرقة ، ولا يتوقف شىء من تصرفاتها

---

١ ـ انظر الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جـ ٢ ، ص ٥٢٠ ـ ٥٢١ .

على موافقة الأب أو الزوج طالما أن المرأة راشدة بالغة . فى حين أن الزوجة الفرنسية ، كما يقول زهدى سكين[1] لا يمكنها التصرف بأموالها الخاصة ، ويجب عليها أن تحتفظ بحق الإنتفاع للزوج ، ولا يمكنها أن تتصرف بالرقبة ـ أصل البيت ـ هبة أو بيعًا إلا بإجازة الزوج ، وإذن المحكمة وحده لا يكفى .

وهذا وغيره مما يدل على سماحة الإسلام وحرصه على خصوصية الفرد رجلاً كان أو امرأة .

رابعًا . رأى الشيخ محمد عبده فى بعض مشكلات المرأة فى ضوء تفسيره للقرآن

يبقى لنا أخيرًا أن نعرض لرأى الشيخ محمد عبده فى بعض مشكلات المرأة ونخص منها بالذكر فى هذا المقام مشكلتى تعدد الزوجات ، والطلاق التى كثر الحديث فيها فى عصر الإمام واختلفت الآراء بشأنها ، وتعددت الكتابات حولها ، ومنها ما كتبه الإمام منذ كان رئيسًا لتحرير الوقائع المصرية[2] ، وضمنّه فتاويه[3] التى استندنا إليها للوقوف على رأيه وهو ما سنعرضه أيضًا على ضوء فهمه الصحيح للأحكام الشرعية المتعلقة بهاتين المشكلتين .

١ . مشكلة تعدد الزوجات وفتوى الإمام محمد عبده فيها :

حين تصدى الإمام للحديث عن مشكلة تعدد الزوجات ، وكذا الكتابة فيها ، حرص على توضيح ثلاث جوانب رئيسية فى هذه المشكلة وهى :

١ ـ الآثار النفسية السلبية لمشكلة التعدد على النساء والأطفال .

---

١ ـ انظر كتابة الأزواج : ص ٢٢٤ ؛ وانظر أيضًا كتاب المرأة المسلمة : ص ٤٦ ـ ٤٧ .

٢ ـ انظر الوقائع المصرية : عدد مارس ١٨٨١ .

٣ ـ فتوى الإمام فى تعدد الزوجات نشرت فى الجزء الأول من المجلد الثانى والعشرين مارس ١٩٢٧ ، وقد قال الشيخ رشيد رضا فى تقديمه لها أنه «أنه فضل نشرها لتصدى الحكومة المصرية لتقييد إباحة التعدد ، وكثرة الكلام فيه » ، انظر ص ٢٩ ـ ٣٥ .

٢ـ حكم الشريعة فى مسألة تعدد الزوجات .

٣ـ فتوى الإمام فى إباحة تعدد الزوجات .

فبعد أن بين الإمام محمد عبده أن تعدد الزوجات ليست مشكلة قاصرة على الشرق وحده دون الغرب ، وإنما هو أمر عام ليس مرهون بجنس أو دين ، بغنى أو فقير ، وإن كان الغالب على الرؤساء وأهل الثروة الميل إلى تعدد الزوجات ، نراه يهتم ببيان الآثار النفسية السيئة لمشكلة تعدد الزوجات على النساء والأطفال معًا وذهب إلى القول بأن شدة تمكن الغيرة والحقد فى قلب المرأة تدفعها إلى أن تزرع فى ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لأخواته أولاد النسوة الأخريات مما يترك أثرًا سيئًا فى نفس الطفل لا يقوى على إزالته بعد تعقله ، فيبقى نفوراً من أخيه عدواً له ، لا نصيراً ، وظهيراً له على اجتناب الفوائد ودفع المكاره كما هو شأن الأخ) [1] .

والإمام محمد عبده لا يجد غضاضة من التصريح بأن فى تعدد الزوجات احتقار شديد للمرأة حين تجد امرأة أخرى تشاركها فى زوجها ، فضلاً عن الضرر النفسى الذى يقع على المرأة حين تجد زوجها ارتبط بإمرأة أخرى ، فضلاً عن أن وقائع المنازعات بين النساء وأزواجهن والجنايات التى تقع بينهم مما لا يكاد يحصى شاهد فى رأى الإمام ، على أن تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وين أزواجهن ، ومصدر لشقاء الأهل والأقارب ، **بل ويصرح بأن : « من يدعى أن نساءنا يرضين بمشاركتهن فى أزواجهن ويعيش فى ذلك بإطمئنان وراحة بال ، فإنه غير عارف بما عليه حال النساء فى البيوت »** [2] .

---

١ ـ الأعمال الكاملة للإمام : جـ ٢ ، ص ٧٨ .

٢ ـ الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جـ ٢ ، ص ٨٣ .

لهذه الأسباب ذهب الإمام إلى القول بأن خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة ليستطيع أن يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفى زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة ، بل وذلك أقرب إلى الوصول إلى سعادته .

وإذا كان التشريع الإسلامى قد علق وجوب الإكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، فالباحث فى آيات الذكر الحكيم يجد أن فيها ما يتضمن إباحة للتعدد لقوله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [1] .

وهنا آيات تفيد خطراً للتعدد حين تصرح بأن العدل غير مستطاع ، كما جاء فى قوله عز وجل : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2].

وقد انتهى الإمام من بحثه فى مشكلة تعدد الزوجات إلى أن الرجل لا يعذر إذا تزوج بأكثر من امرأة ، إذ لا مبرر لزواجه الثانى أو الثالث أو الرابع ، فالتعدد هنا فيما يرى الإمام ما هو إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية ، وهو علامة على فساد الأخلاق واختلال الحواس وشره فى طلب اللذائذ[3] .

ويستثنى الرجل من هذا العذر (أى زواجه بامرأة أخرى) فى حالة الضرورة المطلقة عندما تصاب زوجته بمرض لا يسمح بتأدية حقوق الزوجية ، أو إذا كانت عاقراً ، وإن رأى الإمام أيضاً بأن على الرجل فى كلتا الحالتين أن يصبر على ما ابتلى به إذ لا ذنب للمرأة فيما أصابها وعليه أن يشاركها آلامها .

---

١ ـ سورة النساء الآية : ٣ .

٢ ـ سورة النساء الآية : ١٢٩ .

٣ ـ الأعمال الكاملة : جـ ٢ ، ص ٨٥ .

ويُحل الإمام تعدد الزوجات إذا أمن الرجل الجور . وهذا الحلال هو كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى من المنع والكراهة ، بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح فالإسلام فيما يرى الإمام ، عندما أباح التعدد المحدود إنما كان يريد الخروج من ظلم أشد إذ كان الرجال الذين يكفلون اليتيمات يتزوجون بهن طمعًا فى مالهن فشرّع الإسلام الزواج من واحدة إلى أربع خوفًا من ظلم الرجال لهن ، وإن اشترط أيضًا تحقق العدل المطلق فى حالة التعدد وإلا يجب الاقتصار على زوجة واحدة[١] .

ويؤكد الإمام فى فتواه فى موضوع تعدد الزوجات إلى أن نبينا الكريم قد أصلح هذه العادة السيئة عند بعض الرجال استنادًا إلى الشرع رحمة بالنساء وتقريرًا لحقوقهن وحكمًا عدلاً يرتفع به شأنهن ، وليس الأمر كما يقول الكتاب الغربيون من أن ما كان عند العرب عادة جعله الإسلام دينًا[٢] .

والملاحظ أن الإمام حرص على أن ينهى فتواه فى هذه المسألة بأنه يجوز منع تعدد الزوجات وحجته فى ذلك أن العدل المطلق شرط واجب التحقق ، وتحقيق هذا العدل (مفقود حتمًا) ووجود من يعدل فى حالة التعدد هو أمر نادر لا يصح أن يتخذ قاعدة ، فضلاً عن أن فى التعدد ضررًا محققًا يقع بالزوجات ويجلب العداوة بين الأبناء بل ولم يجد حرجًا من أن يصرح بأن للحاكم وللعالم أن يمنع تعدد الزوجات مطلقًا [٣] .

هكذا كان الإمام محمد عبده رجلاً مستنيرًا فى رأيه وفتواه حول موضوع تعدد الزوجات ، وقد عوّل فيهما كما رأينا ، على العقل والنقل معًا .

٢. مشكلة الطلاق من المنظور الشرعى للإمام محمد عبده :

كان الإمام محمد عبده رحمه الله منصفًا وعادلاً حينما ناقش مشكلة

١ـ انظر الأعمال الكاملة للإمام جـ ٢ ص ٨٨ ـ٩٣ ، جـ ١ ص ١٧٦ ـ١٧٩ .

٢ـ انظر الأعمال الكاملة لمحمد عبده جـ ٢ ص ٩٠ .

٣ـ انظر الأعمال الكاملة لمحمد عبده جـ ١ ص ١٧٩ .

الطلاق إذ لم يتحيز للرجل وإنما ناقش المشكلة وعالجها فى كتاباته وفى فتاويه على ضوء فهمه الصحيح للكتاب والسنة ، وفيما قننه من قوانين للمحاكم الشرعية [1] تحكم بموجبه إذا تضررت الزوجة من غياب زوجها .

الطلاق كما هو معروف ، هو فصل عصمة المرأة من الرجل وهو فى رأى الإمام عمل يقصد به رفع قيد الزواج ، وهو كذلك عملاً شرعيًا يترتب عليه ضياع حقوق وإنشاء حقوق جديدة ، والطلاق لا يقل عن الزواج فى الأهمية لأنه يتعلق به النسب والميراث والنفقة والزواج .

والطلاق لا يكون طلاقًا إلا إذا كان مصحوبًا بنية الانفصال ، فالناظر فى كتب الشريعة كما يقول الإمام يجد ما يفيد عدم صحة الطلاق إذا فقدت نية الانفصال ، ويستشهد بما نقل عن (شرح التعليق) إن الرجل لو طلق زوجته بكلمة أو كلمات فى حال الغضب أو النزاع لا يقع طلاقه ، ولحديث علىّ رضى الله عنه : « من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب واللجاج فرّق الله بينه وبين أحبائه يوم القيامة » [2] **وبهذا يصرح الإمام بأنه من غير المعقول أنْ يقع الطلاق بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة ، ويجب عدم الالتفات إلى اللفظ فى الأعمال الشرعية إلا من جهة كونه دليلاً على النية .**

ومع أن الإسلام ينفر من الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله لضرره على كيان الأسرة بعامة والمرأة بخاصة ، ولتعارضه مع دعوة الإسلام إلى إقامة العلاقة الزوجية على أساس المحبة والمودة لقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [3] .

---

١ ـ انظر الأعمال الكاملة لمحمد عبده ، جـ ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

٢ ـ المصدر السابق جـ ٢ ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

٣ ـ سورة الروم الآية : ٢١ .

فنجد أن هناك العديد من الحالات التى تستوجب إنهاء العلاقة الزوجية بالطلاق، ويرى الإمام أن الطلاق يجب أن يكون بيد القاضى فى بعض الحالات مثل :

١ـ تضرر الزوجة من هجر الزوج بغير سبب شرعى .

٢ـ الضرب والسب بدون سبب شرعى .

٣ـ حدوث النزاع واشتداده مع عدم انقطاعه [١] .

وهنا يقول الله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٢] .

ويرى الإمام أن فى آيات الكتاب العزيز المقررة للطلاق نعما كثيرة أفاض الله بها على المسلمين ففيها حكمة وتدبر، وتدرج فى عقاب الناشز، ومحاولة للإصلاح قبل احتدام الخلاف كقوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [٤] .

ومع أن فى القرآن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة ، وهو واحد رجعى دائمًا فقد عمل الفقهاء فيما يرى الإمام ، على تضييق دائرة الطلاق ، ولم يراعوا فى التفريق تطبيق هذا الأصل على طريقة واحدة مساوية ، ولهذا انتهى إلى أن إباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، ولكنها المضرات التى لا يستغنى عنها .

ولعل هذا ما حدا بالغرب إلى الميل فى التوسع فى الطلاق رغم

١ـ الأعمال الكاملة جـ ١ ص ١٧٤ .

٢ـ سورة النساء الآية : ١٩ .

٣ـ سورة النساء الآية : ٢١ .

٤ـ سورة النساء الآية : ٣٥ .

معارضته للكنيسة وإصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له أن يتزوج لعدم اعتبارها ذلك الطلاق[1] .

ولهذا يطالب الإمام بالأخذ بقول بعض الأئمة من أن الاستشهاد شرط فى صحة الطلاق كما هو شرط صحة الزواج مشيراً إلى أننا إذا اعتبرنا وجود الشهود وقت الطلاق ركن فإن فيه موافقة لآية من كتاب الله ، ورعاية لمصلحة الناس .

وقد حدد الإمام محمد عبده الطريقة المثلى لتلافى فوضى الطلاق فى خمس مواد قانونية مقترحة هى :

١ـ كل زوج يريد أن يطلق زوجته عليه بالحضور أمام القاضى الشرعى ويخبره بالشقاق بينهما .

٢ـ يجب على القاضى والمأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد فى الكتاب والسُنة من مقت للطلاق ويأمره بالتروى لمدة أسبوع .

٣ـ فى حالة إصرار الزوج على الطلاق ، وبعد مضى الأسبوع ، على القاضى أن يبعث حكمًا من أهل كل طرف أو عدلين من الأجانب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

٤ـ إذا لم ينجح الحكمان فى الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريراً للقاضى وعندئذ يأذن القاضى أو المأذون بالطلاق .

٥ـ لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وبحضور شاهدين ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية[2] .

هذا هو نظام الطلاق كما تمنى الإمام محمد عبده أن تطبقه الجهات

١ـ انظر الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : جـ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦ .

٢ـ الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جـ١ ص ١٧٤ ١٧٥ .

الرسمية فى الدولة ، وهو فى رأيه يتفق مع مقاصد الشريعة ولا يخالفها فى شىء لأنه لا يسلب حق الزوج فى الطلاق خاصة وأن العصمة بيده ، فضلاً عن الأسباب الموجبة للفراق بين الزوج والزوجة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فتخويل الطلاق للمرأة هو أمر تقتضيه العدالة والإنسانية .

ويرى الإمام أن ثمة طريقتان للوصول إلى منح المرأة حق الطلاق :

الطريقة الأولى : هو العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذى حرم المرأة من حق الطلاق لنقصان العقل والدين .

الطريقة الثانية : أن يستمر العمل على مذهب أبى حنيفة ولكن تشترط كل امرأة أن يكون لها الحق أن تطلق نفسها مؤكداً أن وضع الطلاق تحت سلطة القضاء أدعى إلى تضييق دائرة الطلاق ، وإدنى إلى المحافظة على نظام الزواج ، وإن رأى أيضًا أنه مهما ضيقنا حدود الطلاق ، فلا يمكن أن تنال المرأة ما تستحقه من الكرامة والتقدير إلا إذا منحت حق الطلاق[٢] .

هكذا كان الإمام محمد عبده حريصًا على الاهتمام بشئون المرأة ورعاية مصالحها والدفاع عن حقوقها الشرعية منها والمدنية إحقاقًا للحق ، واعترافًا بدور المرأة ومكانتها فى المجتمع .

خامساً: الخاتمة

لا يسعنا بعد هذه الإطلالة السريعة على بعض قضايا المرأة ومشكلاتها من المنظور الشرعى عند الإمام محمد عبده ، إلا أن نعرب عن تقديرنا لمواقفه الجرئية وثاقب رؤيته فى حلوله للقضايا والمشكلات التى عالجها كقضية تعليم البنات ، وقضية التملك ، ومشكلة تعدد الزوجات ومشكلة الطلاق .

١ـ انظر الأعمال الكاملة محمد عبده : جـ٢ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

ومع أن مثل هذه القضايا قد أصبحت الآن غير ذات موضوع بعد انتشار التعليم وثورة الاتصالات والمعلومات التى جعلت المعرفة متاحة للجميع ذكراً كان أم أنثى ، وما أحرزه العلم من تقدم نال منه الشرق الشيء الكثير ، إلا أن الحلول التى قدمها الإمام للمشكلات التى تصدى لعلاجها تعد حلولاً مستنيرة عكست فهمه الصحيح للدين الإسلامى ، وتمسكه بالكتاب والسنة ، فضلا عن إعماله للعقل ، ومرونته فى حل القضايا والمشكلات دون تعصب أو جمود ، ومساندته للمرأة للحصول على حقوقها المشروعة ، ودعوته لتحريرها من أسر الجهل والعبودية فكان بحق رجل دين ودولة .

وكل ما أرجوه أن أكون قد وفقت فى فهم آراء الإمام محمد عبده وأفكاره الخاصة بقضايا المرأة ، وأن أكون أحسنت العرض والتقديم لها ، وأن أسهم بجهدى المتواضع فى الاحتفاء بالإمام فى ذكراه المئوية .

ثبت المصادر والمراجع :

١ـ القرآن الكريم .

٢ـ الإمام محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ١ ، جـ٢ تحقيق وتقديم د. محمد عمارة ، دار الشروق ط ١ ١٩٩٣ .

٣ـ تفسير المنار جـ ٢ .

٤ـ قاسم أمين : المرأة الجديدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ .

٥ـ الوقائع المصرية عدد مارس ١٨٨١ .

٦ـ مجلة المتقطف عدد يونية ويوليو ١٨٩٩ .

٨ـ الإبراشى (محمد عطية) : مكانة المرأة فى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٩ـ الجندى (عبد الحليم) : الشريعة الإسلامية ، دار المعارف ١٩٧٨ .

١٠ـ الألبـانى (وهبى سليـمان غـاوجى) : المرأة المسلمـة ، دار العلم ، دمشق ، بيروت ط ١ ١٩٧٥ .

١١ـ أمـين (أحمـد) : فجـر الإسـلام ، مكتبـة النهـضة المصـرية ط١٤ ١٩٨٧ .

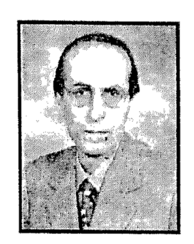
١٢ـ أمين (أحـمد) : ضحى الإسـلام ، الهيئـة المصرية العامـة للكتاب ٢٠٠٢ .

١٣ـ جورج بوزنر وآخرون : مـعجم الحضارة المصرية القديمـة ، ترجمة أمين سلامة ، مراجعة د . سيد توفيق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ .

١٤ـ شلبى (د. أحمد) : مقارنة الأديان ، جـ٣ الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ط ١٢ ، ١٩٩٧ .

١٥ـ طيارة (عفيف) : روح الدين الإسلامى .

Dr. Osman Amin : Lights on contemporary Moslem philosophy : The Renaissance Booshop , Cairo , p. 92.



الحياة الروحية والتصوف فى مفهوم الإمام محمد عبده

للاستاذ الدكتور/ أحمد محمود الجزار
رئيس قسم الفلسفة
ووكيل كلية الآداب بجامعة المنيا

مقدمة

الأفكار نوعان ، نوع يحيا فى العقول والقلوب حتى لو كان أصحابه أمواتًا فى القبور ، ونوع يموت ولا يحيا ولو كان أصحابه أحياءًا يرزقون ، **النوع الأول** هم المفكرون والمصلحون الذين عاشوا مشكلات أوطانهم فكانوا لها مصابيح هداية يكشفون لها مواطن الداء ويحددون الدواء ، وهؤلاء هم المفكرون العظام الذى يستحقون الاحتفاء بهم والإشادة والإعادة بل التنبيه على أهمية أفكارهم إذ هى التى تعنينا نحن المعاصرين لأنها ألصق بحياة الأمم ومشكلاتها ، ولأن فيها جهد قرائح هؤلاء المبدعين والمفكرين ، وهذا ما نجده لدى الأفغانى (ت١٨٩٧م) والإمام محمد عبده (ت١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (ت١٩٣٥) ومصطفى عبد الرازق (ت١٩٤٧) وغيرهم .

إن كل هؤلاء يجمعهم شىء واحد هو أن لهم رسالة يتمسكون بها ويحرصون على القيام بها ، تلك هى إصلاح حال الأمة الإسلامية فى هدى من أصول عقيدة الإسلام والحفاظ فى الوقت ذاته على خصوصية هذه الأمة وحضارتها بغير عصبية ممجوجة أو عرقية ممقوتة ، فهذه وتلك ليستا من دين الإسلام ولا من اعتداله وسماحته. من هنا تجىء أهمية أفكار هؤلاء المصحلين العظام ومن بينهم الإمام محمد

عبده موضوع هذه الإحتفالية وهو يستحق ذلك بل وأكثر منه فهو مفكر ومصلح دينى مستنير ، بل هو واحد من أعظم المصلحين والمجددين فى عالمنا العربى الإسلامى المعاصر. وإزاء عظمة هذه الشخصية وثراء فكرها لا يملك المرء بصدد الكتابة عنه في هذه المناسبة إلا لمحات تكشف عن حقيقة الحياة الروحية والتصوف من خلال مؤلفاته الثرية ثراء روحه الصافية وعقله الواعى المستنير . وليس يعنينا هنا الإبانة عن حياته الشخصية ، أعنى فى بداياته الأولى التي تلقى فيها بعضًا من تعاليم الصوفية على يد واحد من شيوخ الطريقة الشاذلية هو الشيخ درويش خال أبيه[1] فقد كان هذا الشيخ نموذجًا للصوفى الكامل علما وعملاً . أقول ليس من قصدنا هنا الإبانة عن الجوانب العملية التى أفادها من شيخه ، وإنما قصدنا الإبانة عن حقيقة الحياة الروحية والتصوف الذى يرتضيه إمامنا بحسب أصول الإسلام عقيدة وشريعة .

فإن سأل سائل وأى فائدة تعود علينا نحن المعاصرين من إثارة هذه القضية ؟ فالجواب عن ذلك هى تلك الإشارات التى تحويها كلمات شيخنا عن حقيقة الحياة الروحية والتصوف الناصع الذى يراه نبراسًا لنا نحن أبناء هذا العصر بكل ما فيه من مادية مسرفة ، لأن عصرنا هذا وباعتراف الغرب نفسه كانت تقدم الحضارة فيه بمفهومها المادى أكبر بكثير من تقدمها الروحى [2] . ولكى لا يكون هذا الجواب مصادرة منا على المطلوب ، يحسن أن ننتقل إلى بيان محتويات بحثنا .

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، تقديم وتحقيق الدكتور محمد عمارة ، دار الشروق ، القاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، الجزء الثانى ص ٣٢٢ وما بعدها . وأيضًا جـ ٣ ، ص٣٤٦ وما بعدها ، ص ٥٤٦ وما بعدها .

(٢) ألبرت أشفتسير : فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص١٠٧ .

أولاً : الدين والحياة الروحية

قد يكون من المفيد قبل أن نكشف عن مـلامح الحياة الروحية عند الإمام محـمد عبده أن نبين مفهـوم الدين كما حـدده الإمام ليتسنى لنا فى ضوء هذا المفهوم إبراز صلته الوثيقة بالحياة الروحيـة بوصفها تجليًا من ناحية ، ولنتبين فى الوقت ذاته كيف أن هذه الحياة الروحـية لا تنفك بدورها عن الكمال الأخلاقى من حيث أن الدين كـذلك لا ينفـصل عن الأخـلاق . وبديهى أن مـرادنا هنا الحديث عن الدين المنزل ، ويعرفه الإمام لذلك بأنه وضع إلهى ومعلمه والداعى إليـه البشـر ، تتلقاه الـعقـول عن المبشـرين ، ومنقـول عنهم بالبلاغ وبالدراسـة والتـعلم والتلقـين [1] . وإطلالة على هذا التعـريف تظهرنا على جوانب مـهمة داخلة فى نسيج الدين أو بعبارة أدق هى من صميم مكوناته ، **فأول جانب منه هو أن الدين الصحيح هو الدين المنزل من قبل الله ومن خلال رسله وهم الأنبياء لقوله تعـالى** ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [2] ، وقوله تعـالى فى شأن هؤلاء الرسل المصطفين ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [3] ، فالأنبياء إذن يدخلون فى ماهيـة الدين الصحيح المبلغ لهم وحيًـا ، ومن ثم فهم بدورهم يدخلون فى تبليغ غـيرهم مـا يجب لله وما لايجب ، ولكى يعـرفونهم لما فـيهم سعـادتهم فى الدارين [4] وتعريف الدين أيضًا على هـذا النحو السابق لا يعنى أن الإنسان خلو من معنى الدين أو بالأحرى من معنى التدين ، إذا الإذعان لقوة عليا تهيمن على الكون بأسره من قـبيل الأفكار المفطور عليها الإنسان ، ولذلك

---

(١) محمد عبده : الإسلا دين العلم والمدنية مع مقدمة للأستاذ الدكتور عاطف العراقى ، دار سينا للنشر ، ١٩٨٧ ص ٥١ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٦٥.

(٣) سورة الحج الاية : ٧٥ .

(٤) محمد عبده : رسالة التوحيد ، مطبعة النصر ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

أصبح الدين عند الإمام محمد عبده أمرًا مغروسًا فى كل النفوس [1] . وهذا يعنى أن الإقرار بالألوهية من قبل الإنسان شعور فطرى بداخله ، وهو الأمر الذى يؤكده الإمام من أن الإنسان كما يقول لديه شعور بأن فوق العالم الذى يعرفه لأعيانه وخواصه ومنافعها ومضارها .. موجودًا غيبيا له السلطان والتصرف [2] . **وهذه الفكرة التى يلح الإمام محمد عبده عليها نعنى فطرة الإنسان على التدين تؤكد أن الدين كما يقول من قبيل الأفكار الفطرية لدى كل أفراد النوع الإنسانى ، ولهذا حق له أن يؤكد أيضًا على أن الدين أول ما يمتزج فى القلوب ، ويرسخ فى الأفئدة**، وتصطبغ النفوس بعقائده ، وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرد الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال [3] . على أن هذا ليس هو المهم فى تعريف الدين باعتباره فكرة مغروسة أو فطرية فى النفس الإنسانية ، بل الأهم منه عند الإمام محمد عبده أن كل الأفراد الذين تستشعر ذواتهم معنى الدين يوقنون بعقائده متى عرفوها ، ويأخذون نفوسهم وأبدانهم بتكاليفه أو عباداتة. فلأجل ذلك كانت الأبدان كما يقول تتمرن على ما ينشأ عنه من أعمال ، الأمر الذى يعنى إن له السلطة على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها[4] . **إن هذا يعنى أن الدين والتدين يلازمان للإنسان منذ ولادته وكأنما الإنسان على حد قول الإمام فى نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين** [5] ، **ومن هذه الحيثية الأخيرة يحق القول بأن** الدين

---

(١) الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ١١٦ .

(٢) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ٣ ، ص ٥٠٢ .

(٣) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٥١ .

(٤) محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص ١١٤ .

(٥) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٥١ .

أشبه فعلاً بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية [(١)] . **وهذا هو مفهوم الفطرة التى أشار الحق تعالى بقوله** ﴿ فأقمْ وجْهك للدّين حنيفًا فطْرت اللّه الّتي فطر النّاس عليْها لا تبْديل لخلْق اللّه ذلك الدّينُ الْقيّمُ﴾[(٢)] ، وقوله تعالى : ﴿ وإذْ أخذ ربُّك من بني آدم من ظُهُورهمْ ذُرّيّتهمْ وأشْهدهُمْ علىٰ أنفُسهمْ ألسْتُ بربّكُمْ قالُوا بلىٰ شهدْنا أن تقُولُوا يوْم الْقيامة إنّا كُنّا عنْ هذا غافلين ﴾[(٣)] .

ثانيًا ـ الحياة الروحية والكمال الإنسانى

لما كان الإنسان مفطوراً على التدين وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فهو بالتالى مهيأ لأن يعلو على لذاته المادية أو الحسية ليصل إلى أعلى كمالات الحياة الروحية ، وهو أى الإنسان إنما يحصل على تلك المزية لأن الإسلام كما يقول الإمام محمد عبده لم يبخس الحواس حقها كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها [(٤)]. وإذا كان ذلك فالأحرى بالإنسان بحكم نسبته إلى عقيدة الإسلام أن يبذل الجهد ما وسعه ليحقق جدارته الانسانيه وكمالاته الروحيه وهو قادر علي ذلك إذ الإسلام قد جمع له اجزاءا حقيقية واعتبره حيوانًا ناطقًا لا جسمانيًا صرفا ولا ملكوتيًا بحتًا ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة واستبقاه كما يقول محمد عبده من أجل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحانى[(٥)] .

وهذا الإرتقاء الروحى للإنسان بحكم طبيعته الأصلية لا يقف عند حد معين ، بل إن كل واحد من أفراد النوع الإنسانى فى دين الإسلام قادر على أن يصل إلى أقصى

---

(١) محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص ١١٤ .

(٢) سورة الروم الآية : ٣٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٧٢ .

(٤) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ١٤٢ .

(٥) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

درجاته ، إذ الأمر مرهون بطاقته واستعداده فى الاتصال بالملأ الأعلى . ولهذا كان الإمام محمد عبده فى رأينا ألمعيًا لما أشار وأكد على تلك المزية للروحانية الإسلامية ، إذ ليس فى الغريزة الإنسانية كما يقول أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها الساعى إلى غاية لا مطلع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف [1] . فالحياة الروحية إذن أو لنقل الصوفية الإسلامية الصحيحة هى التى تفسح مجالاً لكل إنسان لأن يبلغ أعلى درجال العرفان والاتصال بالحضرة الإلهية مادام الأمر مرهون بالعمل والرغبة ، وهذا شأن النفوس التى بلغت شأنًا فى كمال الإيمان والاعتقاد فحق بالتالى أن تكون أعمالها ثمرات لكمال إيمانها . ولهذا فقد أصاب شيخنا محمد عبده لما أكد بقوة على أن الأعمال الدينية ، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هى السلطان القاهر على البدن [2] .

بيد أن هذه الحياة الروحية مشروطة بشرط الوسطية الإسلامية ، إذ الحياة فى الإسلام كما يقول محمد عبده مقدمة على الدين وأوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه وتملأ قلبه من رهبة وتفعم أمله من رغبة ، فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولاتحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات فوق العادة [3] .

ومعنى ذلك أن الحياة الروحية أو التصوف المشروع فى دين الإسلام لا يقتضى حرمانًا للمسلم مما أحله الله من الطيبات بدعوى الزهد والتقشف ، ولا يوجب عليه كذلك أن يهمل فى مظهره بدعوى كمال مخبره ، فذلك كله مما لا يوجبه عليه منطق الإسلام عقيدة وشريعة . ذلك لأن الإسلام قد أباح له التجمل بأنواع الزينة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ . (٢) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .

والتوسع في التمتع بالمشهيات على شريطة القصد والإعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية [1] ، وآيات الكتاب الكريم دالة على ذلك كمثل قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [2] ، وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

والحياة الروحية أيضًا أو التصوف المشروع لا تعارض فيهما مع العلم والأخذ بأسبابه ، حيث إن العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الإنسانية بل هى أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة من سواها نعيمًا ولذة وهذا يحتم على الإنسان أن يسعى بكل ما أوتى من جهد للأخذ بأسباب الحياة والمكنة والرقى فى الحياة الدنيوية ، ولن يكون له ذلك إلا إذا أخذ بمنطق العقل وأداته العلم وهذا هو الذى يؤكده الإسلام للمسلم ، فقد سمح له أن يتمتع كما مر بنا من قبل بما يلذ له مع القصد و الإعتدال ومن ثم أفلا يكون من لذائذ ومتممات نعيمه كما يقول الإمام محمد عبده « أن يسبح فى مملكة العلم ليمتع عقله كما يسبح فى الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله » [4] .

وليس من قبيل الإسراف أن نعود لنؤكد على تلك الحقيقة التى تمثل خصوصية للحياة الروحية أو التصوف المشروع كما يقبله الإمام محمد عبده **ذلك لأن ارتقاء الإنسان لبلوغ أعلى درجات الحياة الروحية ، لا ينبغى أن يسلبه للحظة واحدة ما استخلفه الله عليه ونعنى به عمارة الكون ، ومن ثم فهو** مطالب بالعمل فى

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ٣١ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ٣٢ .
(٤) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ١٤٥ .

الدنيا ومستعد فى الآن نفسه للآخرة . وهو فى الحياة الأولى لابد أن يحقق الغاية التى أعطاها الله أسبابها إذ المسلمون كما يقول محمد عبده مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم، فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان وتلقيه من أية شفة وأى لسان [1] .

ولكى لايبدو قولنا السابق مصادرة على المطلوب ، نعود لنؤكد أن الجمع بين الروحية ونزعة العلم لا تمثل إشكالية يصعب رفعها عند الإمام محمد عبده وكما هى فى تصور دين الإسلام إذ الجمع بين العقل والقلب لا مشاحة فيه ، من حيث إن **الأول - العقل** - يجول فى عالم الأسباب الظاهرة **والثانى - القلب** - يجول فى مملكة الروح أو النوازع الجوانية للإنسان ، وليس بغريب أن يجمع الإنسان الوصفين معًا - العقل والقلب - عن الإمام محمد عبده إذ قد منحنا الله تعالى كما يقول العقل للنظر فى الغايات والأسباب والمسببات والفرق بين البسائط والمركبات ، والوجدان لإدراك ما يحدث فى النفس واللذات من لذائذ وآلام وهلع واطمئنان [2] .

وليس لقائل أن يتصور صعوبة الجمع بين الأمرين - بحكم التغاير أو المخالفة - العقل والقلب على نحو ما قد يتصور بعض السذج من أن هناك فرقًا بين العقل والوجدان فى الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة ، فإنما يقع التخالف بينهما عرضًا عن عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس . ومعنى هذا أن إمكانية الجمع بين العقل والوجدان هى التى تعطى للحياة الروحية أو

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

التصوف فى التصور الإسلامى خصوصيته ، وتوضح فى نفس الوقت مزيته عن غيره من ضروب الحياة الروحية أو أشكال التصوف الأخرى ، فالعقل فى الإسلام أداة الإنسانية فى مجال الأخذ بأسباب الحياة الدنيوية والرقى فيها ، وهو ـ أى العقل والوجدان معًا ـ وسيلته فى الإرتقاء إلى أعلى مراتب الكمال الروحى ومن ثم فالعلم الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم كما يقول الإمام محمد عبده من أشد أعوان العلم . **والدين الكامل علم وذوق وعقل وقلب وإذعان وفكر ووجدان ، فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى** ، ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين والوجود الفردى وجودين [١] . ولهذا السبب فلا عجب أن يصبح المرء جامعًا بين حياة العلم وحياة التصوف ، ومن ثم كان الإندماج الحقيقى بين الصوفى ورجل العلم قوة السمو، وهو شيء يمكن تحققه فى عالم الفكر [٢] . ولعل فيما أوردناه آنفا يؤكد ما سبق وأن أكدناه من قبل بشأن خصوصية الروحانية الإسلامية فهى لاتقطع المرء عن أن يأخذ بكل أسباب الحياة المادية من ناحية ، ولا عن أن يصل إلى أعلى مراتب الروحانية من ناحية أخرى . **ولعل فى هذا الجمع بين المادية والروحية على صعيد واحد هو الذى يمثل الصوفية الإسلامية الحقة وهو الأمر الذى اكتسبته من دين الإسلام أو بالأحرى عقيدته وهو أمر يعترف به المستشرقون المنصفون** ، فقد أكد بطروشوفسكى على هذه الحقيقة لما قال بأن العقيدة الإسلامية تحقق للمسلم الأخذ بالحياة الدنيا والأخرى ، بل إن عنايتها بالمجال الروحى لا يقل عن عنايتها بالمجالات المادية والعلمية بخلاف غيرها من الأديان الأخرى كالمسيحية واليهودية [٣] .

---

(١) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

(٢) أبو الوفا التفتازانى ' الإنسان والكون ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ص ٩٧ .

(٣) بطروشوفسكى : الإسلام فى إيران ، ترجمة الدكتور السباعى محمد السباعى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ١٤١ .

والحياة الروحية فى الإسلام وكما مر بنا من قبل متاحة لكل أفراد النوع الإنسانى ، فذلك يجعل للأولياء وهو من أعلى طبقات المؤمنين الصالحين مكانة عالية فى مدارك العرفان ولكنهم يظلون دون مرتبة الأنبياء . لكن ذلك لا يقدح فى مكانتهم ، فهم كما يقول الإمام محمد عبده أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفان ، مما لم تدن مراتبهم مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئًا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومن ذاق عرف ومن حرف انحرف[1] .

إن هذه الحياة الروحية التى تسمح للإنسان بإمكان الوصول إلى أعلى مراتب الحياة الروحية أمر تؤكده نصوص القرآن نفسه ، فالله قريب من عباده بمقدار ما يقرب العبد منه وما على الإنسان إلا الإيمان الصادق والعمل الصالح . ومن ثم فليس بصحيح ما وقع فى ظن هانوتو من أن الإسلام قطع الصلة بين العبد وربه ، ذلك لأن الإسلام أقصى بالعبد إلى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه ، فقد قضى الإسلام بألا يكون للكون إلا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر علي الناس مقامين لا يمكن الرقي إليهما مقام الألوهية التى تفرد بها ، ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهو بين يدى الإنسان ويناله استعداده لا يحول دون حجاب إلا ما كان من تقصيره فى عمله أو قصوره فى نظره [2] .

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ٤٣١ .

(٢) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ١٠٤ .

ففى الإسلام إذن حياة روحية تمكن المرء من أن يصل إلى أعلى الدرجات عدا مقام النبوة والألوهية وهى أى هذه الحياة الروحية تستقيم مع وسطيته إذهى جامعة للعقل والقلب أو الوجدان معًا وهذا هو الذى يعطى للروحية الإسلامية أو الصوفية الصحيحة قيمتها وخصوصيتها ، إذ قد جاء الإسلام كما يقول الإمام محمد عبده ليخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاد إلى سعادته الدنيوية والأخروية ، ويبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله واحد في جميع الأجيال وأن ومشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن الله لا ينظر إلى الصور وإنما ينظر إلى القلوب . ومن ثم فقد طالب المكلف برعاية جسده ، كما طالبه بإصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الأمرين طهوراً مطلوبًا ، وجعل روح العبادة الإخلاص[1].وإطلالة على العبادات الإسلامية ، تؤكد أن كل واحد منها لا تنفك عن الأخلاق ، أو بالأحرى فيها من المضامين الروحية والخلقية ما لا حصر لها [2] .

ثالثًا : التصوف والأخلاق :

تتبدى قناعة الإمام محمد عبده بالتصوف فى صورته النقية الخالصة بوصفه وسيلة لتحقيق الكمال الإنسانى بجانبيه الروحى والخلقى فى آن واحد ، لهذا يؤكد أنه لم يوجد فى أمة من الأمم من يضاهى الصوفى فى علم الأخلاق

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ٤٦٣ . وانظر الأستاذ جمال الدين الأفغانى: رسالة الرد على الدهريين ، ترجمة محمد عبده ، مكتبة الإسلام العالمية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٦٤ .

(٢) انظر ما أوردناه تفصيلاً فى شأن الدلالات الروحية للعبادات الإسلامية فى بحثنا : الدين والأخلاق عن الإمام محمد عبده ـ الكتاب التذكارى عنه ، المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٩٥ .

وتربية النفوس ، وأنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين ، وأن سبب ما ألم بهم تحامل الفقهاء عليهم ، وأخذ الأمر بقول الفقهاء فيهم ، فأولئك يكفرون وهؤلاء يعذبون ويقتلون حيث أنه قتل فى هذا البلد (القاهرة) فى يوم واحد خمسمائة صوفى على حد روايته (١) .

يعنينا فى قول الإمام الشطر الأخير منه ، ففيه تبدو قناعته بدور التصوف فى تكميل النفس الإنسانية بالفضائل ومكارم الأخلاق . وتلك ولا نزاع تشكل عنوانًا لعلاقة الصوفى بغيره من الناس ، فضلا عن أنها تمثل عمق صلته بربه ، ولقد كان هذا دأب التصوف منذ نشأته فى القرون الأولى وبالتحديد الثالث والرابع الهجريين اللذين شكلا العصر الذهبى للتصوف ، فقد كان غرض الصوفية المسلمين فى هذه الفترة ينصب كما يقول الإمام محمد عبده فى تربية المريدين بالعلم والعمل الذى غايته أن يكون الدين وجدانًا فى أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة (٢) . **وتأكيد محمد عبده على هذه الوجهة الأخلاقية للتصوف الذى يرتضيه والذى كان يمثل أزهى فترات التصوف إبان نشأته الأولى يجعل العناية بالأخلاق والتحلى بمكارمها هى الصفة التى يتعين أن تميز كل أعمال المسلم المتحقق بكمال إيمانه وطاعته لربه** ، لأن الله على نحو ما يؤكد الإمام محمد عبده ما فرض من الأعمال إلا لما أوجب من التحلى بمكارم الأخلاق(٣) .

وإشارة محمد عبده إلى ارتباط العبادات والأعمال بالأخلاق واهتمام الصوفية

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ص ٥٥١ .
(٢) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٥٥٢ .
(٣) الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص ١٤٩ .

بهذا الجانب الخلقى يمثل قيمة لا يمكن التهوين منها فى رأينا ، وحسنًا أن أكد عليها الإمام محمد عبده ذلك لأن التصوف فى تلك الفترة. القرنين الثالث والرابع الهجريين. كان بالفعل علماً للأخلاق الإسلامية والتربية الروحية ، فقد كان جل عناية أغلب شيوخه موجها للناحية الخلقية فليس التصوف كما يقول النورى رسما ولا علما ولكنه أخلاق (١) ومن يرد أن يحقق التصوف بهذا المفهوم فليس عليه إلا الخروج من كل خلق دنى والدخول كما يقول أبو بكر الكتانى فى كل خلق سنى (٢) . وهكذا يصبح التصوف تخلية للنفوس عن كل الخصال والصفات الدنيئة وتحلية لها بكل الصفات والسجايا الحميدة ، وهو الأمر الذى جعل الصوفية يؤكدون على أدب النفس وأنه بالتالى عنوان الخلق إنطلاقًا من إشارة النبى ﷺ « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » ، وبالتالى حرصوا على أن تكون العبادة فيها من كمال الظاهر ما فيها من إخلاص الباطن ما يغذيها . وحق بالتالى أن يؤكد السهرودى البغدادى (ت٦٣٢هـ) على أن يكون الأدب هو تهذيب الظاهر والباطن معًا(٣)، ومعنى هذا ان العمل والعبادة لله عند الصوفية المحققين لابد فيها من كمال أدب الظاهر والباطن معًا ولابد من إتيانها على الوجه الذى يليق بها لتكون بالتالى تعبيراً عن مقام العبد بين يدى الحق ، ودليلاً أيضًا على حسن صلته بالخلق فى الوقت نفسه . ولعل ارتباط التصوف بهذا الجانب الخلقى الذى أكدناه من قبل وارتضاه الإمام محمد عبده هو الذى جعل الأئمة من قبله

---

(١) السلمى : طبقات الصوفية ، تحقيق الدكتور نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٦٧ .

(٢) السهرودى البغدادى : عوارف المعارف ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ص ١٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .

يؤكدون على أهمية التصوف من هذه الحيثية ، أعنى إرتباطه وعنايته بالأخلاق وكما يتطلبها دين الإسلام ، **ومن ثم فقد حق لابن القيم (ت ٧٥١ هـ) أن يؤكد على هذه الوجهة فيقول : « واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق »** [١] ، **والدين كله خلق . ويزيد ابن القيم الأمر تأكيدا فيجعل الأدب هو الدين كله** [٢].

وبهذا يصبح التصوف تطبيقًا مثاليًا للدين فى جانبه الخلقى ، وتلك مسألة مهمة فى رأينا ، إذ الدين لا ينفك عن الأخلاق ، بل إن حقيقته كما يقول ابن تيمية (٧٢٨هـ) من الأمور الباطنة ، ودين الإسلام فى عبادته كما يقول لا تنفصل فيه أعمال عن أعمال الجوارح الظاهرة[٣] . فإذا تبينا أن الأعمال الباطنة والتى هى حقيقة الدين كلها أمور مأمور بها فى حق العامة والخاصة عند ابن تيمية لأنها من أصول الإيمان وقواعده [٤] . أدركنا على الفور البعد الأخلاقى للدين من ناحية وعناية التصوف بضرورة تحقيق هذا البعد من ناحية أخرى . ومن ثم تتأكد النظرات الصائبة التى أكدها الأئمة السابقون كابن تيمية وابن القيم وكشيخنا محمد عبده ، لأن الدين على وجه الدقة لابد وأن يتحقق فى النفوس وفى أعمال القلوب وفى الحياة وتجاربها الروحية [٥] ، وتحقيق الدين على هذا النحو هو منتهى الكمال ،لأن الطقوس الدينية ليست غاية فى ذاتها بل

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين ، دار التراث العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢ جـ٢ ، ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٢٧٦ .

(٣) ابن تيمية : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ١٣٩٩هـ ، ص ٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٥) إميل (بوترو) : العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة ، ص ١٧٦ .

وسيلة ، وينبغى كما يقول فلاسفة الدين أن يكون كذلك لتلائم تحقيق الغايات الدينية [1] .

وإذا كان هذا هو حد الدين على حقيقته ، فلا نزاع فى أن التصوف تحقيق للمثل العليا التى جاء بها دين الإسلام ، ومن ثم يصبح تعبيراً حقيقًا عن المثل الأخلاقى الأعلى الذى يتعين على المسلم تحقيقه فى كل معاملاته ولابد له من مراعاته فى كل تصرفاته . وقناعة شيخنا محمد عبده بهذه الفكرة تتبدى فى ضغطه على هذا البعد الأخلاقى فى التصوف إذا لا يتردد فى المجاهرة بفاعليته فى حياته الدينية ، نلمح هذا فى قوله « كل ما أنا فيه نعمة من دينى أحمد الله عليها فسببها التصوف[2] . **فالتصوف عند شيخنا بهذا المفهوم السابق يصبح إذن ضرورة ووسيلة فعالة فى تربية النفوس أخلاقيًا ، ولأجل هذا كان لشيوخه** فضل تهذيب نفوس العامة بل والخاصة ممن التفوا حوله بما أشاعوه فى نفوسهم من فضائل وما تحلوا به فى سلوكهم مع الحق والخلق فكانوا بالتالى قدوة لمريديهم. وإيمان الإمام محمد عبده بهذا الجانب فى التصوف نعنى التربية الخلقية ، تتجلى فى ما سجله مصطفى عبد الرازق بشأنه ، وما تركه عليه الشيخ درويش خضر خال أبيه عليه من أثر فى سلوكه فى سنى تكوينه العلمى الأول إذ **يقول مصطفى عبد الرازق** مبينًا أهمية الشيخ درويش من هذا الوجه « ولا ينكر أثر الشيخ درويش بتربيته الصوفية فى نفس أستاذنا ، فإن ذلك الشيخ الصوفى وجه كل عواطف الشباب فى نفس الفتى إلى اللذائذ القدسية لذات العارفين » [3] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٢) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ٣ ، ص ٥٥٢ .

(٣) مصطفى عبد الرازق : محمد عبده ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٢٧ .

ودلالة قول مصطفى عبد الرازق تكمن فى رأينا فى قناعته كشيخه الإمام محمد عبده بما يمكن أن يقوم به التصوف فى تقويم الأخلاق وإصلاح النفوس ، وهذا هو الذى فعله الشيخ درويش بوصفه صوفيًا فى أخلاق الإمام محمد عبده ، فقد كان هذا الشيخ كما يقول له أثر عظيم فى تربية أستاذه بشهادته رحمة الله عليه كما يقول ، وإن كان ليس بين أيدينا بيان عن هذا الشيخ نستطيع أن نفهم بالتفصيل أحواله النفسية وأن نتبين كيفية سلطانه على نفس مريده ، تلك النفس القوية الحرة [1] . المهم فى هذا القول الذى أوردنا آنفًا هو بيان الأثر الذى يمكن أن يلعبه الصوفى الصادق فى أخلاق من حوله ، فهو قادر على أن يؤثر فيهم بما يجدون فيه من شمائل الأخلاق ، وبما يجذبهم إليه بقدرته على الإرشاد النفسى الهادئ فيلتفون من حوله .

ولئن كان هذا الصنف من الصوفية نادرًا فى رأينا الآن بل وكما يرى الشيخ مصطفى عبد الرازق . إلا أن تأثيره فى النفوس لا يمكن التقليل من شأنه، يدلنا عل هذا قوله : « غير أن الذى رواه الأستاذ الإمام من حال شيخه يدل على أنه كان رجلاً ساذجًا نير البصيرة طيب القلب سمحًا سهلاً مؤمنًا يقوى إيمانه بتفهم القرآن وبضروب سهلة من العبادة والرياضة ، وأمثال هذا الشيخ شذوذًا بين الأعداد الكثيرة من رجال الطرق ويكون لهم أثر روحى فى المستعدين من مريديهم بما فى نفوسهم من صفاء وما فى إيمانهم من قوة ليست مستمدة من ناحية علمية » [2] .

وقول مصطفى عبد الرازق إشارة مهمة للدور الذى يمكن أن يحققه الصوفى الحقيقى فى توجيه وتقويم ذوى الأخلاق الفاسدة فى مجتمعه ، وفى الارتقاء بها إلى

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٢ .

أعلى مدارك الكمال الخلقى ، وأكثر من ذلك فلربما تؤتى التربيةالصوفية أكلها فى خلق المستعدين للكمال أكثر من غيرهم ، وهذا بالفعل ما أحدثه الشيخ درويش فى خلق محمد عبده ، فقد بلغت فيه طبيعة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة ، فقد كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه ويسعى إلى كل نفع للغير عام أو خاص . **وكان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقا ، وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هو أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله** [1] . أوردت هذا النص من كلام مصطفى عبد الرازق بشأن ما أحدثه الشيخ درويش فى تربية أستاذه محمد عبده لأن الحاصل منه والذى يعنينا فى هذا المقام ، هو الذى يجعل من التصوف وسيلة لتهذيب النفس فى تربية الوجدان بما يحقق للإنسان إنسانيته ويشده فى ذات الوقت إلى الملأ الأعلى بحكم جمعه ـ الإنسان ـ للجانبين معًا البدن والروح .

وفى هذه الحالة فمن شأن تعاليم الصوفية إن كانت بهذه الحيثية أن تربى الوجدان وتلطف السر وتجمل النفس وتزينها ، ولا جرم كان الشيخ محمد عبده صوفى الأخلاق من هذا الوجه على حد قوله [2] والحق الذى لا مراء فيه أن التصوف بهذا المفهوم الخلقى وبفاعلية شيوخه المحققين الكاملين فى تربية النفوس وتكميلها أخلاقًا ، هو الذى ارتضاه الأستاذ الإمام محمد عبده وارتضاه كذلك أغلب المصلحين المحدثين والمعاصرين ، فهذا الجانب لا غبار عليه ولا غضاضة فيه على الإطلاق . ولذلك كان هو الوجه المقبول الذى نجده عند الإمام محمد عبده . **وهو وإن حارب المبتدعين المنحرفين من صوفية عصره وكما سيأتى بعد فإنه فى الوقت ذاته لم يغفل قيمة التصوف فى جانبه الخلقى التربوى وكما**

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

وضع أصوله **المحققون من شيوخه الأولين** . ولهـذا السبب فهـو ـ أى التصوف ـ عنده تهذيب لأخلاق العامة وتقويم عاداتها وترويض النفوس بأعمال الدين [1].

نظرة فاحصة إلى شريعة الإسلام وما يلزم عنها من الأعمال والعبادات وإن كانت واجبة ومطلوبة على مستوى الجوارح الظاهرة ، إلا أن كمالها أيضًا لابد من تحقيقه فى الجوارح الباطنة لأن الأعمال الدينية لا يكون لها اعتبار فى دين الإسلام بحسب صورها الظاهرة كما يقول مصطفى عبد الرازق ، إنما هى عنده معتبرة بالنيات والهيئات النفسانية التى هى مصدرها[2] ، كما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ لن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ منكُمْ﴾[3]، **وحديث رسول الله ﷺ « الأعمال بالنيات وأن لكل أمرئ ما نوى » وهو حديث كما قال الشافعى وأحمد يدخل فيه ثلث العلم** [4] ، **وعلى هذا فقد دل الحديث كما دلت الآية على أن المحك هو النية أو اخلاص القصد فى صحة العمل أو بطلانه** ، وكما فهم شيخنا من قبل وهو أمر ينبغى أن يتحقق به العبد مع الحق والخلق ، وحق القول بالتالى مع قول واحد من الصوفية « **أن من لا إخلاص له فلا خلاص له على أى وجه كان** » [5] .

---

(١) عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩، ص ١ . ٢ .

(٢) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص٢.

(٣) سورة الحج الآية : ٣٧ .

(٤) انظر : صحيح البخارى ، طبعة مصطفى الباب الحلبى ، بدون تاريخ ، المجلد الثالث ، ص٢٣٨ .

(٥) المهينى : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٢٩ .

فللتصوف إذن فاعليته وأهميته فى تقويم الأخلاق وتهذيبها والارتقاء بها، وهو الأمر الذى دعانا إليه الدين من التحلى بمكارم الأخلاق واجتناب سفاسفها وهو مايمكن أن ينهض بتحقيقه التصوف الإيجابى ، لأن الأعمال الدينية كما يقول الإمام محمد عبده لا تصدر إلا عن الملكات والعزائم الروحية على حد قوله[1] . ولعله لهذا السبب بالذات اهتم محمد عبده واقتنع فى ذات الوقت بالدور الذى يمكن أن يؤديه التصوف فى التربية الخلقية وإصلاح النفوس الفاسدة فى مجتمعه ، ولهذا لما يئس حاله من إصلاح شأن الأزهر رأى أن واجبه الدينى يحتم على أن يكمل الإصلاح لأن بقاء الأزهر متداعيًا كما يقول على حاله فى هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه [2] . ولم يكن هذا ميسراً عنده بحسب ما يقول إلا إذا قدر له وعثر على مجموعة من المريدين لأفكاره الإصلاحية ورباهم تربية خلقية ليكونوا بالتالى جنودا للإصلاح الذى يرتضيه قناعة منه بدور التربية الصوفية فى تكميل النفوس على نحو ما لمسها من شيخه الشيخ درويش ، أن يعيد الكره ليحقق ما نذر له نفسه بشأن مهمته فى القيام بواجبه الدينى . وعبارات الإمام محمد عبده تقطع بهذه القناعة فى غير موارية إذ يقول : « **وإننى أبذل جهد المستطيع فى عمرانه. أى الأزهر. فإن دفعتنى الصوارف إلى اليأس من إصلاحه ، فإننى لا أيأس من الإصلاح الإسلامى ، بل أترك الحكومة وأختار أفرادًا من المستعدين فأربيهم على طريقة التصوف التى ربيت عليها ليكونوا خلفًا لى فى خدمة الإسلام** » [3] . ولعل الذى أوردناه من قبل فى الفقرة السابقة من كلام الإمام محمد عبده ، يبين الدور الذى يمكن أن يلعبه الشيوخ من الصوفية المحققين فى إصلاح ذوى النفوس الفاسدة ، أخلاقيًا فى

(١) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٥٠ .
(٢) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ١٩٣ .
(٣) المصدر نفسه : جـ ٣ ، ص ١٩٣ ، وأيضًا ، ص ٥٥٢ .

مجتمعه ، فإن استطاعوا أن يحققوا هذا الدور لأسهموا بذلك فى خدمة دينهم ومجتمعهم . وبهذا يصبح للتصوف دوره الإيجابى للفرد وللمجتمع، ويبدو أن مطلب الإمام محمد عبده كان عزيز المنال، فقد كان العثور على هؤلاء المريدين الحقيقيين أندر من الكبريت الأحمر، **فقد شوه أتباع التصوف كل ما شيده الصوفية الحقيقيون . ومن ثم انتشرت بين عوام المسلمين كثير من الاعتقادات الفاسدة والممارسات الخاطئة للصوفية فى عصره.**

ولأجل هذا لم يتردد فى كشف مثالب هؤلاء المدعين للتصوف والذين شوهوا صورته الناصعة . لهذا يحسن تجلية هذه النقطة والكشف عن هذه الممارسات الخاطئة ففى بيان رأى محمد عبده فيها ، ما يكشف عن التصوف الحقيقى الذى يلف كثيراً من أوجه النقد للمدعين من صوفية عصره .

رابعًا : نقد الاعتقادات الفاسدة والممارسات الخاطئة للصوفية

تبدو من أقوال محمد عبده نبرة الأسى والحزن لما آل إليه أحوال المسلمين فى شئون حياتهم ففيها ما فيها من سوءات صوفية عصره ما أفسد حقيقة الدين اعتقادًا وأفعالاً إذ ابتلى المسلون بأدعياد التصوف فبثوا فى النفوس ما يخرج بها عن قيم الدين الحنيف والتصقت بأذهان المسلمين وساوس تملك الجاهل وتربك العاقل إذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح[(١)] .

وكان من نتيجة ذلك أن الصوفية لم يعودوا مشغولين باستقامة السلوك مع الحق والخلق بقدر ما أصبح همهم القعود فى الخلوات وهجر الدنيا بدعوى الزهد والتقشف ومالوا إلى توريط غيرهم فى ما هم فيه وكما هو شأنه فى كل أمة [(٢)] . وهكذا صار التصوف بفعل الممارسات الخاطئة لأتباعه من الصوفية وبالأ على المسلمين لأنهم قد قعدوا فى أوطانهم عن العمل والأخذ بأسباب الحياة والكسب باسم التصوف فكانوا

(١) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

عالة على التصوف وأبلغ إساءة إلى الدين وحق للإمام محمد عبده أن يتندر على ما آل إليه حال هؤلاء الصوفية فى وطنه وفى غيره من الأقطار العربية لما قال « ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدراويش الخبثاء أو البلة الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الإسلام ممن اتخذ دينه متجرًا يكسب به الحطام، وجل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطغام » [1] .

فالعيب إذن ليس فى التصوف بما هو تصوف عند محمد عبده ، بل وعند غيره من المصلحين المعاصرين ، ومن قبل عند الفقهاء الأقدمين ، وإنما العيب فى الممارسات الخاطئة للمنتسبين إليه فى عصره وقبله ممن ابتعدوا كثيراً عن أصول التصوف كما بينها الشيوخ المحققون. ولذلك لا يتردد الإمام محمد عبده من نقد هؤلاء الأتباع الذين شوهوا صورة التصوف الناصعة الخالصة ، ولعلنا نلمح في أقواله نبرة الحزن والأسي لما آل إليه حال التصوف والصوفية فى عصره **وآية ذلك قوله** « ترى فى قرآنًا وبلداننًا درويشًا فقيراً شاحب اللون مدثراً بأرديته البيضاء المقلمة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه، ولا يلويه عن ذلك شيء . هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية راويًا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الإسلام ، إنما يبذر فى القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا » [2] .

ويعدد الإمام محمد عبده بعضًا من الإعتقادات الفاسدة والممارسات الخاطئة لصوفية عصره كاشفًا عن سوء مسلكهم لكل هذه الممارسات مبينًا أنها تخرج بهم عن عقيدة الإسلام وشريعته وتسئ للإسلام الحنيف فى أذهان غير المسلمين ، فقد أخطأ هؤلاء المسلمون من جراء ما ساد فى عصرهم من أحوال الصوفية فتركوا الأسباب والأخذ بالسنن فى مطالب الحياة زاعمين أن توكلهم

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

على الله والسكون لمجرى قضائه وقدره هو الذى يؤدى بهم إلى ما ارتضوه لأنفسهم . **ويصور الإمام محمد عبده ذلك فيقول** : « إن الواحد منا إذا لاح فى ذهنه نور إلهى يرشده إلى طريق العلم ، يأتيه معارض يقول له إن هذه الحالة الحاضرة هى ما قدر الله لا حيلة لنا فيها ، فالمرء متوكل على الله مسير حسب القدرة ، فعلينا بتسليم أمورنا إليه تعالى والتوكل عليه ، وبذلك ينطفئ النور الذى لاح بذهنه ، وبعد أن كان خطر بباله داعى العمل ينزع للبطالة والكسل ، والعجب أنهم يظنون أن هذه الوساوس من العقائد الدينية ، ولكن الدين يتبرأ منها ، وما للدين عدو أضر من أمثال هذه الإعتقادات » [1] .

إن مراد محمد عبده هنا نبذ التواكل لا هدم التوكل ، إن مقصده كذلك بيان سوء فهم المسلمين لعقيدة القضاء والقدر والتى أدت بأغلب المسلمين إلى أن يكونوا من المتواكلين لا المتوكلين تحت زعم القضاء والقدر ، ولم ينتبهوا إلى خطر ذلك إذ الاحتجاج بذلك وعدم الأخذ بالأسباب والركون إلى الكسل وترك العمل احتجاجًا بالقدر هو من عقائد الملحدين عند الإمام محمد عبده ، وقد دل القرآن الكريم على تشنيع عقائد من يسلك ذلك فقال تعالى ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [2] فلا يسوغ لأحد منا فيما يرى الإمام وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن أن يحتج بما كان يحتج به المشركون بزعم أنه متوكل ومن يفعل ذلك فهو فى رأيه كاذب زنديق على حد قوله [3] . وإذا كان ذلك كذلك فليس من التصوف ولا كمال روحانية الإسلام ترك العمل والسعى إلى الأخذ بالأسباب فى كل شئون الحياة ، فلم يفعل هذا فى الإسلام نبيه ﷺ ولا صحابته رضوان الله عليهم ، فنحن نرى **كما يقول الإمام محمد عبده** : النبى

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ١٦٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٤٨ .

(٣) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ١٦٤ .

ﷺ وهو إمامنا وقدوتنا لما بعث فى دياجير الجهل وتحكم سلطان الشرور وقبائح العادات فى الأمم التى أرسل إليها ، لم يقل أن ذلك ما أراده الله، ولم **يسلم أمره للقدر بترك العمل ، وكذلك أصحابه رضى الله عنهم أصابهم من الآلام فى السعى ما أصابهم ، مع أنهم أشد الناس توكلاً على الله ، وأكملهم** تمسكًا بالقدر فى الطريق ، فإذا كانوا قدوتنا كما هو الحق فلماذا لا نقتدى بسيرتهم وننبذ وسوساس المبطلين وهذيان العمى والمغفلين [١] . **وعلى هذا فقد أخطأ المسلمون، كما يقول محمد عبده، فى فهمهم لحقيقة التوكل وحقيقة القضاء والقدر، فكان ما كان من هدم للأسباب والسنن الكونية وركون إلى الكسل** وقعود عن العمل ووكل المسلم الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوافى رغائب دينه [٢] .

ولما كان الإمام محمد عبده كدأبه وديدنه حريصًا على توضيح حقيقة التوحيد بوصفها عمود الإسلام وذروة سنامة ولب أعماله ، لهذا لم يتردد كذلك فى نقد ما وقع فى عقول بعض الصوفية قديمًا فى تشويش هذه العقيدة على الرغم مما يعلمه من أن بعضهم قد يكون معذوراً فيما نطق به من أحوال وما جرى على لسانه من أقوول ، ولكن هذا لا يسوغ لهؤلاء الصوفية فى أن ينطقوا بما يشوش على الناس أمر العقيدة ، **ذلك لأن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة كما يقول الإمام محمد عبده أفسد نظامها واضطرب أمنها على نحو ما هو الحاصل من آراء الحلاج** (المقتول ٣٠٩هـ) ، وأمثاله فتضطر السياسة حينئذ للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة فيأخذ صاحب الفكر لا لأنه يفكر ، ولكن لأنه لم يقصر

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

(٢) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ١١٥ ، وانظر : الأعمال الكاملة ، جـ ٣، ص ١٦٤ ، وأيضًا للدكتور عثمان أمين : محمد عبده رائد الفكر المصرى ، ص ١٢٦ وما بعدها .

حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره فى غنى عمن يراه هو حق له [1].

والحلاج الذى يرى محمد عبده فى أقواله شططًا قد صدرت منه أقوال فى الحلول والإتحاد وما كان له أن يظهرها إذ كان الأحرى به أن يكتمها ولأجل هذا فقد أباح بما لا ينبغى أن يباح به لغير أهله من الصوفية ، لذلك لا يتردد الإمام فى أن يقرر بشأنه ما يبدو خنقًا لحرية الفكر ، وآية ذلك قوله « ولو كنت سلطانًا لضربت عنق من يقول به ، وأنا لا أنكر أن لهم أذواقًا خاصة وعلمًا وجدانيًا ، بل ربما حصل فيه شيء من ذلك وقتًا ، لكن خاص بمن يحصل لهم لا أن ينقله إلى غيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علمًا »[2] . ومع أن الحلاج الذى ذكره الإمام محمد عبده بالإسم وكذلك غيره كالبسطامى معاصره وغيرهما يدخلون فى عداد الصوفية أصحاب الشطحيات ، ومع أنهم لا يعتقدون فى حال صحوهم بعقيدة الحلول أو الإتحاد ، إلا أن حكم الإمام محمد عبده على الحلاج وعلى غيره يمثل حقًا لا جدال فيه ذلك لأن الصوفية الإسلامية ينبغى أن تظل دومًا تعبيرًا عن روحانية الإسلام بغير إفراط ولا تفريط ، وهى لكى تكون كذلك فلابد فيها من العقل والبصيرة معًا أو لنقل العقل والوجدان كما يحلو دومًا للإمام محمد عبده أن يقرنهما معًا ، فهما المحك الذى يقيد كل نزعات الغلو والإفراط[3] .

والتوسل من الأمور البدعية فى الإعتقاد والتى لا يقرها أئمة الدين ، ولهذا يبرأ منها الإمام محمد عبده لما رآها متفشية فى مسلك صوفية عصره والعوام من المسلمين ،

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ٣٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٥٥٢ .

(٣) راجع فى هذا الشأن موقف فخر الدين الرازى من أقوال الحلاج والبسطامى بصفة خاصة فى كتابنا فخر الدين الرازى والتصوف ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، طبعة ٢٠٠٠ ، ص ١٩١ - ١٩٩ .

فكل هؤلاء جميعا جعلوا التوسل بالأولياء لازما من لوازم ولايتهم وحظًا من حظوظ مكانتهم في قلوبهم ، ولأجل هذا هرعوا إليهم لفك الكربات ، وتوسلوا بهم لقضاء الحاجات . ويظهرنا الإمام محمد عبده أن واحدا من أهل زمانه أرسل له خطابًا يقرر فيه إنكاره لبعض الناس توسلهم بجاه النبى إلي الله تعالى وبأوليائه، وأنه لما سئل عن حكم التوسل بالنبى والتوسل بأوليائه أجابهم أن هذا أمر مخل بالعقيدة وأن قياس التوسل إلى الله تعال على التوسل بالحكام محال ومخالف لعقيدة التوحيد وهو أنه لا فاعلٍ ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَدْعُوا مع اللَّه أَحَدًا ﴾[1] ، وأن الرسول ﷺ وإن كان أعظم منزلة عند الله من جميع البشر وأعظم الناس وجاهة ومحبة وأقربهم إليه ، ليس له من الأمر فى شيء ولا يملك للناس ضرًا ولا نفعًا كما نص القرآن ولا يتوسل إلى الله تعالى إلابالعمل كما جاء على لسانه ﷺ وإتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون .... **ولا معنى للتوسل بنبى أوولى إلا بإتباعه**[2] لقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[3] ، وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [4] . وقد أكد الإمام محمد عبده ما قاله السائل تعقيبًا منه لجوابه لما سئل بشأن للتوسل وأن قوله هو الإعتقاد الصحيح ولا يشوبه شوب من الخطأ وهو ما يجب على كل مسلم أن يؤمن بما جاء به محمد ﷺ أن يعتقده ، فإن الأساس الذى بنيت عليه رسالة النبى ﷺ هو هذا المعنى من التوحيد كما قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ [5] ، والصمد هو الذى يقصد فى الحاجات ويتوجه إليه المربوبون

---

(١) سورة الجن الآية : ١٨ .

(٢) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ٥٣٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣١ . (٤) سورة الأنعام الآية : ١٥٣ .

(٥) سورة الإخلاص الآيتان : ١ ، ٢ .

على ما يطلبون فى ما يضعف عن قواهم ، فلا صمد إلا هو ... وزعم زاعم أن لفلان جاهًا عند الله إشراك جلى لا خفى ، والتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاث وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله وشبهه العدول عما جاء به رسول الله ﷺ [1] .

ولم يفت الإمام محمد عبده كذلك أن يفند دعاوى الضالين من أتباع الصوفية فى عصره الذين روجوا لبعض البدع بزعم أنها كرامة من الكرامات لأوليائهم المقربين ومن قبيل ذلك بدعة الدوسة ، وهى من أفظع البدع كما يقول الإمام وعندهم أن يطرح الناس مصطفين أحدهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحدًا بعد واحد حتى ينتهى إلى آخرهم [2] والأصل فى هذه البدعة وغيرها عند الصوفية وهى من صنع أتباع الصوفية لا من أصول الدين ولا من صنيع شيوخه المحققين ، ذلك لأن هذه البدعة لا أصل لها فى الدين كما يقول الإمام وإنما هى كرامة فيما يقول العامة منهم للشيخ يونس الذى كان يدوس بحصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر ، وهى مرة واحدة فكيف يتبدل الزجاج بالإنسان وصارت عادة مستقرة[3] . ويستنكر الإمام محمد عبده هذه البدعة وأمثالها من البدع التى التصقت بالتصوف أو بالأحرى بالدين والدين منها براء إذ لا شبيه ولا مثيل لها لا فى القرآن ولا فى السنة حتى يلتمس أحد موافقتها للشرع ولو بطريق التشبيه ، أما دعوى أنها من الكرامات فهى باطلة عن أهل السنة والجماعة فإنهم بسطوا فى كتب التوحيد على أن شروط الكرامة ألا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها حسب إرادته، فإن صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة ونحوها التى يتعاطاها

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٥٢ .

كل من يأخذ عهداً على طريقة الرفاعى أو السعدى أو يتولى مشيخه السعدية أيًا كان ، فلا تكون من قبيل الكرامة بل تعد من الحيل المذمومة ومن أجل ذلك بادر السيد البكرى وساعده أهل الشرع والعقل على إبطال هذه البدع المضرة بالدين الدنيا[١] .

ولا ينبغى أن يتبادر إلى الأذهان مما أوردناه سابقًا بشأن هذه البدعة نعنى الدوسة وأنها محض كرامة كما يقول أتباع التصوف فى عصره ، إلا أن هذا لا يعنى أن الإمام محمد عبده يستبعد إمكانية حدوث الكرامة ، وآية ذلك قوله : «فبقى البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعًا من البحث عن متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفى مكانة الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الإلهية » [٢] .

فالكرامة إذن من حيث الإمكان ليست محل إنكار من قبل شيخنا فإن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية ، ولكن شيخنا يؤكد أن الذى يجب الإلتفات إليه ان أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة على يد ولى معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أن كرامة لأى ولى كان ولا يكون بإنكاره هذا مخالفًا لشىء من أصول الدين ولا مائلاً عن سنة صحيحة ولا منحرفًا عن الصراط المستقيم [٣] . ومهما يكن من عدم قناعة الإمام محمد عبده بوقوع أي نوع من الكرامة علي يد أي ولي بعد انتهاء عصر النبوة مع ما قد يكون مخالفة لما استقر عليه أئمة الدين وعلمائه من قبله ، إلا أن ما دفع الإمام محمد عبده إلى هذا الموقف ما رآه من عناية كل أتباع الصوفية فى عصره بهذه الكرامات والافتنان بها وتداول قوعها بين الناس ، يؤدى إلى تشويه صورة الإسلام فضلاً عن صورة التصوف وعقيدة

---

(١) نفسه ، ص ٥٢ .
(٢) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٨٦ .
(٣) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٨٧ .

الإسلام . وعبارات الإمام محمد عبده تكشف عن غيرته على التصوف بسبب ذيوع مثل هذه الكرامات بين عامة المسلمين ودليلنا على ذلك قوله « أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء ويتفاخر فيها همم الأصفياء وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون »[1] ، **ومهما يكن من رأى الإمام محمد عبده إلا أن الإنصاف أيضًا يقتضى منا أن نؤكد على أن الصوفية المحققين لا يرون فى الكرامة شيئًا لازمًا للصوفي إذ ليس بالضرورة أن تتلازم الكرامة مع الولاية بل لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة فى الدنيا كما يقول القشيرى لم يقدح عدمها فى كونه ولى** [2] ، وليس أدل على ذلك أيضًا من قول الإمام الرفاعى (ت٥٧١ هـ) إنى لأستحى من الكرامة كما تستحى المرأة من دم الحيض»[3] . وأيا ما كان الأمر فليست الكرامات عند الكمل من الصوفية شيئًا مرغوبًا فيه ما لم تقترن بالإستقامة ، وتلك عندهم هى الكرامة المعنوية ، أما الكرامة الحسية فليست بالضرورة شاهدة على ذلك ما لم تكن مقرونة بالإستقامة ، فإذا لم تكن كذلك فهى استدراج ومكر[4] .

---

(١) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٨٧ .

(٢) القشيرى : الرسالة القشيرية ، تحقيق الدكتور ، عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشرى ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، جـ ٢ ، ص ٦٦٢ .

(٣) الرفاعى : البرهان المؤيد ، تقديم صلاح عزام ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص٥٨.

(٤) ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية فى المباحث الأصلية ، تحقيق عبد الرحمن محمود ، عالم الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٦١ ، وأيضًا قوانين الاشراف على الصوفية ، فى كافة الآفاق ، ص ٦٢،

وأيضًا لبيان حقيقة الكرامة عند أهل السنة والجماعة أنظر رأى ابن تيمية فى مؤلفاته : قاعدة شريفة فى الموجودات والكرامات ، ص٧، وكذلك فى كتابة : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ص ٥٤٨ .

ولم يقف نقد الإمام محمد عبده للصوفية عند حد البدع الاعتقادية بل امتد ليشمل البدع العملية فهذه وتلك كلها من الأمور التى لزمت من تقديس الأتباع لأوليائهم وشيوخهم فى أثناء حياتهم وبعد مماتهم فيشيدون لهم القبور تارة ويقيمون لهم الموالد تارة أخرى . وليس أدل على ذلك مما رواه الإمام محمد بعده من أن واحداً من الوجهاء كان عنده فى أثناء مولد السيدة زينب ومعه جماعة آخرين فى شهر رجب ، فقال الوجيه للإمام محمد عبده أنه ذاهب لزيارة السيدة فلما سأله لما خصصت الزيارة لهذا اليوم قال لأنه يوم المولد، وأن هذه الليلة هى الليلة الكبيرة ، فقال له الإمام ما هذا المولد ؟ هل يوم المولد أو الليلة الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين؟ ونهاه عن الذهاب فلم ينته وهم بالخروج فقلت له إننى لست مازحًا وإنما أتكلم الجد وأقول إن هذا العمل من أعمال الوثنين وأن الإسلام يأباه ، وكل آيات القرآن فى التوحيد تنهى عن هذا وتذمه . إن الفاتحة التى تقرأونها كل يوم فى صلاتكم مراراً تنهاكم عن هذا العمل ، تخاطبون الله تعالى بقول إياك نعبد وإياك نستعين ، فإنكم تستعينون بغيره وتعبدون غيره ، ثم إن عملكم هذا متناقض حيث تهدون الفاتحة إلى من تزرونه، إذ معناه أنه محتاج إليكم وينتفع بفاتحتكم ثم تطلبون منه قضاء الحوائج [1] . مثل هذه الممارسات الخاطئة فى توجه الأتباع إلى بعض قبور الأموات سواء من آل البيت النبوى أو من مشايخ الصوفية تعد من قبيل الأمور البدعية فى الإعتقاد والتى لا تستقيم مع عقيدة التوحيد . **ولذلك كان طبيعيا أن يشدد الإمام محمد عبده النكير على مسلك من استعانوا بغير الله وتوجهوا إلى هذه القبور والأضرحة التى شيدوها لأوليائهم طلبًا لقضاء الحوائج ودفعًا للكربات أولئك**

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص٥٥٥ .

الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء مرضاهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح وهم كما يقال الإمام ناكبون وعن ذكر الله معرضون [1] . إن حاصل قول الإمام محمد عبده تنبيه مهم فى رأينا على ما دل عليه الهدى القرآنى من ضرورة أن يبذل الإنسان جهده وإرادته فى ما يقوم به من الأعمال ، ومن ثم فلا تكون الإستعانة إلا بالله ، وهى لا تكون إلا عند عمل بذل فيه المرء طاقته ولم يوفيه ويخشى ألا ينجح وحينئذ يحق له طلب المعونة على إتمامه وهذا يدل عليه قوله تعالى ﴿ إياك نستعين ﴾ **فقد أفاد كما يقول الإمام محمد عبده ضرورة تخصيص الإستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك وهو روح الدين وكمال التوحيد، وفى ذلك تخليص للنفوس من التعلق برق الأغيار، وفيه، كما يقول محمد عبده، ما يفك إرادتهم من أسر الروحانيين والشيوخ وفى ذلك أيضًا ما يطلق عزائمهم من قيد المهينين الكاذبين من الأحياء والميتين**[2] .

ولعل ما سبق يكشف عن ألمعية شيخنا محمد عبده فى نقده العنيف لكل الصور الخاطئة عن الصوفية فى الإعتقاد أو السلوك نعنى الغلو فى حق الأولياء وتقديسهم والتوسل بهم لقضاء الحوائج وتفريج الكربات ، وهى أمور لازمت تصورهم للولاية ونجدها عند العامة بل وللأسف عند الخاصة منهم حتى استقر فى أذهانهم أن دوام التعلق بهم ـ الأولياء ـ لا يكون إلا بالإتيان لهذا كان حريًا بالإمام محمد عبده نقد أتباع الصوفية فى عصره لأن الحاصل منهم فى حق الأولياء لا يستقيم مع عقيدة الإسلام وشريعته ، فضلاً عن أن الشيوخ المؤسسين للتصوف يبرأون منه . وحرص الإمام محمد عبده على ذلك تجلى أيضًا فى مسلك مريده الأمين الشيخ مصطفى عبد الرازق فراح هو الآخر يشدد النكير

---

(١) محمد عبده : تفسير جزء عم ـ فاتحة الكتاب ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ص ٣٥ .
(٢) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

على مسلك هؤلاء الصوفية الذين شوهوا صورته بفعل غلوهم فى حق أوليائهم نلمح ذلك جليا فى قوله « ومسجد السيد البدوى مورد أهل الطرق ومجمع المجاذيب الذين يظن كثير من الناس أن لهم فى صفحة الغيب لمحات » [1] . والحق الذى لا مراء فيه الإمام محمد عبده وكذلك تلميذه مصطفى عبد الرازق قد أصابا معًا كبد الحقيقة لما شددا النكير على موقف الصوفية بشأن تقديس الأولياء فى حياتهم ومماتهم وفى تشييد الأضرحة وبناء المزارات فكل ذلك يشوه فى نظرهما ونظر الغيورين على الإسلام صورته ونصاعته . وحسنًا فعل الإمام محمد عبده ما فعل فمثل هذه الأمور البدعية قد التصقت فعلاً بأذهان الكثيرين من غير المسلمين فراح بعضهم يجعل من شيوع تقديس الأولياء وزيارتهم فى مقابرهم وتقديس مزاراتهم من الأمور التى يشترك فيها المسلمون جميعًا سواء أكانوا من أهل السنة أو الشيعة ، ولكن لأمانة بعضهم فقد أكد واحد منهم هو بطروشفسكى بأن شيئًا من هذا كله لم ينص عليه فى آيات القرآن نفسه[2] .

وينتقد الإمام محمد عبده كذلك ما يشيع فى مجالس الذكر والحضرات من أمور بدعية كالطبل والزمر والصياح والصراخ والرقص وهى أمور ليست من الدين فى شىء وبالتالى فليست من جنس التصوف الصحيح ، إذ لم يبق منه عند المتأخرين إلا رسومه الظاهرة وهى أصوات وحركات يسمونها ذكرًا يتبرأ منها كل صوفى [3]، ومن مثالب الصوفية وسقطاتهم ما يحدث فى مجالس الأذكار والحضرات التى يقيمونها وفى حضرة شيوخهم ويحدث فيها ما فيها من خروج

(١) مصطفى عبد الرازق : محمد عبده ، ص ٣٣ .

(٢) بطروشوفسكى : الإسلام فى إيران ، ص ١٧٧ ، وأيضًا من ١٨٠ ـ ١٨٢ .

(٣) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٤ ، ص ٣٨٧ .

عن حد الآداب التى تليق بالمسلم فى مجلس الذكر المشروع ، وقد سجل الإمام محمد عبده شيئًا مما يحدث فيها فقال « فمن شأن بعض طرق المغاربة أنهم كانوا يجتمعون للذكر ويتخذون الطبل آلة لهم وبعضها كان شكله مستطيلاً والبعض الآخر كان شكله دائريًا وكلها كانت تصدر أصواتًا مع أصوات الطبول ، وأتوا بألفاظ لا مدلول لها وكان من عاداتهم كما يقول الإمام محمد عبده الإتيان بمثل هذه العادة فى مسجد الإمام الحسين وفى مولده » (١) .

والحق أن ما سجله الإمام محمد عبده على الصوفية أمر لا يقبله الشيوخ الراسخون منهم ، فقد استنكروا ذلك تمامًا ، إذ جعله الطوسى (٣٧٨هـ) من زلات الصوفية ومن أغاليط أفعالهم (٢) ، **وزاد الهجويرى** (ت٤٦٦هـ)على ما قاله الطوسى أنه ليس له أصل فى الشريعة والحقيقة من حيث إنه بإتفاق جميع العقلاء كما يقول الهجويرى « لهو حين يكون جداً ولهو حين يكون هزلاً لهذا لم يمدحه أحد من المشايخ ولم يغل فيه أحد على حد قوله » (٣) .

ويدلى الإمام محمد عبده بدلوه فى مسألة الشيخ الذى يراه الصوفية منذ بدء طريقتهم عصب الطريق إلى الله لمن يسلك طريقتهم فعندهم لابد لكل سالك أو مريد من شيخ ومن ليس له شيخ فإمامه الشيطان وفائدته كما يقول بعضهم تدرج المريد فى مقامات الإنزال وتبعده عن القواطع والأشغال(٤) ، ثم

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، القاهرة ، ١٩٣١ ، جـ٢ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، وأيضًا انظر كتابنا الإمام المجدد ابن باديس والتصوف ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٩٩ ، فقد وقفنا فيه ، طويلاً عند هذه النقطة وغيره ، انظر بشأن الذكر وحلقات الرقص ص ١٠١ وما بعدها .

(٢) الطوسى : اللمع ، تحقيق طه عبد الباقى سرور ، والدكتور عبد الحليم محمود ، دار الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٥٣٠ .

(٣) الهجويرى : كشف المحجوب ، جـ ٢، ص ٦٤٣ - ٦٦٤ .

(٤) ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية فى المباحث الأصلية ، ص ٢٣٨ .

هو أيضًا ضرورة تبين للمريد آفات النفس ورعوناتها فينتقل بسبب ذلك من التخلى إلى التحلى ، إذ لا يعرف الطريق إلا من سلكها فلابد له من صحبة أخ صالح أوشيخ ناصح لتحصل السلامة من الرعونات [1] . بيد أن هذا الشيخ الذى يعهد الصوفى أمرهم إليه بقصد تهذيب نفوسهم تصبح طاعته عندهم عمياء ، فيكون المريد له كالميت بين يد الغاسل ، ولابد له ـ كما يقول محمد عبده ـ من التسليم فى كل شىء من غير منازعة له حتى لو أمره بمعصية لكان عليه أن يعتقد أنها لخيره [2] .

بيد أن هذا الغلو للصوفية فى علاقة الشيخ بمريده مسألة لا يقبلها الإمام محمد عبده على هذا النحو الذى رآها من أتباع الصوفية فى عصره ، ولهذا لما سئل ذات يوم عن حكم من كان جاهلاً بما يجب عليه لله تعالى ومقصرًا فيما يعرفه من الواجب هل ينبغى له أن يطلب شيخًا مرشدًا يضع يده فى يده ويعاهده على السمع والطاعة ليدله على الله . أجاب الإمام وقوله الفصل بما يفصح عن سلامة عقيدته وصفاء سريرته ، وبما يستقيم مع الصوفية المشروعة التى ارتضاها أو بالأحرى يرتضيها فى ضوء أصول الإسلام فقال : « ينبغى لك أن تطلب المرشد وأنا أدلك على طريقة الطلب وهى أن تعمل أولاً بجد وإخلاص بما تعرفه من أمور الدين الظاهرة التى لا خلاف عليها إذا استقمت على ذلك ، وظهرت لك أمور أخرى دقيقة يشتبه عليك الحق فيها ، فاطلب من هو أشد منك محافظة على العمل بما تعمل وأعلم منك بتلك الدقائق ليرشدك إلى مسلك الحق فيها وقال له أتعرف أن أكل أموال الناس بالباطل حرام ، وأن إيذاء الناس حرام ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، وأيضًا انظر فى شأن الطريقة الأكبرية ، بحث منشور للأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى الكتاب التذكارى عن ابن عربى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣١٨ .

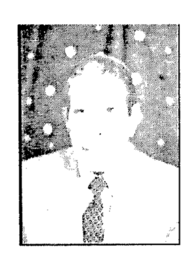
(٢) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٤ ، ص ٣٧٧ .

وأن التعاون على الشر حرام ، وأن الكذب والخيانة حرام ، وأن الصلاة والزكاة من الفرائض وأن الصدق والأمانة والتعاون على الخير ومواساة المحتاج من الفضائل المحمودة فقال السائل : نعم ، ولا أحتاج فيه إلى مرشد ولا أستاذ ، وحينئذ قال الأستاذ الإمام : إذا عملت بهذا كله بإخلاص فأنا أضمن لك على فضل الله تعالى القبول والرضوان وأن يهديك إلى الدقائق وكشف الشبهات فإنه قال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1] ، وفى الحديث : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » . وتستغنى عن المرشد إذا لم تجده لقلته فى هذا الزمن ، وإذا وجدت من تراه سابقًا لك فى العلم والعمل وحسن الخلق وأردت أن تسترشد به ، فانظر وراء هذا شرطًا واحدًا ، وهو ألا يكون دين هذا الرجل دكانه ، أى ألا يقبل منك جزاءً على هذا الإرشاد ، فإذا رأيته لا يمد يده للأخذ فامدد إليه يدك ، وعاهده على الاسترشاد بعلمه وعرفانه ، فإذا كان يمد يده للأخذ منك فلا تمدد يدك إلى يده إلا بالسكين فإنه لص قد اتخذ الدين حرفة واكتفى بالعمل بما تعلم والله يهديك ويسددك »[2] . ولعمرى أن شيخنا محمد عبده محق فيما يراه بشأن هؤلاء المتاجرين بالتصوف من شيوخ عصره فما هكذا يكون التصوف الحقيقى ، وما هكذا يكون أو ينبغى أن يكون عليه حال الصوفية المحققين ، **فهم عنده لا يتكسبون ولا يتعايشون من التصوف، لأنهم بمثابة مصابيح هداية للناس علمًا وعملاً ، وهم إن كانوا كذلك** كانوا بالتالى عنوانًا للروحية الصافية والصوفية الخالصة المتنورة بنور الإسلام عقيدة وشريعة ، وتلك هى الصوفية الحقيقية التى لا إفراط فيها ولا تفريط وهذا هو الذى يجعلها وجعلها من قبل مقبولة لا مرزولة من قبل أئمة الدين الراسخين ومن بعدهم المصلحين المجددين من أمثال محمد عبده ومن سلك مسلكه .

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦٩.

(٢) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ ٣ ، ص ٥٤٩ .



الإمام محمد عبده وقضايا التعليم

للأستاذ الدكتور. محمود سلامة
أستاذ الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم بجامعة المنيا

إن الحديث عن موقف الإمام الشيخ محمد عبده من قضايا التعليم يفرض على الكاتب أن يوضح المراد بقضايا التعليم فهذه القضايا ـ وإن أصبحت الآن بمثابة المعروف بالضرورة ـ فربما كانت في عهد الإمام مما يحتاج إلى بيان ، خاصة أن المجتمع المصرى إذا ذاك كان بمنأى عن مثل هذه القضايا ، ولا أقول المجتمع المصرى فحسب بل إن المجتمع العربى والإسلامى كان أشبه ما يكون في غيبوبة عن الوعى بمثل هذه الأمور ، اللهم إلا أن تلمح هنا أو هناك بعض الانتباه إلى بعض تلك القضايا .

وليس من الغريب القول إن أول قضية ينبغى أن تتصدر ذهن الباحث إنما تتضمن الإجابة على هذا السؤال وهو : التعليم لمن ؟ وممن ؟ ثم تتوالى الأسئلة بعد ذلك لكى تكون الإجابات عليها فى النهاية شاملة لكل قضايا التعليم فمثلاً : ما حقيقة المادة العلمية التى يجب أن تؤخذ فى الحسبان عندما نريد أن يدركها المتعلم ؟ وما نوع المعلم الذى من المفترض أنه هو الذى سيتولى عرض هذه المادة العلمية أمام طلابه ؟ ثم ماذا يجب أن يقدم للطالب المتلقى من أدوات تجعله مهيئًا لقبول ما

يلقى إليه ؟ ثم ما هو المنهج أولاً ، لتكون العملية التعليمية مكتملة تؤدى الغرض منها . وما هى الطريقة التى تقبل تطبيق هذا المنهج لكى تعطى النتيجة المرجوة وكذلك ما هى الظروف البيئية التى تتطلب نمواً أو تغييراً أو تطويراً أو إصلاحًا بحيث يهيأ المتلقى أو الطالب ليعمل فى مجالها ؟ وأخيراً ما هى العوامل المشجعة أو المثبطة لكى يتم الوصول بطالب العلم إلى ما ينبغى أن يحمله على عاتقه فى مستقبل الحياة ؟

ربما يظن البعض أن الإمام محمد عبده لم يتلفت إلى الإجابة عن مثل هذه الأسئلة إلا يوم أن شعر باليأس من مجال الكفاح السياسى مع أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى حينما **اقترح على الأستاذ خطة جديدة للإصلاح أعنى إصلاح الأمة والانصراف عن إصلاح الحكام حتى يأتى اليوم الذى يظهر** من بين هذه الأمة من يتسنم سدة الحكم فيعمل العمل الذى يسعيان إليه وهو الوقوف فى وجه المتربصين من أعداء الأمة . وإن كان أستاذه قد غضب غضبًا قويًا عند سماعه لهذا الاقتراح ، وكان اقتراح الإمام يتركز فى اختيار مجموعة من الطلاب النابهين بعيداً عن سيطرة الحكومات وهؤلاء الطلاب يتوجهون إلى بلادهم بعد إتمام تعليمهم لكى يعلموا غيرهم وهكذا ينتشر الوعى والعلم فى أرجاء العالم الإسلامى ، **ولكن رد أستاذه على هذا الاقتراح بقوله (إنما أنت مثبط)** .

وقد يظن البعض أيضًا أن الإمام لم ينصرف إلى مجال التعليم وقضاياه إلا يوم أن يئس من قضايا الإصلاح السياسى فقال فى كتابه (الإسلام والنصرانية) إن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين ، فأنا معك من الشاهدين ، أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس .

ولكن الحق الذى ينبغى أن يعلن فى هذا المقام هو أن التعليم وقضاياه والاهتمام بها إنما نشأ مع الإمام منذ نعومة أظفاره ولا نتوقع أن ينبغ إنسان ما

فى مـجال من المجـالات إلا إذا كان لهـذا المجال أثـر ذاتى ومعـاناة شخـصيـة ، وصـراع شخـصى جـاهد الإنسـان من أجله ، وواجـه كثـيـراً من الإخـفاقـات والعقـبات ، كمـا صادف عديداً من النجـاحات والانتـصارات ، وبذلك يملك هذا المجال عليه نفســه فلا يستطيع منه فكاكًا فيجعله منهج حيـاته كلها . خاصة إذا أضيف إلى ذلك ميل فطرى إلى هذا المجال ، ورزق هو نفســه شيئًا غير قليل من قوة الإرادة ، والصبر والمثابرة .

لسنا فى حـاجة الآن لأن نقص بالتـفصـيل تلك الأزمـة التعليـميـة التى حدثت له وهو بين الطفولة والمراهقة عندمـا صدم فى أساتذته الذين يرددون ما لا يعقلون ، فضلاً عن تلاميذهم ، وهى الصدمة التى كادت أن ترده مزارعًا مثل إخوانه . ولسنا فـى حاجة إلى أن نروى مـا حدث له على يدى الشـيخ الصوفى وهو درويش خـضر من أخـوال أبيـه حيث هدى على يديه إلى كـيـفيـة التلقى الأمثل ، وكيفية بناء العلاقة بين الطالب والأستاذ .

إن الذى يعنينا هنا هو أن الإمام، وهو لم يزل فى هذه السن الصغيرة، لمس الفرق بين طريقتين فى التعليم طريقة عقيم وطريقة مثمرة، الأولى كانت هى الطريـقـة الغالبـة فى أيامه سواء فى المعـاهد الأزهرية المنتشرة فى مـصر أو فى الأزهر ذاته حيث صـدم مرة أخـرى بها عندمـا انتقل إلى تلقى العلم بالأزهـر ، الأمر الذى دفعـه إلى العزلة عن الناس والفرار مـن التفاعل مـعهم والانكفاء على التجربة الصوفـية داخل النفس ، **لولا أن الشـيخ درويش** يتدارك الأمر مـرة أخرى حيث انتـزعه من وحـدته وانعـزاله ، إلى العيش وسط الناس يـتبـادل معـهم الأفكار فيأخـذون منه ويأخذ منهم . **ويكمل أستاذه جمال الدين الأفغانى** ما بدأه الـشيخ درويش . لأن أستاذه جمال الدين قد مر بهـذه التجربة . ومن هنا فهم التصوف على أنه ليـس فناء فى الله بل فناء فى خـلق الله وهو ذلك التـصـوف الإيجـابى الذى يدفع المتصوف ، وقد استهان بالـدنيا إلى مقارعة الأمراء والسلاطين ، ولا

نعجب بعد ذلك ، عندما نسمع أن الخديو عباس كان يشكو من مسلك الإمام محمد عبده فى حضرته فيما بعد **ويقول « إنه يدخل على كأنه فرعون ! ويستمع محمد عبده إلى هذه الشكوى فلا يزيد على أن يقول : وأينا الفرعون ؟ »**.

ولا نشك الآن فى أن هذه القفزة الجريئة فى شخصية الإمام إنما كانت ثمرة من غرس جمال الدين الذى أخذ بعض جلساء السلطان عبد الحميد عليه تلاعبه بمسبحته فى حضرة السلطان **فقال : إن حضرة السلطان يتلاعب بمصير ملايين المسلمين أفلا يحق للأفغانى أن يتلاعب بمسبحته !** .

بذلك اكتملت الأسس فى شخصية المعلم المنشود وهى أنه لابد أن تكون أسسًا روحية مادية فى آن واحد . ومن ثم ينبغى على هذا المعلم أن ينقل هذين الجانبين إلى تلاميذه .

وفى هذا الصدد يحفظ لنا الإمام درسين من دروس أستاذه جمال الدين أولهما فى فلسفة التربية ، والثانى فى الصناعة .

فى المقال الأول يبين فيه أن الإنسان ليس عنصرًا واحدًا بل هناك العنصر الروحى ، والعنصر المادى ، ويجب أن يحدث توازن بين هذين العنصرين أما أن يغلب أحد العنصرين صاحبه فإن النتيجة هى السقوط فلا يمكن أن يكون روحًا خالصًا ، كما لا يمكن أن يكون حيوانًا خالصًا . **وفى المقال الثانى** بين أن فى الصناعة قوة للأمة بحيث تأخذ من أسباب القوة ما يجعلها مهابة من بقية الأمم .

والنتيجة لهذه النظرة أن ما ينبغى أن يلقى إلى الطلاب هو ما يقوى هذين الأساسين فى الإنسان . فلا يكتفى بما سطره القدماء من فقه وشىء ومن العقائد والتفسير بل ينبغى أن يتواكب ذلك مع الأخذ بعلوم الدنيا . فقد كان الأزهر حتى عصر الإمام يحاضر فيه الأساتذة تحت الأعمدة لطلابهم شيئًا من علوم المقاصد دون فهم أو مناقشة لما كتبه الأقدمون ، ولا يزيدون عليها إلا

شروحًا أو حواشى على الشروح أو تقارير على الحواشى دون السماح للطلاب بالمناقشة ودون اهتمام من الشيخ بحضور الطلاب أو غيابهم أو صحتهم أو طريقة عيشهم . كما أن الشيخ نفسه لا يكاد يجد ما يسد رمقه من وسائل العيش الكريم ، ولم يغب عن الإمام السبب فى رداءة عيش طلاب الأزهر ومعلميه وهو سياسة **محمد على إذ يقول : « أخذ ما كان للمساجد من الرزق ، وأبدلها الشىء من النقد يسمى (فائض الرزنامة) لا يساوى جزءًا من الألف من إيرادها ، وأخذ من أوقاف الأزهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لا تقل** عن نصف مليون جنيه فى السنة ، وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة ».

لقد كان شيخه درويش خضر يسأله عندما كان يزوره فى القاهرة هل تدرس المنطق والرياضيات والهندسة فيجيبه بأن هذه العلوم لا تدرس فى الأزهر فيحثه على الاعتماد على نفسه وعلى من يجد فيهم القدرة على ذلك من أمثال الشيخ حسن الطويل ولو أنه لم يكن يقنع بما يلقيه إليه هذا الشيخ .

ونحن هنا مضطرون إلى أن نلجأ إلى الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار ، وإلى الشيخ رفاعة الطهطاوى فى كتابه (مناهج الألباب العصرية) لنرى ما إذا كان الأزهر فى تاريخه العريق اكتفى بهذه الهشاشة من العلم والمعرفة أم أنه كان يأخذ بشتى أنواع العلوم التى من شأنها أن تبنى الأمم وتجعلها تأخذ بأسباب التقدم والحضارة .

يروى الأول الجبرتى أن الأزهر فى عهده كان قد نفض يديه من هذه العلوم فقد ذكر أنه فى عام ١٧٤٨ جاء إلى مصر وال من جهة الدولة العثمانية هو العالم أحمد باشا كور ، وكان من المشتغلين بعلوم الهيئة والرياضة ، فطلب من الشيخ عبد الله الشبراوى مذاكرة العلماء الأزهريين فى هذه العلوم ، فكانت إجابة الشيخ : أن هذه العلوم لا تدرس فى الأزهر فقال الوالى : كنت

أحسب مصر كما نسمع فى بلادنا منبع العلوم والفضائل ، فلما جئتها أخلفت ظنى ، وذكرت المثل القائل (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) .

قال الشيخ الشبراوى : بل هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف .

قال الوالى : وكيف وأنتم أعظم علمائها ، ولم أجد عندكم شيئًا من هذه العلوم ، وغاية تحصيلكم المنطق والتوحيد ، ونبذتم علوم الهيئة والرياضة . قال الشيخ لسنا أعظم علمائنا ، ثم إنها فرض كفاية ، وعندنا من العلماء من يجلسون فى بيوتهم ويهتمون بمثل هذه العلوم ، وأصحاب الاهتمام بهذه العلوم يذهبون إليهم فى بيوتهم ، ودله الشيخ الشبراوى على الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى .

من الواضح أن ذلك كان خلال القرن الثامن عشر وهو القرن الذى أصبح فيه الأزهر لا يهتم بالعلوم التى كان للمسلمين القدماء اليد الطولى فيها وأن أوربا قد أخذت عنهم هذه العلوم وطورتها فسبقت العالم الإسلامى فى مجال القوة المادية .

أما قبل القرن الثامن عشر فلم يكن الأزهر خلوا من تلك العلوم ، بل كان ما يزال متمسكًا بها حريصًا عليها ، ولم يكن يسمح للمتخرج فى هذا الجامع العريق بأن يحصل على إجازته إلا إذا كانت هذه العلوم ضمن ما درسه من سائر العلوم العربية الإسلامية ، **يقول الطهطاوى** فى كتابه السابق الإشارة إليه (إن من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى ... رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير ، وأنه له فيها المؤلفات الجمة ، وأن تلقيها إلى أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المحلية ، وهذا الذى ذكره الطهطاوى يؤكده سند الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهورى فى أخريات القرن السابع عشر تقريبًا وفيه بيان الدروس التى حضرها وأجادها وألف فيها ، وهى عدا علوم الفقه واللغة ، دروس الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات ، وأسباب الأمراض وعلاماتها وعلم الاسطرلاب والزيج

والهندسة والهيئة وعلم الأرثماطيق وعلم المزاول ، وعلم الأعمال الرصدية ، وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلاج البواسير وعلم التشريح ، وعلاج لسع العقرب ، وتاريخ العرب والعجم.

هذه هى الصورة الحقيقة لما ينبغى أن يكون عليه منهج الدراسة فى الجامع الأزهر أما الصورة السابقة التى عرضها الجبرتى وهى تمثل مواد الدراسة فى ذلك الجامع إبان القرن الثامن عشر فقد كانت صورة شارك فى رسمها جمود العلماء ، وإهمال الحكام أو استرضائهم للعلماء الجامدين .

ويؤيد ما ذهب إليه الطهطاوى ما جاء عن أستاذه الشيخ حسن العطار فى حاشيته على شرح الجلال الحلى على جمع الجوامع فى أصول الفقه حيث يعبر لنا عن نفثه مصدور كما ذكر هو إذ يقول : (من تأمل ما سطرناه وما ذكر من التصدى لتراجم الأعلام ، علم أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية ، والأحكام الدينية لهم اطلاع على غيرها من العلوم وإحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها ، حتى فى كتب المخالفين فى العقائد والفروع ...

وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام ثم **ينتقل الشيخ العطار** إلى وصف الحال فى زمنه وهو أخريات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر) وفيما انتهى فى زمن وقعنا فيه ، علم أن نسبتنا فيه كنسبة عامة زمانهم ، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئًا من عند أنفسنا ، وليتنا وصلنا إلى هذه الرتبة ، بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم نكررها طول العمر ، ولا تطمع نفوسنا إلى النظر فى غيرها ، حتى كأن العلم انحصر فى هذه الكتب فلزم من ذلك أنه إذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن

هذا كلام الفلاسفة ، ولا ننظر فيه ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها فى جمع الجوامع فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية ، قلنا هذا من علوم أهل البطالة . وهكذا فصار العذر أقبح من الذنب ... فالمرموق بنظر العامة بما يسمى عالمًا ، إما أن يتستر بالسكوت ، حتى يقال إن الشيخ مستغرق ، أو يتقزز بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع .

وقالوا سكرنا بحب الإله وما أسكر القوم إلا القصع

وهكذا كان حال التعليم فى الأزهر بين عهدين بين عهد سابق مزهر ، وعهد آخر شهده الجبرتى والشيخ حسن العطار وتلميذه رفاعة الطهطاوى لا ينم إلا عن جمود وخمول وعزوف أولياء الأمور عن أن يمدوا يد الإصلاح إلى ذلك المعهد العتيد . بل إن رفاعة الطهطاوى نفسه قد حيل بينه وبين محاولة إصلاحه ، وهو الذى كان أثيرًا عند ولى الأمر لأنه أبعد إلى السودان فى أخريات أيامه بحجة حاجة ذلك القطر إلى إصلاح التعليم وتنظيمه ، وقد وافته منيته فى عام ١٨٧١ م .

شغلت هذه القضية روح وعقل الأستاذ الإمام وهو لم يزل طالبًا فى الأزهر ، فنشط لفك هذه العقدة فى مجالين ، مجال الصحافة ، ومجال الدراسة ، أما المجال الأول فقد نشر عدة مقالات فى جريدة الأهرام جاء فى أحدها أن هناك مدبرين يتنازعان الإنسان أحدهما المدبر الحيوانى والثاني المدبر العقلي الروحاني أما **الأول** فهو ما يعني بجميع الإحساسات الظاهرة والباطنة وما له من حفظ تركيب الحيوان ، على حين يعنى **الثانى** بقوى الإنسان العاقلة التى ليس لها غاية سوى كشف المعمى والتحلى بالملكات الفاضلة ، فالإنسان ينقسم إلى قمسين **قسم أخذ إلى أرض الحيوانية ، وقسم قد ارتقى إلى ذروة الإنسانية** وكلما قوى فى فطرة الشخص جانب الإنسانية ، كان ميله نحو التصرفات العقلية يأنف الظلم ويدفع آثار الجهالة ويأخذ بالبرهان .

وهنا تتبدى فيه آثار جمال الدين الأفغانى فى مقاله الذى احتفى به الأستاذ الإمام على نحو ما أشرنا ، وتظهر لنا عبقرية الرجل فى فهم الطبيعة الإنسانية ومعرفة ما يلزمها من علم ومعرفة ، وسنرى آثار ذلك فى جميع مراحله التى سنستعرضها تباعًا ، كما نستبين من خلالها الإجابة على أخطر سؤالين طرحناهما سلفًا وهما (التعليم ممن ولمن) **فالعلم** هو الذى استكملت شخصيته البدنية والعقلية أو إن شئت : المادية والروحية ، **وكذلك الطالب** وينبغى أن نعطيه من العلم ما يربى فيه هذين الجانبين ، لأنه إذا كان هذا هو حال الفرد فبالأحرى أن يكون ذلك هو طابع الأمة كلها ، ولذلك نراه يختم هذا المقال بشىء ينم عن الهدف أو المغزى من هذا المقال إذ يقول : ((فمن الناس من كانت فضائله العقلية اسما لا غير يقلدون فى الاعتقاد ولا يجيزون دروس العلوم الفلسفية ، ومنهم من يتهلل لسوء أحوال البلاد ، ويبتهجون إذا بشروا بتسلط أعدائهم ، وما ذاك إلا من تدانى الهمم ، وتراكم الظلم ، والوقوع فى حفرة الحيوانية والانحطاط عن درجة الإنسانية ، وذلك بدل أن يتحدوا أمام عدوهم المشترك ، وينبذوا جميع التعصبات الدينية)) .

ويحاول الأستاذ الإمام تطبيق نظريته السابقة فى مقال آخر نشره فى الأهرام بعد المقال السابق فيدعو إلى دراسة علم الكلام وإلى دراسة العلوم العصرية ، ويصور ذلك فى صورة كاريكاتورية ساخرة فيتخيل. أو لعله قد حدث ذلك بالفعل - أن طالبًا أخذ فى دراسة المنطق وهو إذ ذاك مقدمة لدراسة علم الكلام فيفزع زملاؤه الجامدون إلى والده بإرسال خطاب إليه بأن والده قد انحرف عن الجادة فى الدراسة فيحضر الوالد إلى القاهرة ، ولا ينصرف منها إلا بعد أن حلف له ابنه بالقرآن أنه ما زال صادق الإيمان ويعلق الأستاذ الإمام على هذه الحادثة المتخيلة أو الواقعية بقوله : (وليت شعرى إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد

ارتضعت ثدى الإسلام ، وغذيت بلبانه من زمن يزيد على ألف سنة ، فما حالنا بالنسبة لعلوم جديدة مفيدة ، هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمنة ، وإلام نضع أصابعنا فى آذاننا إذا ذكرت) . ويضيف الإمام ((والعلماء الذين هم روح الأمة، لم يروا إلى الآن لهذه العلوم الجديدة فائدة ، ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه ، غير ملتفتين إلى أننا أصبحنا فى خلق جديد ، قد طرحنا الأيام بديننا ، وشرقنا فى بادية قد غصت بآساد ضارية ، فإن كنا من آحاد تلك الآساد ، فقد وقينا أنفسنا وديننا ، وإلا فإما أن نطرح ديننا وننجو بأنفسنا ، وإما أن نبيد عن آخرنا لسوء الجهل وضلال الطريق)) .

وينهى الأستاذ الإمام دراسته فى الأزهر وينال درجة العالمية ولا نريد هنا أن نتحدث عمن كان يتربص به فى الامتحان لكى يخفق ، ولكننا نعرض فقط لما أخذ به نفسه فى مجال التعليم فقد عين مدرسًا بالأزهر ، ومدرسًا فى دار العلوم ، ومدرسًا فى مدرسة الألسن ، هذا إلى جانب عقد دروس فى بيته لمن أراد أن يتزود من علمه .

أراده القائمون على شئون الأزهر أن يكون مدرسًا تقليديًا لا يقوم بتدريس مواد إلا تلك التى يحددونها له ، وذلك لما عرض على شيخ الأزهر إذ ذاك أن يقوم بتدريس (مقدمة بن خلدون) ، رفض شيخ الأزهر بحجة عدم جريان العادة بذلك ، وقد نفذ رغبته فى دار العلوم ، ولكن لم يمض وقت قصير حتى عزل عن التدريس فى الأزهر ودار العلوم وذلك بعد عزل إسماعيل ونفى جمال الدين بأمر من الخديوى توفيق ، فكان لابد من هذا العزل حتى لا يبقى أثر لجمال الدين سواء فى تعاليمه أو فى تلاميذه الذين يحملون هذه التعاليم ، ومن ثم أجبره الخديوى توفيق على ضرورة مغادرة القاهرة والاعتزال فى قريته محله نصر لا يغادرها .

كان ملجأه إذ ذاك هو رئيس الوزراء رياض باشا الذى توسط فى تعيينه محررًا فى (الوقائع المصرية) ولم يلبث أن أصبح رئيسًا لتحريرها .

من هنا استأنف الإمام مباشرة رسالته التعليمية ، فحول هذه الجريدة من مجرد نشرة للقوانين واللوائح وأخبار الإدارات الحكومية إلى جريدة أدبية علمية نقدية ، ترصد ما يحدث داخل الإدارات وتبين ما يصح فيها وما لا يصح وتفسح المجال للأدباء والمفكرين لكى ينشروا فيها آراءهم وأحاسيسهم .

والذى يعنينا هنا هو ما يتصل بدور الإمام من خلال تلك الجريدة فى قضية التعليم ، فمنذ اليوم الأول فى الجريدة وجه التفاته إلى حالة التعليم فى البلاد ، ونشر كثيرا من المقالات نقد فيها المدارس والمعلمين ، وطرائق التدريس وسياسة التعليم وأظهر ما فيها من عجز وقصور.

ويكفى استعراض عناوين المقالات التى دبجها فى جريدة الوقائع ما بين أكتوبر ١٨٨٠ م حتى أغسطس سنة ١٩٨١ م وكلها تدور حول قضايا التعليم ليكون ذلك شاهدًا على صدقه حينما عرض عليه فى مستهل حياته العملية بعض الوظائف خارج الإطار التعليمى ، فقال : ((إنما خلقت لكى أكون معلمًا)) وهذه العناوين هى (العدالة والعلم) ، (التربية فى المدارس والمكاتب الميرية) ، (المعارف) ، (ما هو الفقر الحقيقى فى البلاد) ، (الكتب العلمية وغيرها) ، (تأثير التعليم فى الدين والعقيدة) ، (بقايا مسألة التعليم والعقيدة) .

ولم تمض هذه المقالات التى ملأها بالنقد لما يحدث فى داخل المدارس ، ولما هو قائم من تقصير كثير من المشرفين عليها أو المعلمين الذين يقومون بالتدريس فيها ، وللطرق العقيمة التى تتبع فيها ، وللكتب والمادة العلمية التى تعرض على الطلاب ، **أقول لم تمض هذه المقالات بلا ثمرة فقد كانت النتيجة الحاسمة لكل أولئك هو أن قام رئيس النظار إذ ذاك وهو رياض باشا بإصدار أوامره بإنشاء**

المجلس الأعلى للمعارف فى ٣١ مارس سنة ١٨٨١ واختير الإمام عضواً فيه ، ثم اختير عضواً فى لجنة فرعية ألفها المجلس للنظر فى إصلاح طرق التعليم والتربية فى جميع المدارس غير أن الرياح قد تجرى بما لا تشتهيه السفن فلأمر خفى أو ظاهر ـ كما سيوضح الإمام نفسه ـ وجد نفسه خارجًا من هذا كله فى مايو ١٨٨٢ فقد وجد نفسه خارج الوقائع المصرية بعد أن قضى فيها ثمانية عشر شهراً .

وتتسارع الأحداث فتقوم الثورة العرابية وتتآمر القوى الخارجية المتربصة، والقوى الداخلية الانتهازية ، وتفشل الثورة ، ويحاكم زعماؤها فيكون نصيب الشيخ من تلك حكمًا بالنفى خارج البلاد لمدة ثلاث سنوات امتدت بعد ذلك إلى ما هو أكثر من ذلك ، حيث لم يعد إلى مصر إلا فى سنة ١٨٨٨ م .

لكن بالرغم من تسارع الأحداث إبان الثورة العرابية فإننا نكتشف فى الإمام حقيقة الوطنى المخلص لوطنه ورسالته الإصلاحية فقد كان فى بداية الأحداث حريصًا على بذل النصح والإرشاد إلى زعماء هذه الثورة ، مبينًا أن الأمة لم تهيأ بعد لمثل هذه الأحداث الجسام ومن الأولى تربية الأفراد وتعليمهم ، ومع توالى الزمن يزداد الوعى عند أفرادها ، فقد كان عرابى يطالب بإنشاء مجلس نيابى يستطيع أن يحد من سلطة الخديوى والحكومة وبذلك يحمى حقوق الشعب ، **ولكن كان للإمام رأى آخر إذ قال** : (إن أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية ، على بصيرة مؤيدة بالعزيمة ، وحمل الحكومة على العدل والإصلاح) .

غير أن الأمور كان مقدراً لهاً أن تسير على نحو مخالف لما يراه الإمام وذهب إلى بيروت ولكن ما لبث أن لحق بأستاذه جمال الدين فى باريس ليصدرا جريدة (العروة الوثقى) التى كانت ترسل إلى بلاد الإسلام ومنها

مصر لتحريك الشعوب ضد حكامهم الظالمين ولتحذيرهم مما يريده بهم الاستعمار الغربى ، وتوقفت العروة الوثقى بعد ما لاقته من محاربة .

وذهب جمال الدين إلى روسيا وعاد الإمام إلى تونس ومكث فيها بعض الوقت ثم تجول فى بعض البلاد العربية سراً إلى أن ألقى عصا التسيار فى بيروت مرة أخرى، وهنا لم يجد أمامه سوى المهمة الأساسية التى خلق من أجلها كما قال وهى التعليم وإصلاحه من حيث طرق التعليم والمواد العلمية التى ينبغى إلقاؤها للطلاب ، وكان يلقى دروسه ببيروت فى بعض المساجد ، وأقبل الناس من جميع الطوائف على دروسه منهم السنى والشيعى والدرزى والنصرانى واليهودى ، وكان يسع بصدره الجميع دون التنازل عن آرائه وعقائده، ثم دعى إلى التدريس فى المدرسة السلطانية ، فأدخل إصلاحات على إدارة المدرسة ، وعدل منهج التدريس ، وأضاف إليه دروسًا فى التوحيد ، والفقه ، والتاريخ الإسلامى ، والمنطق والبلاغة ، والإنشاء .

وأهم إنجازه فى مجال قضايا التعليم فى هذه الفترة هو ما قدمه من تحرير لائحة اصلاح التعليم العثمانى، ولائحة إصلاح القطر السورى، ومشروع إصلاح التربية فى مصر.

ومن يطلع على تفاصيل هذه المشاريع أو اللوائح يجدها جميعًا تدور حول السعى لصناعة إنسان مسلم يجمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين ، ومن ثم حث على العناية بالطالب فيما ينبغى أن يلقى إليه ، وحث على العناية بالمعلم فيما يجب أن يكون مسلحًا به من علم وخلق وتدريب على تطبيق وسائل التربية الحديثة ، وحث على الاهتمام بالقائمين على شئون الإدارة فى دور العلم ولم يستثن فى مشروعه شيئًا من أنواع دور العلم ، بل تحدث عن المدارس الأميرية فى جميع مراحلها ، وعن الأزهر وعن مدرسة دار العلوم .

وأما ما أخذه بعض الباحثين المعاصرين على الأستاذ الإمام فى خطة الإصلاح

التعليمى التى دعا إليها من أنه قسم الطلاب ثلاث طبقات، ظنًا منه بأنه يحصر التعليم العالى فى طبقة ما ، أو ظنًا منه بأن هذه التقسيمات إنما تشعر بعدم المساواة بين المواطنين فى مجال التعليم ، فإنى أقول إن مآخذ هؤلاء الباحثين على الإمام ربما دفعهم إليه التسرع فى الاستنتاج دون العناية والتريث فى مطالعة تفاصيل مشروعاته ، فإنه لم يحجر على أبناء أية طبقة من هذه الطبقات أن يرتفع إلى ما هو أعلى منها ، بل إنه أرجع هذا التقسيم إلى رغبة أولياء أمور الطلاب فى الاكتفاء بقسط معين من التعليم تبعًا لظروفهم الاجتماعية ، ولذلك يقول بالحرف وهو يتحدث عن الطبقة الثالثة : (هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين وكشف الامتحان امتيازهم فى فهمها ، وتخلقهم بالصفات المقصودة بوضعها ، فانتخبوا لذلك على أن يرقى بهم إلى الدرجة العليا من العلم والعمل).

ويعود الإمام إلى مصر فى سنة ١٨٨٨ ، ويبدى رغبته فى العودة إلى دار العلوم معلمًا ، غير أن الخديوى توفيق يأبى ذلك خوفا من تأثير أفكاره السياسية على الطلاب ، ومن ثم قبل الإمام منصب القضاء ، ومع إجادته فى هذا المنصب فإن عينه ظلت ترنوا إلى إصلاح التعليم ذلك المشروع الذى ملك عليه حياته كلها ، خاصة أنه هو المفتاح لكل إصلاح فى أى جانب من جوانب حياة الأمة .

فلما توفى الخديوى توفيق ، وخلفه ابنه عباس حلمى الثانى ، تقدم إليه الإمام بخطة لإصلاح الأزهر وقد استطاع الإمام نتيجة سعيه لدى الخديوى عباس ، استصدار قانون تمهيدى فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٥ م تألف بمقتضاه مجلس لإدارة الأزهر من أكابر شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة ، وكان يمثل الحكومة فى هذا المجلس الإمام محمد عبده ، وصديقه القديم الشيخ عبد الكريم سلمان ، وبتأييد من الخديوى صار الإمام صاحب النفوذ الأكبر فى هذا المجلس . ومما يدل على بعد نظر الإمام فى مشروعة الإصلاحى فى مجال التعليم أنه توجه

أولاً إلى إصلاح حال المعلم حتى يمكنه من العطاء بالحماسة المطلوبة ، فالمعلم يبنى جيلاً فكيف يتسنى له بناء وبيته خراب ، وكان أعلى راتب فى الأزهر إذ ذاك هو ستة جنيهات ولا يناله إلا القلة القليلة من ذوي الحظوة أما الغالبية العظمي من الأساتذة فكان راتب الواحد منهم لا يزيد على ستة عشر قرشًا فى الشهر ، وكثير منهم كانوا لا ينالون رواتب أصلاً اعتماداً على ما يمنحه لهم بعض المحسنين أو على أعمال حرة خارج التدريس يباشرها الشيخ .

إزاء هذا الموقف السيىء الذى يحط من كرامة العلم والعلماء سعى الإمام لدى خزانة الدولة حتى عينت مبلغ ألفى جنية لمساعدة الأزهر ويصرف بنظام ملعوم طبقًا للإجادة لا برأى شيخ الأزهر وميله كما كان متبعًا قبل ذلك .

أما كساوى التشريفة فقد كانت قبل ذلك توزع طبقًا لرغبة شيخ الأزهر فأصبح لها قانون يفضل الإمام ألا ينالها إلا من يستحقها طبقًا لمرتبته العلمية وإجادته التعليمية .

ونظر إلى **مساكن المجاورين** فوجدها مزدحمة وغير صحية كما أن الجراية التى كانت تصرف عليهم فقد كانت غير كافية فزاد فى الأماكن المعدة لسكنى المجاورين ، وجدد الأثاث ، وأوصل المياه إلى مساكنهم ليتمكنوا من أداء الفرائض وعمل على تحسين الإضاءة لهم ، وعين طبيبًا للإشراف على صحتهم كما تم إنشاء صيدلية داخل الأزهر لتمد الطلاب بالأدوية المطلوبة .

أما فى الناحية الإدارية فإنه عمل على إنشاء مكاتب خارج الأزهر لكى تكون مقراً لشيخه ولبقية الإداريين ، بعد أن كان الشيخ يتخذ من بيته مقراً لعمله ويأتى إليه الموظف ليتلقى منه الأوامر .

ولم ينس الإمام **شئون مكتبة الأزهر**، فقد كانت فى أسوأ حال لا يكاد ينتفع بها أحد ، فكانت الكتب موزعة فى الأروقة ، وتسرب كثير منها إلى أيدى الغربيين ، وبيعت نفائسها بأبخس الأثمان إلى باعة الكتب ، وكان الباقى

منها محشواً فى الغرائر والمقاطف ، فكان أن شمر الساعد بفضل توجيهات الإمام إلى وضعها فى المكتبة ، وتم ترتيبها وتصنيفها ، كما شملت هذه الثمرة مكتبات المعاهد التابعة للأزهر مثل الجامع الأحمدى والدسوقى ، ودمياط والإسكندرية .

ولم يكتف الإمام بذلك ، بل عاد إلى التدريس فى الأزهر حيث حاضر الطلاب فى التوحيد ، وتفسير القرآن ، والبلاغة والمنطق .

ولم ينس الإمام ما هو أهم من ذلك كله وهو المواد العلمية التى تعطى للدارسين ، فإن هذه اللجنة أضافت إلى علوم المقاصد مثل التفسير والحديث والفقه والتوحيد علوما أخرى وهى التى أطلق عليها علوم الوسائل مثل الحساب والجبر، وتاريخ الإسلام والإنشاء ، ومتن اللغة وآدابها ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان .

ولما خاف بعض العلماء من طغيان هذه العلوم الحديثة على العلوم القديمة ، أثبت لهم الإمام غير ذلك وبين لهم بالتجربة أن الطلاب الذين ينبغون فى العلوم الحديثة أكثر نبوغًا فى علوم المقاصد من الطلاب الذين يكتفون بهذه العلوم الأخيرة .

غير أنه قد حدثت أمور كانت على غير ما يشتهى الإمام ، فقد تغير عليه ولى الأمر وساءت العلاقة بين الإمام والخديوى عباس وهنا شعر الجامدون من علماء الأزهر أن الفرصة أمامهم مواتية لكى يهدموا ما بناه الإمام ، ولما وصل به اليأس إلى مداه ، استقال من مجلس إدارة الأزهر فى ١٩ مارس سنة ١٩٠٥ ، واستقال معه صديقه الشيخ عبد الكريم سلمان ومعه عضو آخر السيد أحمد الحنبلى ، وعاد الأزهر إلى سيرته القديمة ، وها هو **شيخه الجديد الشيخ عبد الرحمن الشربينى يقول :** (إن غرض السلف من تأسيس الأزهر إقامة بيت لله يعبد فيه ، ويؤخذ فيه شرعه ، ويؤخذ فيه الدين كما تركه لنا الأئمة الأربعة ،

رضوان الله عليهم ، وأما الخدمة التى قام بها الأزهر للدين ولا يزال يؤديها ، فيه حفظ الدين لا غير، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر ، فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغى له بل إنه ذكر أن ما حدث من تدريس للعلوم الحديثة قد أضر بالعلوم الدينية ، وكانت نتيجة ذلك نشر الفوضى بين ربوع الأزهر) .

ولكن هل يئس الإمام ؟ الحق إنه لم ييأس فقد بدأ وهو فى بيته فى التفكير فى مشروع تعليمى جديد يستطيع من خلاله تحقيق أحلامه الإصلاحية التى أوقف عليها حياته ، وذلك أنه اقترح على بعض ذوى اليسار أن يتبرع بقطعة أرض يقيم عليها معهدًا دراسيًا حقيقيًا خارج إطار الأزهر ودسائس الجامدين من علمائه ، وخارج دسائس الخديوى .

وقد قام أحمد باشا المنشاوى بأن أوقف الأرض المطلوبة لهذا المشروع غير أن المنية كانت أسبق إلى إمامنا من إتمام هذا المشروع ، وإن كان الشيخ محمد رشيد رضا قد أتمه فيما بعد ، بأسم (مدرسة الدعوة والإرشاد) رحم الله شيخنا وإمامنا الشيخ محمد عبده .



شخصية الإمام محمد عبده في عيون الشعراء

للمستشار / سعيد عبد الوهاب الزهوى
أمين عام الجمعية الخيرية الاسلامية

الامام محمد عبده شخصية نادرة ، ذومنطق جذاب ، وبريق خلاب ، وسحر يبهر العقول والألباب ، وأسلوب يلهب الأحاسيس والمشاعر ، ويستولى على الأفئدة والخواطر .

إذا تحدث فالصدق شيمته ، وإذا صمت فالوقار سمته ، وإذا أفتى فالشريعة غايته ، وإذا حكم فالعدل شريعته . لا يخاف فى الله لومة لائم ، ولا يخشى فى الحق صولة ظالم ، سعى إلى مجالسه العلماء والتف حوله الحكماء . وتبارى فى وصفه الشعراء .

ومن أفضل الشعراء الذين سبحوا فى بحار فكره ، وغاصوا فى أعماق ذاته ، شاعر النيل « حافظ إبراهيم » والذى وصفه بأجمل الصفات ، ومدحه بأرق العبارات .

ومن أبدع ما صاغه شاعر النيل قصيدته التى نظمها فى تهنئة الإمام الشيخ محمد عبده بمناسبة توليه منصب الإفتاء سنة ١٣١٧ هـ.١٨٩٩ م والتى يقول فيها :

بَلَغْتكَ لَمْ أَنْسُبْ وَلَمْ أَتغَزَّل
وَلَمَّا أَقِفْ بَيْنَ الهَوَى وَالتَّذَلُّلِ[1]
وَلَمَّا أَصِفْ كَأسًا وَلَمْ أَبكِ مَنْزِلاً
وَلَمْ أَنْتَحِل فخرا ولم أَتَنَبَّلِ[2]
فَلَمْ يُبْقِ فِي قَلْبِي مَدِيحُكَ مَوْضِعًا
تَجُولُ بِهِ ذِكْرَى حَبِيب وَمَنْزِلِ
رَأَيْتكَ وَالأَبْصَارَ حَوْلَكَ خُشَّعٌ
فَقُلْتُ (أبو حفص) بِبُرْدَيْكَ أَمْ (عَلى)[3]
وَخَفَّضْتُ مِنْ حُزْنِي عَلَى مَجْدِ أُمَّةٍ
تَدَارَكْتَهَا وَالخطب للخطب يعتلى[4]
طَلَعْتَ بِهَا بِاليُمْنِ مِنْ خَيْرِ مَطْلَعِ
وكُنْتَ لَهَا فِي الْفَوْزِ قِدْحَ (ابنِ مُقْبِل)[5]
وَجَرَّدْتَ لِلْفُتْيَا حُسَامَ عَزِيمَةٍ
بِحَدَّيْهِ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ
مَحَوْتَ بِهِ فِي الدِّينِ كُلَّ ضَلاَلَةٍ
وَأَثْبَتَّ مَا أَثْبَتَّ غَيْرَ مُضَلَّلِ
لَئِنْ ظَفَرَ الإِفْتَاءُ منك بِفَاضِلٍ
لَقَدْ ظَفَرَ الإِسْلاَمُ مِنكَ بِأَفْضَلِ

---

(١) بلغتك : أى وصلت إلى مدحك ـ والمعنى أنه ابتدأ القصيدة بمدحه ولم يسلك طريق الشعراء فى تقديم الغزل والفخر وما إليهما على المدح فى أوائل القصائد .

(٢) أنتحل الشىء : ادعاه لنفسه وهو لغيره . وتنبل الرجل : تكلف النبل وتشبه بالنبلاء .

(٣) أبو حفص : كنية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهى فى الأصل كنية الأسد .

(٤) يريد بقوله « والخطب للخطب يعتلى » : تراكم الخطو بعضها فوق بعض .

(٥) القدح « بكسر القاف » : واحد قداح الميسر ، وهى سهامه ، وقدح ابن عقيل يضرب مثلاً فى حسن الأثر والفوز .

وقال يمدحه ويصف حضرته:

قَـالُوا صَدَقْتَ فكَانَ الصِّدْقُ مَا قَـالُوا
مَـــا كُلُّ مُنْتَـــسِبٍ لـلِقَـــوْلِ قَـــوَّالُ

هَذَا قَـرِيَـضِى وَهذَا قَـدْرُ مُـمْـتَـدِحِي
هَلْ بَـعْـــدَ هَذَيْنِ إِحْكَامُ وَإِجْـــلاَلُ

إِنـى لأَبْـصِـــــــرُ فِـى أَثْـنَاءِ بُـرْدَتِـهِ
نَوراً بِـهِ تَهْـــتَـــدِى لَـلحَقِّ ضُـــلاَّلُ

حَلَـلْتُ دَاراً بِهَـــا تُتْلَـى مَنَاقِـــبـــهُ
بِبَـــابِهَـــا ازْدَحَـــمَتْ لـلنَّاسِ آمَـــالُ

يَا مَن تَـيَـمَّـنَتِ الفُـتْـيَـا بِطَلْعَـتِـهِ
أدرِكَ فَتَـاكَ فَـقَـدْ ضَـاقَتْ بِـهِ الحَـالُ

ولما انتقل الإمام محمد عبده إلي رحاب الله تعالي بكته القلوب قبل العيون ورثاه شاعر النيل حافظ ابراهيم بقصيدة عصماء نشرت فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٠٥ م

إخترنا منها هذه الأبيات

سَلاَمٌ على الإِسْلاَم بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... سَلاَمُ عَلَى أَيَّامِه النَّضِراتِ

عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، عَلَى العِلْمِ والحِجَا ... عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى ، عَلَى الحَسنَاتِ

لَقد كنتُ أَخْشَى عَادِي المَوْتِ قَبْلَه ... فَأَصْبَحْتُ أَخْشَى أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

فَوالهَفِي - والقَبْرُ بَيْنِي وبَيْنْه - ... عَلَى نَظْرةٍ مِنْ تِلْكُمُ النَّظَراتِ

وَقَفْتُ عليه حاسِرَ الرَّأسِ خاشِعًا ... كَأَنِّي حِيَالَ القَبْرِ فِي عَرَفَاتِ

لقد جَهِلُوا قَدْرُ الإِمامِ فَأَوْدِعُوا ... تَجَالِيدَهُ فى مُوحِشٍ بفلاة

ولو ضَرَحُوا بالْمَسْجَدَيْن لأَنْزَلُوا ... بِخَيْرِ بِقَاعِ الأَرضِ خَيْرَ رُفَاتِ

تَبَارَكْتَ هذا الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ ... أَيُتْرَكُ فِي الدُّنْيا بِغَيْرِ حُمَاة ؟

تَبَارَكْتَ هذا عالِمُ الشَّرق قد قَضَى ... وَلاَنْتَ قَنَاةُ الدِّينِ لِلغَمَزَاتِ

زَرَعْتَ لَنا زَرْعًا فَأَخْرَجَ شَطْأَهُ ... وَبِنْتَ وَلِمَّا نَجْتَنِ الثَّمَراتِ

أَبَنْتَ لَنا التَّنْزِيلَ حُكْمًا وَحِكْمَةً
وفَرَّقْتَ بين النُّورِ والظُّلُمَاتِ

ووَفَّقْتَ بين الدِّينِ والعِلمْ والحِجا
فَأَطْلَعْتَ نُورًا مِن ثَلاَث جِهَاتِ

وَقَفْتَ (لِهَانُوتُو) وَ(رينانَ) وَقْفَةً
أَمَدَّكَ فِيهَا الرُّوحُ بِالنَّفَحَاتِ[1]

وخِفْتَ مَقَامَ اللهِ فى كُلِّ مَوْقِف
فَخَافَكَ أَهْلُ الشَّكِّ وَالنَّزَعَاتِ

فيا سَنَةٌ مَرَّتْ بَأَعْوادِ نَعْشِه
لأَنْتِ عَلينا أشْأَمُ السَّنْواتِ

حَطَمْتِ لَنا سَيفًا ، وَعَطَّلْتِ مِنْبِراً
وَأَذْوَيْتِ رَوْضًا نَاضِرَ الزَّهَراتِ

وَأطفَأتِ نِبْرَاسًا وَأَشْعَلْتِ أَنْفُسا
عَلى جَمَراتِ الحُزْنِ مُنْطَوِيَاتِ

مَشَى نَعْشُهُ يَخْتَالُ عُجْبًا بِرِبِّه
وَيَخْطِرُ بَين اللَّمْسِ وَالقُبُلات

تَكادُ الدُّمُوعُ الجَارِياتُ تُقِلُّه
وَتَدْفَعُه الأَنْفاسُ مُسْتَعِراتِ

بَكَى الشَّرْقُ فَارْتَجَّتْ لَه الأَرْضُ رَجَّةً
وَضَاقَتْ عُيونُ الكَوْنِ بالعَبَراتِ

---

(١) هانوتو: هو جبرائيل هانوتو السياسى المؤرّخ الفرنسى . ولد فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٥٣م، وقد كتب مقالات فى الطعن على الإسلام ، ورينان : هو أرنست رينان الفرنسى ، ولد فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٢٣ وقد كان قسا كاثوليكيًا ، وهو مشهور بمطاعنه فى الدين الإسلامى كصاحبه .

فـفِي الهِنْدِ مَخْـزُونٌ وَفِي الصِّينِ جَـازِعٌ
وَفِي (مِـصْـرَ) بِـاكٍ دَائِمُ الحَـسَـرَاتِ
وَفِي الشَّامِ مَفْجُوعٌ، وَفِي الفُرْسِ نادِبٌ
وَفِي تُـونُسٍ مَـا شِـئْتَ مِنْ زَفَـرَاتِ
بَكَى عَـالَمُ الإِسْلامِ عَـالِمَ عَـصْرِهِ
سِـرَاجَ الـدَّيَاجِي هَادِمَ الـشُّـبُـهَـاتِ
بَـكَيْنَـا عَـلَى فَـــرْدٍ وَإِنَّ بُـكَاءَنَـا
عَـلَى أَنـفُسٍ لله مُـنْـقَـطِـعَــاتِ
تَعَـهَّـدَهَا فَـضْـلُ الإِمَـامِ وَحَـاطَهَـا
بِإِحْـسَـانِـهِ وَالدَّهْرُ غَـيْـرُ مُـوَاتِي
فَـيَا مَنْزِلاً فِي (عَـيْـنِ شَـمْسٍ) أَظَلَّنِي
وَأَرْغَمَ حُـسَّـادِي وَغَمَّ عُـدَاتِي
دَعَـائِمُـهُ التَّـقْـوَى .. أَسَـاسُـهُ الهُـدَى
وَفِـيـهِ الأَيَـادِي مَـوْضِـعُ اللَّبِـنَاتِ
عَلَيكَ سَـلَامُ اللهِ، مَـالَكَ مُـوحِـشًـا
عَـبُـوسَ المَغَـانِي مُـقْـفِـرَ العَـرَصَـاتِ
لَقَـدْ كُنتَ مَـقْـصُـودَ الجَـوَانِبِ آهِلاً
تَطُـوفُ بِكَ الآمَـالُ مُـبْـتَـهِـلاتِ
مَـثَـابَةَ أَرزَاقٍ، وَمَـهْـبِطَ حِكْـمَـةٍ
وَمَـطْـلَعَ أَنْـوَارٍ، وَكَـنْـزَ عِـظَـاتِ.

وقال شاعر النيل مدافعا عن الإمام محمد عبده ضد من حمل عليه من أعدائه في الصحف ورسموا له صورا تزرى بقدره:

إنْ صَوَّرُوكَ فإنّما قد صَوَّروا
تاجَ الفَخَارِ ومَطْلَعَ الأنْوَارِ

أو نَقَّصُوكَ فإنَّما قد نَقَّصُوا
دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ المُخْتَارِ

سَخِرُوا مِنْ الفَضْلِ الّذي أُوتِيتَه
واللهُ يَسْخَرُ مِنْهم في النَّارِ

لا تَجْزَعَنَّ فَلَسْتَ أَوّلَ مَاجِدٍ
كَذَبَتْ عَلَيهِ صَحَائفُ الفُجَّارِ

رَسَمُوا بِذَاتِكَ لِلنَّواظِرِ جَنَّةً
مَحْفُوفَةً بِمَكَارِهِ الأَشْعَارِ

وتَقَوَّلُوا عَنْكَ القَبِيحَ وهكذا
يُمْنَى الكَرِيمُ بغَارَةِ الأَشْرَارِ

لَنْ يحْجُبُوكَ عَن الوَرَى أو يَحْجُبُوا
فَلَقَ الصَّباحِ ومَشْرِقَ الجَبَّارِ

أَو يَبْلُغُوا عَليَاكَ حَتى يَبْلغُوا
بَيْنَ الزَّواهِرِ صُورَةَ الجَبَّارِ

مَا أَنْتَ ذَيّاكَ البغِيضُ فَتَنْثَنِي
مُتَسَرْبِلاً بالعَارِ فَوْقَ العَارِ

لَعِبُوا بِهِ فِي صُورةٍ سَفَرَتْ لَهُ
عَنْ عَزْلِهِ فَأَقَامَ حِلْسَ الدَّارِ

الجمعية الخيرية الإسلامية

وقد أنشد شاعر النيل حافظ إبراهيم هذه القصيدة بين يدى المغفور له السلطان حسين كامل فى ليلة أحيتها الجمعية الخيرية بالأوبرا السلطانية .

وقد قالها على لسان صنيعة من صنائع الجمعية كان يتيماً بائساً فكفلته الجمعية حتى اكتمل عقلاً وعلماً .

(نشرت فى ٢٨ مارس سنة ١٩١٦ م)

قَضَّيْتُ عَهْدَ حَداثَتِي
مَا بَيْنَ ذُلٍّ واغْتِرابْ

لَم يُغْنِ عَنِي بَيْنَ مَشرِقِها
ومَغْرِبِها اضطِرابْ

صَفِرتْ يَدِي فَحَوي لها
رَأسِي وجَوْفِي والوِطابْ

وَأنا ابنُ عَشْرٍ ليس فى
طَوْقِي مُكافَحَةُ الصِّعابْ

لَم يَبْقَ مِنْ أَهلي سِوَي
ذِكْرٍ تَناساهُ الصِّحابْ

أَمْشِي يُرَنِّحُني الأَسَي
والبُؤْسُ تَرْنِيحَ الشَّرابْ

فلَكَمْ ظَلِلْتُ علي طَوىً
يَومِي وبِتُّ علي تَبابْ

والجُوعُ فَراسٌ له
ظُفْرٌ يَصُولُ به ونَابْ

فكأنه في مُهْجَتِي
نَصْلٌ تَغَلْغَلَ للنِّصابْ

ولكَمْ صَحِبْتُ الأَبْيَضَيْنِ
فأَبْلَيَا بُرْدَ الشَّبابْ

فَـــإذا ظَـفِـــرْتُ بِـكَـسْـــرَةٍ
فَـــإدامُــــهـــا مِنِّى لُـعـــاب

وعَـلَـيَّ طِـمْـــــرٌ لـو هَـفَـتْ
رِيـحُ الـشّـــمـــال بـه لَـذَابْ

فـــخُـــرُوقُـــه ومَـــصـــائِبِي
في الـعَـدِّ يُخْطِئُـهـا الحِـســابْ

مـــا زَلْـتُ أُوسِـعُ مِـــحْنَتي
صَـبْـــراً وأَحْـتَـــمِلُ الـعَـذابْ

حَـــتَّى تَنْفَّسَ صُـــبْحُ إِقْـ
ـبـــالِي ونَـجْمُ النَّحْسِ غَـــابْ

ولِـكُـلِّ سَـــيْفٍ مُـــصْلَتٍ
لِحَـــوادِثِ الـدُّنْيـــا قِـــرابْ

والـعَـــيْشُ في إقْـــبـــالـه
شَـــهْـــدٌ وفي الإدْبـارِ صَـــابْ

فَـتَـلَـقَّـفَـــتْـنِي فِـــتْـيَـــةٌ
رُحْـبُ الشَّـــمـــائِلِ والجَنابْ

مَـــهَــــدُوا لأنْفُـــسِــهِـم بما
صَنَعُـــوه زُلْفَي واحـــتِـــســابْ

وعَـــدَوْا إلي الحُـــسْني كـــمـــا
تَعْـــدُو المُطَـهَّـــمَـــةُ الـعِـرابْ

كَـم أُسْـــرَةٍ ضـــاقِ الرَّجـــا
ءُ بِـهـــا وأَعْـــيـــاهـا الطـلابْ

دَقُّـــوا عـلـيـــهـــا بـابـهـــا
والـلَّيْـلُ مَـــسْـــدُولُ النِّـقَـــابْ

وتَـعَـــاهَـدُوها مِـــثْـلَـمَـــا
يَتَـــعَـــاهَدُ النَّبْتَ السَّـــحـــابْ

وجَـــمـــالُ صُنْعِ البِّـــرّ
ألا يُسْـــتَـــشَفَ لـه حِـجـابْ

فَـــتَـــحُـــوا المَدَارِسَ حِـسْــبَـةً
وتَـنَـظَّـرُوا حُـــسْـــنَ المآبْ

فـــيـــهـا تَـبَـيَّنْتُ الهُـدَى
وقَـرأْتُ (فَـاتِحَـةَ الكِتَـابْ)

وبهـا صَـدَفْتُ عـن الضّـلالة
واهتَـدَيْتُ إلـي الصَّــواب

وغَـــدَوْتُ انسَـــانًا تُجَـمِّـلُه
الـفَـضـائِلُ لا الـثِّـيـاب

مُـسْـتَـبَـصِّـرا ذا فِـطنَة
تَنْفِي القُشُورَ عن اللُّبـاب

(جَـمْـعَـيّـةٌ خَـيْـرِيّةٌ)
قَـامَـت لَتَـخْـفِـيفِ الُمـصـابْ

قـد كـان فـيـهـا (عَـبْـدُه)
غَـــوْثًـا يُـلَـبِّى مَـنْ أَهَـابْ

مـا غـابَ عـنهـا مَــرةً
حَـتَـى تَـغَـيَّبَ فـى الـتُّـرابْ

ثَبَـتَـتْ وكـان ثَبـاتُهَـا
يَدْعُـو إلـى العَـجَبِ العُـجَـابْ

(فــهى المـلاذ لجليلـنـا)
مـا أَمَّـهـا أَمَلُ وخـابْ

وكما كانت شخصية الإمام / محمد عبده مبهرة للشعراء الذين عاصروه والتقوا به . كانت أيضا مصدر إلهام للشعراء الذين لم يعاصروه ولم يلتقوا به . ولكنهم عاشوا مع فكره المتجدد ، وتأثروا بتراثه الرائع الذي تركه لأجيال بعده ليكون نبراسا يضيء لهم الطريق .

ومن أبدع الشعراء الذين لم يعاصروا الإمام / محمد عبده ولم يلتقوا به وإنما نهل من فكره وتراثه الأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر السابق الذي مدح الإمام بقصيدته الرائعة التي أعدها بمناسبة الاحتفالية التي أقامتها الجمعية الخيرية الإسلامية بمناسبة مرور مائة عام على رحيله والتي يقول فيها :

حَي بَيْنَ الورَي « الإمامَ مُحمْدْ » ... إنَّ ذكراه في العُلاَ تتجدّدْ

كانَ في الفِقه حُجّةً وإماماً ... وبإفتائه الجوابُ المحّددْ

عاش يدعو للدين شهما تقيا ... كم هَدَي النَّاسَ للآلهِ وأرشدْ

ظل حُراً في رأيه وشُجَاعاً ... لا يُحابي السُّلطانَ لا يتودّد

كان في دينه حفيظا أميناً ... كان في النائبات يُدعي ويُقصد

كم أبانت فتواه للناس حقا ... وأبادت ظلما علي الناس عَرْبَد

إن تنامت علي البلاد الدياجي ... فهْوَ في حُلكة الغَياهِبِ فرْقَد

نَهَضَتْ دعوةُ الهُدي بخُطاهُ
نهْضَةً حُرَّةً فلم تتجمد
لاحَ إصلاحُه عظيما عميماً
يَتسَامَي لكل مَجْد وسُؤْدد
مزج الفكر بالتديّن حتي
أصبحت همّة الدّنا تتوقّد
قام يُعلي التعليم نهجا وصَرحا
فتعالي في عهده وتجدّد
يَبْعَثُ الله كلَ قرنٍ إماماً
مُصلحا رائداً ولا يتقيد
يتجلي التجديد عند هداه
يُعْلِنُ الحقَّ في طريق مُعَبّد
وإذا بالإمام كان المرجيً
قام يُعلِي بالحق دينَ مُحمد
حَسَدَتْهُ بعضُ الفئاتِ ومن كان
كهذا الإمام لا بُدَّ يُحسد
مَرَّ قَرْنٌ ولم يزل في دُنانا
فِكرُهُ نَابِضَ الهُدَي يَتفرّد
رَدَّ عن دينه الأعاديَ لمَّا
جمعوا جمعَهم لشّرٍ تبلّد
فإذا الحق في يديه قَوِيٌّ
كان أقوي من كل سيف مهند
ردّ عن ديننا الفِرَي بهداهُ
وأزاح الضلال لا يتردّد

يا إمـــام الإفـــتـــاء غـــامتْ علينا
تُـزَّهاتٌ مـن ظـالمٍ يَتَـــــمــــرَّدْ

يا إمـــام الإفـــتـــاء جـــار عــلي
الديـنِ ضَـــلالٌ يُـذيبُ قلـبَ الجَلْمَــد

يا إمـــام الإفــتـــاء لـو كنتَ حَـــيّـاً
لرأيـتَ الذي جَـــمـــعْتَ تـبـــدّد

أمّـــةُ الحق قــــد تَدَاعَي عليـــهـــا
مَـنْ طـغـي مَـنْ بَـغَـي وأرْغَـي وأزْبَـد

ربّنَا ابـعثْ من يجـمع الشـمل فـينا
ببـناءٍ لـلعـــدلِ عَـــالٍ مُـــوَحّـــد

ويردّ الـفِـــرَي عن الديـن حـــتي
يَنْـصُـــرَ اللهُ ربُّنـا دينَ أحـــمـــد

خاتمة

إطلالة على مسيرة
الجمعية الخيرية الإسلامية
للمستشار / سعيد عبد الوهاب الزهوى
نائب رئيس هيئة قضايا الدولة
وأمين عام الجمعية الإسلامية

فى هذه الليلة المباركة التى صفت سماؤها وأشرق ضوؤها وفاح عبيرها.

وفى رحاب هذا المكان العريق من جامعة الأزهر الشامخة تقيم الجمعية الخيرية الإسلامية هذه الإحتفالية بمناسبة مرور مائة عام على رحيل أحد مؤسسيها وهو الإمام / محمد عبده الذى رأس مجلس إدارتها من سنة ١٩٠٠م إلى سنة ١٩٠٥ م ، احتفاءً بهذا العالم الجليل والمفكر العظيم وتقديراً للدور الكبير الذى قدمه للأمة الإسلامية بصفة عامة وللجمعية الخيرية الإسلامية بصفة خاصة .

وأنه لمن يمن الطالع أن تتواكب تلك الإحتفالية التى نعيشها الآن مع إحتفال كافة الدول والشعوب العربية والإسلامية ، بعيد هجرة رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة لتزداد الإحتفالية إجلالاً وتعظيمًا .

ولعل الكثير من الحاضرين لا يعرف إلا اليسير عن هذه الجمعية العريقة التى لعبت دوراً كبيراً ورائداً فى الماضى على يد شخصيات مصرية رائدة ، وما

تزال تؤدى هذا الدور فى الحاضر والمستقبل على أيدى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

ومن هنا نرى أنه من الواجب فى مقدمة هذه الإحتفالية أن نلقى الضوء فى كلمات وجيزة على هذه الجمعية العريقة وما قامت به من أعمال جليلة ورائدة فى الماضى وما تزال تقوم به فى الحاضر والمستقبل .

فقد تأسست الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٨٩٢ على أيدى رموز مصرية رائدة من أمثال الشيخ / محمد عبده ، وقاسم أمين ولطفى السيد ومحمد فريد ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وسعد زغلول الذى قدم مشروع لائحة الجمعية فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٢ محددًا الغرض من الجمعية بأنه رعاية المحتاجين وفقراء المسلمين من خلال النهوض بهم تعليميًا وصحيًا .

أولاً : فى مجال التعليم :

استطاعت الجمعية خلال العامين الأولين من إنشائها أن تفتح العديد من المدارس فى القاهرة والإسكندرية وطنطا وأسيوط تضم عددًا هائلاً من أبناء الفقراء يتعلمون بالمجان تعليمًا مميزًا يحفظ لهم دينهم وييسر لهم طريقهم فى الحياة . ثم انتشرت مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية بعد ذلك حتى عمت مختلف أحياء ومدن القطر المصرى .

وكان العديد من أغنياء الأمة الذين يعرفون للتعليم قدره وتأثيره فى بناء الوطن ونهضته وانتشال أبنائه من قاع الفقر والجهل إلى عالم التقدم والحضارة ، يتقدمون إلى الجمعية متبرعين بالأرض التى أقيمت عليها العديد من المدارس فى ربوع المعمورة وأقاليمها ، والتى استوعبت العدد الأكبر من أبناء الفقراء لتوفر لهم الغذاء والكساء والتعليم الذى كادوا يحرمون منه من ضيق ذات اليد.

وبقيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وصيرورة التعليم بكافة مراحله مجانًا رأت الجمعية أن رسالتها للتعليم قد انتهت فقامت بالتنازل عن المدارس التابعة لها فى القاهرة والإسكندرية وباقى محافظات الوجه القبلى والبحرى إلى وزارة التربية والتعليم دون مقابل.

ثانيًا: فى مجال الصحة:

وتحقيقًا لأهداف الجمعية فى الأخذ بيد المرضى الفقراء وانتشالهم من تلك الأمراض التى تهدم تطور الأمة ورفعتها وتقضى على آمال الشعوب وتقدمها، وانطلاقًا من إيمان الجمعية بأن العقل السليم فى الجسم السليم، ولن يكون الجسم سليمًا إلا إذا وجد اليد التى تحنوا عليه إذا مرض وتقدم له العلاج الذى لم يكن ميسوراً فى ذلك الوقت إلا للقليل لقلة الموارد والمغالاة فى ثمن العلاج وارتفاع أجور المصحات.

فقد بادر مجلس إدارة الجمعية بجلسته المنعقدة فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ بالموافقة على إقامة مشروع ضخم متكامل لمستشفى الجمعة الخيرية الإسلامية بالعجوزة بكورنيش النيل (المسمى الآن بمستشفى العجوزة) يتسع لنحو ٢٠٠ سرير قابلة للزيادة **وظلت الجمعية الخيرية الإسلامية تدير هذا المستشفى لمعالجة الفقراء مجانًا والقادرين بتكاليف محدودة حتى صدر قرار جمهورى سنة ١٩٦٥ بالإستيلاء على جميع المستشفيات التابعة للجمعيات الخيرية وضمها لوزارة الصحة لإدارتها بمعرفة المؤسسة العلاجية**[١].

---

(١) يراجع كتيب الجمعية الخيرية الإسلامية فى مسيرة مائة عام للمستشار الدكتور / محمد شوقى الفنجرى

ثالثاً: مدرسة حلوان الثانوية الصناعية للبنات:

أنشأت الجمعية مدرسة حلوان الصناعية للبنات فى سنة ١٩٢٧ وكان القبول فى هذه المدرسة قاصراً على البنات اليتيمات المعدمات مع تقسيم الدراسة على مرحلتين المرحلة الإبتدائية وفق منهج وزارة التربية والتعليم والمرحلة الثانية تكون عملية على غرار المدارس الثانوية الصناعية بوزارة التربية والتعليم يراعى فيها التدريس على أحدث ما وصل إليه التطور من آلات بأقسامها المختلفة ، وتقيم المدرسة معرضًا سنويًا بمقرها الكائن ٤١ شارع / مصطفى صفوت بحلوان تعرض فيه انتاج الطالبات خلال السنة الدراسية والذى يمتاز بالذوق العالى والفن الرفيع مما يجعل الجماهير تقبل على شرائه بصورة منقطعة النظير .

وقد صدر القرار الوزارى رقم ٩٢ لسنة ١٩٦٨ فى شأن معادلة بعض الشهادات ونص فى مادته الثالثة بأن تعتبر شهادة إتمام الدراسة الصناعية للبنات من مدرسة البنات الصناعية التابعة للجمعية الخيرية الإسلامية (نظام حديث بعد عام ١٩٦٤) معادلة للشهادة الإعدادية الفنية للبنات ومناظرة لها .

ويعمل مجلس إدارة الجمعية جاهداً على تطوير القسم الثانى واستصدار قرار من وزارة التربية والتعليم بمعادلة شهادة إتمام الدراسة الصناعية به لشهادة دبلوم المدارس الثانوية الصناعية ومناظرة لها .

ومن الجدير بالذكر أن الجمعية الزراعية الملكية تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول قد منحت مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية الصناعية للنبات بحلوان جائزة الميدالية الذهبية فى صناعة السجاد فى يوم الجمعة ١٨ محرم سنة ١٣٥٥هـ الموافق ١٠ أبريل سنة ١٩٣٦ بتوقيع جلالة الملك فؤاد الأول .

وبالمدرسة الآن حوالى ٣٠٠ طالبة يتسابق على تشغيلهن المصانع والمؤسسات فى المدن الصناعية الجديدة .

رابعًا : فى مجال رعاية المسنين :

وبالجمعية ثلاث دور للمسنين والمسنات هى دار السلام بأسعار مخفضة دون نصف التكلفة الفعلية ، ودار الأورمان وهى بسعر مخفض أيضًا دون التكلفة الفعلية ودار الضيافة وهى بالمجان لكبار السن المعدمين الذى لا مأوى لهم ، وهى الدار الوحيدة على مستوى الجمهورية التى تستضيف كبار السن بالمجان .

والجمعية توفر للدور الثلاثة الرعاية الطبية فضلاً عن الرحلات الترفيهية والندوات الثقافية والدينية .

خامسًا : فى مجال المساعدات :

تقوم الجمعية بصرف معاش شهرى لعدد حوالى (٧٠٠) سبعمائة أسرة يتراوح ما بين ٣٠ جنية وسبعين جنية شهريًا بعد بحث حالتهم بمعرفة قسم المساعدات الذى يضم نخبة من الأخصائيين الإجتماعيين تحت إشراف لجنة المساعدات المشكلة من العديد من أعضاء الجمعية الذين لديهم خبرة متميزة فى هذا المجال .

كما تقوم الجمعية بصرف إعانة شهرية قدرها خمسون جنيها لعدد ٤٨٠ طالب وطالبة من مختلف جامعات مصر شريطة الاحتياج والتفوق بعد إعداد بحوث إجتماعية بمعرفة الإدارة المختصة بكل جامعة بإشراف لجنة المساعدات بالجمعية.

هذا بخلاف الإعانات العاجلة التى تصرف فورًا طبقًا للحالة المعروضة ومدى احتياجها إلى تلك المساعدة.

سادساً : مشروعات أخرى قائمة تديرها الجمعية مثل :

١. مركز الأسر المنتجة :

الذى يقوم بتدريب السيدات ربات البيوت والفتيات على أعمال الحياكة والتطريز والكروشيه ، وتقوم الجمعية بتقديم ماكينة هدية لغير القادرين منهن بعد إنتهاء فترة التدريب وتسليمهن شهادة التخرج ، هذا بالإضافة إلى قيام الجمعية بتسويق منتجاتهن فى معرض دائم بمقرها ٣١٣ شارع / بورسعيد بالسيدة زينب . وقد قام المركز بتخريج مئات المتدربات بعد إجتيازهن فترة التدريب بنجاح والتى تتراوح من ثلاثة إلى ستة أشهر .

٢. مركز العلاج الطبيعى :

وبالجمعية مركز للعلاج الطبيعى به العديد من الأجهزة الحديثة التى تستخدم فى شتى أنواع العلاج الطبيعى والجامنيزيوم والتخسيس يعمل به أخصائيون مشهود لهم بالكفاءة والخبرة تحت إشراف لجنة مركز العلاج الطبيعى التى تضم نخبة من أفضل أساتذة العلاج الطبيعى فى مصر .

٣. فصول تحفيظ القرآن الكريم :

رأت الجمعية أن خطراً داهمًا يهدد شباب الأمة بعد غياب مكاتب تحفيظ القرآن الكريم فى ربوع المعمورة (والتى كانت تسمى قديمًا « الكتاتيب ») والتى كان لها أعظم الأثر فى تخريج جيل من الشباب الذى يحفظ الكثير من القرآن الكريم إن لم يكن يحفظه بأكمله ، مما كان ل أثره الواضح فى تأصيل ملكاتهم اللغوية وتعميقها فى عقول هؤلاء الشباب ، فضلاً عن تقوية ملكاتهم الإنشائية والخطابية . وانطلاقًا من حرص الجمعية على إعادة هذا الدور الحيوى للكتاتيب فقد قامت بفتح مكتب تحفيظ القرآن الكريم للأطفال من سن ٤ إلى

١٢ سنة يقوم عليه محفظون ذوو كفاءة ، هذا فضلاً عن وجود فصل لكبار السن .

كما تحرص الجمعية على المساهمة فى مشروع تحفيظ القرآن الكريم التابع لجمعية المساعى المشكورة بمبلغ ١٥٠٠٠ جنية (خمسة عشر ألف جنيه) سنويًا منها عشرة آلاف جنيه من وقفية السيدة / حفيظة الألفية وخمسة آلاف جنية من وقفية المستشار الدكتور / شوقى الفنجرى ، وذلك حرصًا من الجمعية على نجاح هذا المشروع طبقًا لوثيقة التآخى بين الجمعيات .

ومن الجدير بالذكر أن هذا المشروع قد حقق نجاحًا كبيرًا ورائداً ولاقي مساندة عظيمة من أهل الخير بفضل الله تبارك وتعالي والمساعي المشكورة للسيد المستشار حامد عبد الدايم رئيس محكمة الاستئناف الأسبق ورئيس جمعية المساعي المشكورة واخوانه من أعضاء الجمعية وتشارك الجمعية في الاحتفال السنوي الذي تقيمه جمعية المساعي المشكورة في احدي ليالي شهر رمضان المعظم لتكريم نماذج من الفائزين من الحُفاظ في المسابقة الكبري التي يتجريها تلك الجمعية علي مدار العام .

كما قامت الجمعية بتدعيم معهد القرآن الكريم وعلومه بمدينة العاشر من رمضان التابع للجمعية الشرعية وقد خصص له مبلغ ١٠٠٠٠ جنيه سنويًا منها خمسة آلاف جنيه من عائد وقفية السيدة / حفيظة الألفية وخمسة آلاف جنيه من وقفية فضيلة الشيخ / عبد الوهاب الزينى وبصدد تقنين ذلك فى وثيقة التآخى بين الجمعيتين .

٤.دار الطالبات المغتربات :

وحرصًا من الجمعية على إيواء الطالبات المغتربات الجامعيات من مختلف محافظات مصر واللاتى لا يجدن سكنًا فى العاصمة ، خاصة من ذوى

الدخل المحدود فقد أنشأت داراً للمغتربات برسوم زهيدة جداً . توفر لهم الرعاية الطبية والندوات الثقافية والرحلات الترفيهية . فضلاً عن نظام الدار الصارم الذى يوفر لهم الراحة والأمان ويمكنهم من استذكار دروسهم فى جو من الهدوء والاستقرار .

وقد شهدت الدار إقبالاً من الطالبات فى الآونة الأخيرة . وبالإدارة قائمة إنتظار فيما يزيد على مائة طالبة مما حدا بنا إلى التفكير فى توسيع الدار لتضم ضعف العدد الموجود بها حالياً .

٥. العيادات الطبية المتخصصة :

وبالجمعية عيادة طبية تضم كافة التخصصات وبها أحدث الأجهزة الطبية من كمبيوتر وجهاز أشعة تليفزيونية ومعمل للتحاليل الطبية وعيادة للأسنان يشرف عليها أساتذة من ذوى الخبرات النادرة من أعضاء الجمعية .

وجميع هذه المشروعات تؤدى خدماتها بأجور رمزية للقادرين ، وبالمجان للفقراء والمحتاجين .

ومن الجدير بالذكر أن الرجال الذين أسسوا هذه الجمعية وعلى رأسهم صاحب هذه الإحتفالية كانوا أبعد نظرًا وأوسع إدراكًا **فقد أدركوا أن الجمعية لن يكتب لها الإستمرارية فى أداء دورها الرائد المتفرد إلا إذا كان لها موردًا ثابتًا تنفق منه على مشروعاتها المتعددة فأوقفوا لصالحها العديد من الوقفيات سواء أكانت عمارات سكنية أو أرض زراعية هى مصدر تمويلها والإنفاق على مشروعاتها حتى الآن .**

واستمرارًا لهذا النهج القويم الذى انتهجه مؤسسوا هذه الجمعية أدرك السادة الأعضاء القائمون على شأن الجمعية الآن وعلى رأسهم الأستاذ المستشار الدكتور / محمد شوقى النفجرى رئيس مجلس الإدارة أنه لابد من إحياء نظام الوقف وإبرام الوقفيات لصالح الجمعية .

ولقد وفقه الله تبارك وتعالى وبعد جهد جهيد وعناء مضنى استطاع بصبر ومصابرة وعزيمة قوية ، أن يبرم فى العامين السابقين وقفيات لصالح الجمعية قدرها ثمانية مليون جنية من الخيرين من أعضاء مجلس إدارة الجمعية وغيرهم الذين يسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، ويُنتظر بمشيئة الله تعالى أن تصل قيمة الوقفيات فى نهاية هذا العام إلى عشرة مليون جنية ، وهذا يعتبر إضافة إلى رأس مال الجمعية حتى تستطيع تنفيذ مشروعاتها التى تحت التنفيذ .

مشروعات للجمعية تحت التنفيذ :

١ـ مشروع تعلية دار المسنين بالعقار رقم ٣١٣ شارع / بورسعيد والتى قامت الجمعية بالبدء فيه العام الماضى بإضافة أربعة أدوار على المبنى المكون من دورين ليتسع إلى حوالى ٣٠٠ مسن ومسنة بالإضافة إلى العيادة الطبية وقاعة محاضرات تتسع لحوالى ٥٠٠ فرد .

وقد أوشك هذا المشروع على الإنتهاء وتسلميه للجمعية فى أواخر شهر مارس القادم إن شاء الله .

٢ـ مشروع رعاية المسنين وكفالة الفتاة اليتيمة بأرض المعادى وقد أعدت خرائط المشروع وجارى إستخراج الترخيص للبدء فى تنفيذه .

٣ـ مشروع مجمع خيرى بأرض الجمعية بمدينة ٦ أكتوبر حيث حصلت الجمعية فى هذه المدينة على نحو فدان ونصف أدت عنه لجهاز ٦ أكتوبر نحو ميلون وربع مليون جنية لإقامة مجمع خيرى لرعاية اليتامى والمسنين وخدمات تعليمية وصحية ، وقد تم إستخراج الترخيص وإعداد كراسة الشروط والمواصفات تمهيداً لطرح هذا المشروع فى مناقصة عامة للبدء فى التنفيذ .

٤ـ مشروع مكتب تحفيظ القرآن الكريم ومكتبة عامة ودار للطفل اليتيم ودار للمغتربات بأرض الجمعية بمدينة العاشر من رمضان وقد تم استخراج الترخيص وتم طرح العملية للبدء فى التنفيذ .

٥ـ مشروع إقامة مجمع مدارس وعمارة سكنية للشباب بأرض الجمعية بالمنصورية بالجيزة وهو محل دراسة اللجنة الهندسة .

٦ـ مشروع إقامة مركز فنى وتدريب مهنى بأرض مدرسة حلوان الصناعية للبنات وقد تم تقديم كافة الرسومات والخرائط المطلوبة وفى انتظار إستصدار الترخيص من الجهة الإدارية المختصة .

مما سبق يتضح أهمية هذه الإحتفالية الذى كان صاحبها ورفاقه ممن أسسوا الجمعية الخيرية الإسلامية سببًا فى هذا الخير العميم الذى سيظل مستمراً بمشيئة الله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾

[سورة الرعد الآية : ١٧]

فهرست محتويات الكتاب

رقم الإيداع

٩٣٤٤/ ٢٠٠٥

إصدارات الجمعية الخيرية الإسلامية المتوفرة حالياً:

١- الجمعية الخيرية الإسلامية مسيرة مائة عام ١٨٩٢/١٩٩٢م إصدار أكتوبر سنة ١٩٩٢م.
٢- الجمعية الخيرية الإسلامية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها.
٣- بيان وثائقى بالأوقاف القديمة الصادرة لصالح الجمعية - إصدار سنة ٢٠٠٠م.
٤- بيان وثائقى للأوقاف الحديثة الصادرة لصالح الجمعية - اصدار سنة ٢٠٠٤.
٥- فتاوى الإمام محمد عبده إعداد فضيلة المفتى الدكتور/ على جمعه اصدار ٢٠٠٥.

مجلدات الفكر الإسلامى المعاصر:

١- مجموعة محاضرات الجمعية فى موسميها الثقافيين ٩٤/١٩٩٥ و٩٥/١٩٩٦م.
٢- مجموعة محاضرات الجمعية فى موسميها الثقافيين ٩٦/١٩٩٧ و٩٧/١٩٩٨.
٣- مجموعة محاضرات الجمعية فى موسميها الثقافيين ٩٨/١٩٩٩ و٩٩/ ٢٠٠٠.
٤- مجموعة محاضرات الجمعية فى موسميها الثقافيين ٢٠٠٠/ ٢٠٠١ و٢٠٠١/٢٠٠٢.
٥- مجموعة محاضرات الجمعية فى موسميها الثقافيين ٢٠٠٢/٢٠٠٣ و٢٠٠٣/٢٠٠٤.

احتفاليات الجمعية بروادها:

١- كتاب احتفالية الإمام/ محمد عبده - رئيس مجلس إدارة الجمعية فى الفترة من ١٩٠٠ إلي ١٩٠٥م.
٢- كتاب احتفالية الإمام الأكبر الشيخ/ مصطفى المراغى - رئيس مجلس إدارة الجمعية فى الفترة من ١٩٤١ إلي ١٩٤٥م
٣- كتاب احتفالية الإمام الأكبر الشيخ/ مصطفى عبد الرازق - رئيس مجلس إدارة الجمعية سنتى ١٩٤٥/١٩٤٦م.
٤- كتاب احتفالية/ لطفى باشا السيد - رئيس مجلس إدارة الجمعية فى الفترة من ١٩٤٧ إلي ١٩٦٣م.
٥- احتفالية الدكتور/ عبد الحميد بدوى - رئيس مجلس إدارة الجمعية فى الفترة من ١٩٦٣ إلي ١٩٦٥.
٦- كتاب احتفالية الزعيم/ سعد زغلول - عضو مجلس إدارة الجمعية منذ نشأتها ١٨٩٢ حتى وفاته سنة ١٩٢٧م.
٧- كتاب احتفالية/ طلعت باشا حرب - سكرتير عام الجمعية منذ نشأة الج... وفاته فى ٢١/٨/ ١٩٤١م.

ندوات الجمعية:

١- كتاب ندوة الوقف بهدف تغيير قانون الوقف فى ٢١ فبراير سنة ٢٠٠٠م.
٢- كتاب ندوة اللغة العربية / الواقع والمأمول فى ١٧ مارس سنة ٢٠٠١م.
٣- كتاب ندوة العمل الخيرى / الواقع والمأمول فى ١٨ فبراير سنة ٢٠٠٢م.
٤- كتاب ندوة الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم فى ٢٤ فبراير سنة ٢٠٠٣م.



